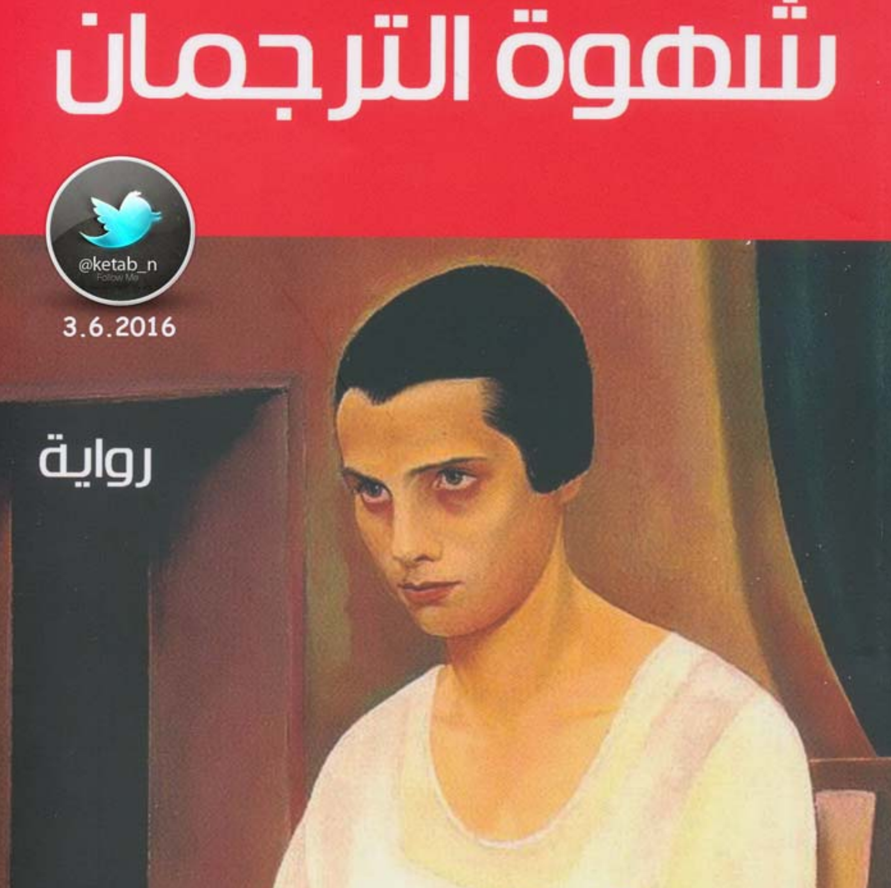
شربل داغر

شهوة الترجمان



رواية

المركز الثقافي العربي

شربل داغر

شهوة الترجمان

رواية



المركز الثقافي العربي

الكتاب

شهوة الترجمان

تأليف

شربل داغر

الطبعة

الأولى، 2015

عدد الصفحات: 352

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-782-7

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522303339 ـ 0522307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

«متى وجدناه (الترجمان) أيضاً قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخلَ الضيمَ عليهما، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذ منها، وتعترض عليها».

(الجاحظ، كتاب «**الحيوان**»)

«قد تكون (الترجمة) تضليلاً وخداعاً، تزويراً واختراعاً، وأكذوبة بيضاء»؛ ومن يشارك فيها «يصبح أذكى، يتحول إلى قارىء أفضل: أقل اعتداداً بنفسه، لكنه أكثر رهافة في أحاسيسه، وأكثر سعادة».

(ألبرتو مانغويل، «**تاريخ القراءة**»)

الفصل الأول

قتيل في غابة الأرز

التهمتني مثل ثمرة، وبصقتني مثل نواة.

أمسكتني بضربة يد واحدة. بيدها اليمنى أخذتني بثقة آمرة.

انقدتُ إليها. جعلتني أتبعها، فلا أمشي إلى جانبها.

هذا ما حدث في غفلة مني، مثل من يتعثر في مشيته، فإذا به ينزلق. وقبل أن يتحقق من انحداره المتتابع، يسلِّم قدميه، بل جسده كله، للانحدار المتسارع، بل يلتذُّ بما يحصل له، إذ يفقد أيّ رقابة على جسده، وعلى ميلانه المتناهي صوب الانحدار. انحدار، بل استرخاء ممتع، كما في أحلام الليل، أو في رغبات النهار الصاحية، في عتمة الفراش، بين رخاوة المخدّة وليونة السرير المتجاوب.

قطفتني برغبة حاسمة، قبل أن تتناولني بلمساتها المتلاحقة.

أكتب هذا في اليوم التالي، في المقهى عينه، وقد انتهى بي انحداري إلى وقفة صادمة، مباغتة ونهائية، ينتهي فيها النازل إلى مراجعة قد لا تكون سعيدة، حتى للحظات المتعة أو دقائقها المتسارعة، إذ نسي جسده، بل حمله إلى غابات كثيفة وظليلة في الوقت عينه، إلى غابة الليل التي في الجسد.

دخلتُ إلى المقهى، هذه المرة أيضاً، من الباب عينه، كما قبل يوم، وكما في زياراتي السابقة. دخلت من الباب الثاني، الذي يفضي على «ساحة بروغلي»، واتجهت إلى المقعد عينه الذي وقع نظري فيه على نظرها. كان مقعدها خالياً، اليوم، وما كانت تنتظر رؤيتي كما قبل يوم. كنت أتجه يومها إلى مقعدي الاعتيادي، المطل جانبياً على الساحة، لكنني اتجهت بقوة مغناطيسية خفيَّة إلى الجهة المقابلة، إلى جانب طاولتها.

لكنني خرجت على عجل، وسلكت درب المكتبة المجاورة للوصول إلى الفندق. لم أحسن الوصول إليه في الأزقة الداخلية، قبل أن أستلّ من جيب معطفي «دليل ستراسبور»، طالباً الوصول إلى محطة القطار: إنه «فندق الراين»، الواقع مع فنادق أخرى مقابل المحطة الدولية... إنه الأرخص سعراً بينها... وجدتُ عاملة الفندق، ذات النظارتين السميكتين، التي التقيتها يوم أمس، عند دخولي إليه معها. لم تجبْ عن أسئلتي كلها، بحجة أنني لست شرطياً أو محققاً بوليسياً. ولما ألححت في السؤال عن اسمها، عن عنوانها، عن مكان انتقالها، أجابتني بشدة: مدير الفندق أجاب عن كل الأسئلة، وهي في عهدة الشرطة.

زادت أسئلتي لها، وزاد امتعاضها مني. أنهت الحديث معي بالقول: اسمعْ... نزلتْ في الفندق قبل يومين، وغادرتْ ظهر البارحة، بعد دقائق قليلة على مغادرتك الفندق. إنها ألمانية، واسمها في بطاقة الهوية: دانييلا شوغولا.

حللت في مقهى قريب من الفندق، مقهى «الإكسبريسو»، حاملاً معي أسئلة كثيرة، وأجوبة قليلة. كان في ودي الصعود من جديد إلى

الغرفة: رقم 12. لم يبقَ شيء من دون شك. لم يبقَ سوى الصدمة التي جعلتني أنام ليلة أمس مثل الملسوع، أتقلب بين أخيلة قبيحة، تتخللها صراخات صوتها.

في المقهى لم أتردَّد في وصل شبكة هاتفي الجوال بشبكة المقهى، والبحث عبر «غوغل» عن: دانييلا شوغولا. كانت الخيارات عديدة، متاحة: أيّ دانييلا بين كلّ هذه الأسماء المتتالية، التي تحيل على أسماء ألمانية في الغالب؟

وجدتُ أكثر من دانييلا واحدة في المحفوظات الإلكترونية: أميرات، جامعيات، كاتبات، راهبة «هاربة» من ديرها، شابة بلباسها العاري للسباحة، من دون أن تشبه الغائبة، وهي أصغر منها عمراً.

عدتُ إلى «مقهى بروغلي» في يومين متلاحقين، ما لم يكن في عاداتي أبداً، إذ كان لي فيه موعد أسبوعي فقط، فيما أكتفي، في أوقات فراغي، بالتجول في ستراسبور، مدينتي الجديدة. اخترت هذا المقهى بعد أن وقعت عليه في منتهى نزهتي في اليوم الأول، الذي قررت فيه التعرف على المدينة. خرجت من «فندق إسبلاناد»، ورحت أمشي بعكس سكة الترامواي، في خط مستقيم، ثم درتُ يساراً صوب جسر، ومنه وصلت إلى فسحة عريضة تتخللها منصات ومحلات بيع لباعة متجولين.

لم أكن أرغب في أي ضياع، طالما أن أموراً عديدة تنتظرني وتشغل أوقاتي وأيامي: من السكن حتى العمل مروراً بدائرة الشرطة، قبل أن أتفرغ تماماً لعملي الجديد، ولمشروعاتي المثيرة التي قادتني إلى هذه المدينة. ضمنتُ لنفسي، يومها، طريقاً هيناً، واضح الانتقالات، فيما رحت، بعد تأكدي من موقع الساحة العريضة،

«ساحة بروغلي»، بالنسبة إلى خريطة طريقي، أتنقل في الشوارع المتفرعة منها.

في جميع زياراتي للمقهى، يوم الجمعة قبل الظهر، قبل العاشرة صباحاً، أقتعد الطاولة نفسها، على مقربة من الباب الزجاجي، لكي أحسن متابعة ما يجري في الشارع، وفي داخل المقهى في الوقت عينه. أهذه من عادات المترجمين: أن يكونوا بين مكانين، في الخط الواصل بينهما؟

لم أعد أطيق البقاء في شقتي الصغيرة. ما كان يبدو اكتشافاً وتعرفاً على المدينة، راح يتحول إلى ضيقٍ وتبرُّم فيها. أخرج مثل تائه، لا مثل باحث عن وجه ضائع.

في المقهى، أو خارجه، لما أكون ساهماً في مقعدي في «الترامواي»، أو مستلقياً على سريري الضيق، أو لما أكتب في دفتري الأزرق، أو أسهو أثناء قراءة أحد مجلدات «ألف ليلة وليلة»، أستعيد ما حدث لي مع دانييلا: ما أن جلستُ في «مقهى بروغلي» حتى بادرتني الكلام كما لو أنها تنتظرني، أو تستكمل حواراً مقطوعاً للتو:

- من هنا يمكن رؤية الداخلين والخارجين في صورة أفضل.
- بطبيعة الحال، هذا ما أقوله لنفسي دوماً.

لم يُتح لي طلب فنجان القهوة كالمعتاد، ولا سماع جملتها الثانية، التي قالتها من دون أن أتبيّنها تماماً، إذ أمسكتْ بيدي اليمنى، ودَعَتني إلى اللحاق بها. مضتْ أمامي، من دون أن تلتفت وراءها، بثقة من يعرف، بل مَن يُحسِن إصدار الأوامر. لحقتُ بها، على الرغم من أنني لم أسمع جملتها الأخيرة بسبب تعثرها في

النطق. وهو ما تأكدتُ منه إذ وجدتُ يدها، وهي ممسكة بيدي، مرتبكة هي الأخرى.

في الشارع ذي البلاطات السوداء مشت إلى جانبي، بخطى حثيثة:

- لا يبعد الفندق سوى خطوات قليلة.

عن أي فندق تتحدث؟ نظرتُ إلى وجهها من دون أن أراه تماماً. كانت تسبقني بقليل. ما أتيح لي رؤيته كان معطفها الخفيف ذي اللون المعتم. كانت تمشي بانتظام، بعد أن فكّت يدها عن يدي، من دون أن تقول شيئاً مزيداً. حاولتُ أن أتلفظ جملة، فأتت متناثرة، مثل قرقعة كلام ليس إلا، فإذا بها تقول من دون أن تحيد عن مشيتها النظامية:

- هل وجدتَ المسافة بعيدة؟... لا تتبرمْ. سنصل بعد قليل.

لم أجبْ. اكتفيت بالانتباه إلى أنّ في حديثها بالفرنسية لكنة ظاهرة. قنعتُ بالمضي قدماً إلى جانبها، من دون أن أنعم بغموض المشي المتمهل في شوارع وأزقة ستراسبور الداخلية.

فقد حلا لي، منذ حلولي فيها، قبل ما يزيد على الشهر، التمشّي من دون خريطة، وفق إيقاع غامض. أمشي بتمهل ناظراً، بل ممعناً في النظر إلى ما يعرض لي. كما لو أنني أقرأ في واجهات عماراتها، أو في علامات السيارات والحافلات، أو في هيئات العابرين والعابرات، ما يمكن مطالعته مثل حروف أو ألفاظ في كتاب وقعتُ عليه صدفة، واندفعتُ في قراءته من دون استهداف مسبق.

بمجرد وصولنا إلى الفندق ذي الواجهة الزجاجية، طالبتْ الموظفة بمفتاح غرفتها: رقم 12. أشارت إليها من دون أن تلتفت

إليها: لا تنسي، ساعة المغادرة في الثانية عشرة ظهراً. كانت قد أمسكت بالمفتاح، وتأكّدَت من لحاقي بها. ضغطتْ مرة، ثم مرتين، ثم عدة مرات على زر المصعد الكهربائي... دعتني إلى الصعود مشياً، فيما كانت موظفة الاستقبال تُخطرنا بأن عاملة التنظيف تشغل المصعد لعدة دقائق أثناء عملها الصباحي.

ماذا لو تزورني دانييلا؟ كيف لها أن تعرف عنواني، وهي لا تعرف اسمي أساساً؟

لم يكن الانتقال من «فندق إسبلاناد» إلى شقتي الجديدة بالصعب، إذ يقع الفندق على مبعدة خطوات قليلة من الحي الجامعي المعروف باسم: «إسبلاناد»، هو الآخر. اقتصر الأمر على نقل حاسوبي الصغير، وحقيبة جلدية بسيطة، بعد أن وصلتْ قبلي إلى المدينة حقيبتين لثيابي، الشتوية خصوصاً، وصندوقاً كبيراً لبعض كتبي.

كانت الشقة صغيرة، تقتصر على منامة وصالون استقبال صغير، فضلاً عن الحمام والمطبخ. كانت تقع على مسافة عشرات الأمتار من فندقي الذي أقمتُ فيه لأيام قبل تجهيز الشقة. والشقة نفسها لم تكن تبعد سوى أمتار قليلة عن المباني الجامعية المختلفة. هذا ما جعلني أتنقل في فضاء محدود، ما خفَّف من شعوري بالغربة الغامضة.

حللت، واقعاً، في مدينة أخرى، مدينة ثانية، مدينة مختصرة، إذ كان في إمكاني ألّا أغادر الحي الجامعي وأقضي فيه حاجاتي كلها: من المكتب إلى قاعة المحاضرات، ومن المطاعم الجامعية الأربعة إلى المكتبات الجامعية المختلفة، ومن المراكز الصحية للخدمات السريعة إلى المراكز الرياضية المتعددة، فضلاً عن لقاء

الزملاء الذين اتّخذ بعضهم شققاً في الحي، أو على مقربة منه، أو لقاء الطلبة أنفسهم، ممَّن توزعوا في أكثر من ثمانية منازل خاصة بهم... بل يمكن زيارة تواريخ مختلفة، وأنا في الحي، إذ أتعرف فيه على مبانٍ لها زخارف خصوصية، كما في مبنى «المدرسة العليا للفنون الزخرفية»، الذي يبدو قرميده الأحمر نافراً بالمقارنة مع الأبنية الأخرى، التي تحيل على أساليب البناء في ستينيات القرن الماضي. وهناك غيره من الأبنية التي تتميز بخضرتها، حتى إن أحدها يمتاز بعشبه الصاعد على جدران المبنى...

هذا ما قرأت في «دليل» الجامعة، قبل أن أحلّ في شقتي. هذا ما رحت أعايشه يوماً بعد يوم، في تجوالي فيه.

كانت أيامي الأولى مرتبة، كما في جدول القطارات الذي يفوق دقة جدول الطائرات، على ما تأكدت عند مجيئي من بيروت إلى باريس، ثم في القطار من مطار شارل ديغول إلى محطة ستراسبور: تأخرت الطائرة أكثر من ثلث ساعة قبل إقلاعها من بيروت، فيما انطلق القطار من محطة موصولة بالمطار في الوقت نفسه، في الخامسة بعد الظهر وسبع دقائق، ووصل في الوقت المعلن عنه سابقاً إلى ستراسبور، أي في الثامنة مساء ودقيقتين.

وصلتُ إلى المدينة قبل أسبوعين من التحاقي بعملي الجديد. اقتصر وقتي، بعد حلولي في الشقة، قبل خمسة أيام على مباشرة عملي، على توزيع أغراضي في الشقة. كانت الأمور ميسرة، مناسبة لغير أستاذ سبقني إلى السكن فيها. اتخذتْ الأغراض أمكنتها المناسبة بيُسر شديد، ووزَّعت كتبي فوق رفوف مناسبة موضوعة خصيصاً لها، سواء في مدخل الشقة أو في جهة مقابلة للشرفة الصغيرة في صالون الاستقبال. لكنني احترت بالمقابل في وضع

مكتبي: وضعوه في غرفة النوم، بين حائطين، ما أزعجني تماماً. فكان أن نقلته إلى المطبخ، وجعلته طاولة أكل، فيما اتخذت من طاولة الأكل في الصالون مكتباً لي. وقد قمت بتوزيع مجلدات القواميس المختلفة فوقها، ما جعلها تحيط بالحاسوب. ولكن، ماذا أفعل إن دعوت أحداً إلى الأكل؟ هل يأكل معي في المطبخ، حيث يحلو لي الأكل؟ ماذا أفعل بدانييلا إنْ حلت فجأة؟ هل أوبّخها على فعلتها المشينة أم أصفح عنها؟ هل أستقبلها في سريري الخشبي الضيق أم فوق الكنبة العريضة في الصالون؟

الجواب معلق، إذ لم يزرني أحد في الشقة، وقلّما أكلت فيها: الفطور في مقهى مجاور، والغداء مثل العشاء في أكثر من مطعم جامعي مخصص للطلبة. هذا ما يناسبني إذ كنت طالباً وأستاذاً في الوقت عينه.

هذا ما لن يريح والدتي لو عرفت به. هذا ما علمتْ ببعضه في اليوم التالي لمغادرتي سن الفيل: عاتبتني عبر الهاتف، بعد الاطمئنان على سلامة وصولي، لأنني أبقيت الحقيبة المحشوة بمواد الأكل الجاف مركونة في زاوية من خزانة ثيابي: احتفظتُ منها بعلبتَي بن...

هذا ما أحتاجه، فأنا لن أُقبل على أيّ عملية طبخ، إلا في الحدود الدنيا، فيما رتبت مكاناً إلى جانب النافذة لحبقتي الصغيرة.

انقطعَ خبرُها تماماً. لن تكون هناك تتمة لما جرى بيننا. كيف لها أن تستعيد صلتها بي وقد سرقتني؟! ما جمعَ بيننا هو أقل من صلة عابرة، ومع ذلك فهو يحرقني ليلة بعد ليلة، ما أن تحوم دانييلا بجسدها فوقي، في الأخيلة التي تراقصني وتجندلني واقعاً.

التهمتني فعلاً مثل ثمرة، ولفظتني فعلاً مثل نواة.

تناولتْني بلمسات متتالية، كما لو أنني فتاها الذي يصلح لتمارينها المتتابعة. بأقل مما كان عليه عمري، الطبيعي كما الجنسي. ذلك أنها لم توقعني في شباكها، لم تبذل مجهوداً كبيراً لجرِّي خلفها، إذ انقدتُ إليها بيُسر، من دون أن تبادلني حتى غمزة عين.

انقدتُ إليها بطواعية، مثل مَن يسلِّم نفسه لريح تداعب جسمه على مقدمة سفينة وسط البحر. كانت تقطفني، تتلقفني، تقلبني من دون طلب مساعدة.

كنتُ طبقَها ومائدتها من دون أن تحتاج إلى توابل أو بهارات أو أدوات أكل.

يداها تكفيانها، عدا أن جسدها كان يحرثني مثل حقل في قريتي البعيدة.

دانييلا تحل في بيتي ليلاً، ولا تفارقني إذ أستيقظ صباحاً، من دون أن أتبين نقمتي عليها من اشتياقي إليها.

كيف لي أن أستقبلها في شقتي، ولا شيء فيها يبشر بالاستقبال. أعيش فيها كعابر سبيل، كنزيل فندق، مع فارق بسيط، وهو أن أحداً لا ينظفها: حتى في فندقها المتواضع كان هناك من يعمل، على ما تحقَّقت، على تنظيف الغرف.

هذا ما جعلني - في أول قرارات عيشي المؤكد في شقتي - أنتقل إلى مساحة تجارية كبيرة تغصّ بكل ما يحتاجه أي بيت: من مواد الأكل إلى مواد التنظيف، مروراً بعدة المطبخ اللازمة. هذا ما اقتضى مني تنظيم رحلات متتابعة من الشقة وإليها، بعد أن وضعت خطة ذات بنود لما أحتاجه من مشتريات ومقتنيات.

ارتحتُ لِما أقدمتُ عليه: يجب أن أحتاط لأي طارىء. يجب أن تتحول شقتي إلى بيتي، خاصة وأنني مرشح للإقامة فيها على مدى سنة أكاديمية على الأقل. زاد من قناعتي بما أقدمتُ عليه الحادث المقرف الذي حصل لي في اليوم التالي: اخترتُ يومها العشاء في «مطعم غاليا الجامعي»، وفق خطة قضت مني التنويع والتنقل بين المطاعم الجامعية الأربعة... كنت قد أتيت بصينية الأكل، وشرعت بتناول السلطة، لما وقفتْ أمام طاولة الأكل سيدة تضعُ على رأسها كيساً بلاستيكياً:

- كيف تقبل بأكل هذا الطبق؟

- من تكونين؟

- أنا عاملة في المطبخ.

- وما يزعجك في الأمر؟

- هذا ليس باللحم الحلال.

- لا يهم... فأنا لست مسلماً.

- تتكلم بالعربية، ولست مسلماً، وتأكل لحماً غير حلال...

يا إلهي!

ألقيتُ، اليوم، محاضرتي الأولى. لم تكن محاضرة بالمعنى الدقيق للكلمة، كانت أقرب إلى لقاء تعارفي. كانت القاعة مليئة، ما أراحني في أول درس لي، خاصة مع حضور مدير «الدائرة»، البروفسور جاك دورمييه، الذي عمل على تقديمي للطلبة.

شرحتُ للطلبة موضوع محاضراتي الدورية: ثلاث ساعات متتالية، يوم الجمعة، بين العاشرة صباحاً والأولى ظهراً، مع استراحات قصيرة، لا تتعدى العشر الدقائق في الساعة الواحدة.

وضعتُ لمسلسل محاضراتي عنواناً جامعاً: «الترجمة بين النقل والتأليف». كما أبلغتُ الطلبة، وهم يزيدون على الستين، حسبما عرفت، بأنني سأعمل على مساعدتهم - إن شاؤوا - في اختيار موضوعاتهم لرسالة الماجستير أو لأطروحة الدكتوراة، ضمن حدود اختصاصي بالطبع. فقد كان الطلبة يجتمعون تحت مسمى: «الدراسات الشرقية»، ويتوزعون بين مدارات ثقافية مختلفة (عربية، فارسية، هندية، عبرية وغيرها)، وفي اختصاصات مختلفة تتنوع بين أدبية وثقافية عامة وفنية وغيرها. وكانت الجامعة قد قبلتني أستاذاً وباحثاً في الوقت عينه، على أن ألقي محاضراتي في مسائل الترجمة، ما يثير اهتمامات أعداد من الطلبة، في اختصاصهم الضيق، فيما قد تشكِّل الترجمة لغيرهم مادة جانبية وإنْ مساعدة في دروسهم ومشاريعهم البحثية.

قبلتْني الجامعة في عدادها إثر مسابقة تقدمَ إليها أكثر من دكتور شاب من المتعاملين مع «المكتب الإقليمي» للفرنكوفونية، وقضتْ باقتراح موضوع بحثيّ يتمّ استكماله في فرنسا، خصوصاً في ستراسبور، فضلاً عن ثلاث ساعات تدريس أسبوعية وبعض المتابعات البحثية لعدد من الطلبة. ولقد اقترحتُ على «دائرة الدراسات الشرقية» القيام ببحث يتناول سياسة الترجمة لدى المترجم الفرنسي أنطوان غالان، المترجم الأوروبي الأول لـ «ألف ليلة وليلة».

محاضرتي الأولى لم تثرْ اهتمامات الطلبة بدليل أن أحداً لم يستوقفني بعد انتهائي منها. كما لم يزرني أحد في مكتبي المؤقت. وتناقص عدد الطلبة في محاضرتي الثانية، الأولى واقعاً. وبعد انتهائي منها لحقني أحدهم، وسألني بالعربية، وأنا خارج من بوابة

القاعة الكبيرة، ما إذا كان في إمكاني مساعدته في إيجاد عمل. . . ولما أجبته بالنفي، وبكوني جديداً وغريباً في المدينة، اكتفى بابتسامة سريعة ومضى.

السيدة التي وبختني في المطعم الجامعي التقيتُها بعد أكثر من يوم، لما كنت خارجاً من المبنى الذي يقع فيه مكتبي. لعلها هي، إذ التقت عيناي بعينيها بمجرد أن تلفظتْ بمساء الخير بالفرنسية، فاقتربتُ منها، وسألتها:

- ألي تتوجهين بالتحية؟

- نعم. . .

لم تُكمل حديثها بجملة ثانية، فيما كانت تبدو مستعدة لذلك. أدارت ظهرها، ومضت حاملة معها صلحاً وغفراناً لم أتبين معانيهما ولا أسبابهما.

توقفتُ قليلاً بدوري متابعاً تقدمها فوق العشب الأخضر، ثم تحت الشجرة الباسقة، متنبهاً إلى أنها كانت ترتدي معطفاً معتم اللون، وتُمسك بيدٍ حقيبتها اليدوية، وباليد الأخرى شمسية مقفلة. لعلها هي، وقد أبقت في المطعم الجامعي الكيس البلاستيكي الذي تضعه على رأسها، والثوب البلاستيكي الذي يغطي بقية جسمها.

مكتبي مؤقت، لكنه مريح وفسيح. ورثته، بين هلالين، مثلما قال لي البروفسور جاك دورمييه، مدير «الدائرة»، لمّا أوصلني إليه، وسلّمني مفتاحه: أنت محظوظ، ولو لوقت محدود. . . ستقيم في مكتب كبير الأساتذة، الذي شغله طوال ما يزيد على أربعين سنة من دون انقطاع. لم يشغل هذا المكتب واقعاً إلا في السنوات العشر الأخيرة، بعد أن جرى تصميم البناء، وتمَّ نقل الجامعة من مكاتبها

الفخمة والمعدودة إلى هذا المجمَّع الجامعي، الذي يشكل مدينة واقعاً: أحياء لسكن الأساتذة، أحياء أخرى لسكن الطلاب، مطاعم ومقاه ومحلات للتبضع البيتي، وفسحات وحدائق مع مقاعدها الحجرية والخشبية، ومظلاتها الواقية من المطر والثلج، فيما تتجول الكلاب فيها بثقة الأليف في نطاقه.

توفي كبير الأساتذة قبل شهر ونيف على وصولي إلى ستراسبور، من دون أن يبارحه واقعاً، على ما تحققتُ ذات مساء، إذ فتحتْ سيدة باب المكتب عنوة، وبادرتني بالقول:

- ألأنت ورثته أيضاً؟!

لم أفهم سبب دخولها العنيف، ولا سبب وجود رجل بجانبها. راحت تبادله الجمل متتابعة:

- لكَ أن تسجل وجود منتفعٍ في مكتبه (متوجهة إلى شريكها الذي كان يدون فوق ورق في ملف ذي غلاف سميك)... مَن تكون (متوجهة صوبي من دون أن ترمقني بأي نظرة)؟ ما اسمك؟ ابرزْ هويتك... (متوجهة إلى مرافقها)... لعله أفسدَ أو بدَّد بعض محتويات المكتبة... يجب الحصول على قائمة محتويات المكتبة... لمَ لم يوفروها لك؟ هذا جنون... هذا اعتداء...

كنتُ مصعوقاً ممّا يجري أمامي، من دون أن أقوى على تلفظ أي عبارة. كانت جملها متلاحقة، عدا أن نَفَسها المتلاحق يهيئ، بمجرد توقفها بعد جملة، لغيرها من الجمل المتدافعة. شدني مدير الدائرة بيدي، ودعاني إلى الخروج من المكتب... كان يرافقه اثنان من «أمن الجامعة».

لم يمضِ المدير دورمييه سوى دقائق معدودة مع الزائرة والمرافقين. بلغني تدافع كلمات متقطع، لكنه ما لبث أن توقف

تماماً. اعتذرَ المدير مني بعد خروج المجموعة من المكتب، ورَبّتَت على كتفي: لن يزعجك أحد بعد اليوم... لو تمرّ بمكتبي يوم غد.

كان يسير إلى جانبها، ويتابعان الحديث مثل زميلين أليفين.

أبلغني المدير في موعدنا الصباحي، أن السيدة صحفية، وهي الوارثة الوحيدة لأبيها البروفسور، وتطالب باستعادة مكتبة والدها الباقية في المكتب، فيما أظهر المدير لي ورقة تُظهر أن والدها تبرَّع بمحتويات مكتبه إلى الجامعة.

شكرتُ المدير على ما شرحه لي، وطالبني، على عتبة مكتبه، باختيار أحد الطلبة لكي يقوم بوضع سجلٍ لعناوين الكتب والوثائق المحفوظة في المكتب، ولجميع المحتويات المادية، على أن تتكفل الدائرة بدفع بدل مادي لقاء هذه الأتعاب.

لم أكن قد توقّفت طويلاً أمام محتويات المكتب، ولا فحصتها. هناك ما أثار انتباهي فيه من دون قصد، إذ قفز إلى نظري أو وقع عليه تلقائياً. كنت مقيماً فيه بصورة مؤقتة. مجرد عابر سبيل، لأيام معدودة. ما عناني، بعد حلولي فيه، هو ترتيب مكان مناسب لحاسوبي فوق المكتب الخشبي العريض، الذي لا يناسب أبداً أثاث المكتب العصري. كانت هناك أوراق مبعثرة فوق المكتب، وقصاصات أوراق مربوطة بسلك مطاطي أصفر، ومجسم لكرة ذهبية بدا عليه العتق الشديد، فضلاً عن أقلام من أنواع مختلفة، وممحاة كبيرة وغيرها من أدوات وملحقات الورق والكتابة.

ما استرعاني بمجرد دخولي إلى المكتب في المرة الأولى، هو أن أوراقاً متفرقة كانت تتوزع فوق المكتب، بل وجدت كتاباً مطوياً بفعل قارىء أقدمَ على ذلك على أمل العودة إليه سريعاً. كان مدير الدائرة

يتولى تسهيل حلولي في المكتب، وكانت ترافقه إحدى الموظفات التي كانت تمسك بيدٍ بمجموعة أوراق، وبقلم باليد الأخرى في انتظار «التعليمات»، بعد أن قامت بنفسها بفتح المكتب. أمام دهشتي، البادية على وجهي من دون شك، سأل دورمييه مساعِدته: كيف يحدث أن حالة المكتب متردية إلى هذه الحالة؟ لماذا الغبار المتراكم هنا وهناك فيه؟ هل دخل أحدهم إليه وبعثر بعض محتوياته؟

لم تجبْ، اقتربتْ منه، أسرَّت له ببعض الجمل في أذنه، ما دعاني إلى الخروج من المكتب، لكن المدير استدعاني، وطالبني بعدم الخروج. ثم وجَّه أوامره للمساعِدة بأن يتم في اليوم عينه تنظيف الغبار في المكتب وأثاثه، ولا سيما في رفوف المكتبة العديدة والعالية.

كان منظر المكتب غريباً، يُظهر بأنّ شاغله تركه للتو، أو لوقت قصير قبل أن يعود إليه، أو من دون أن يعود إليه واقعاً: خرج لدقائق معدودة، ولم يعد، أليس كذلك؟ هزت المساعِدة الإدارية برأسها تأييداً لما قلت، فيما كانت تتجه بي صوب مكتبها لإجراء ترتيبات إدارية تخص المكتب وإقامتي فيه. لم يكن الأمر بالهيِّن، على ما يبدو، ويتعدى انتقال مكتب من شاغل إلى آخر، في جامعة اعتادت منذ عشرات السنوات على استقبال وتوديع أساتذة، أشبه بحافلة المترو التي تقل الركاب بين ساحة «الرجل الحديدي» ومباني المدينة الجامعية.

البروفسور الراحل انتقل من مكتبه إلى المستشفى بعد عارض صحي، وفيه إلى غرفة العناية الفائقة، قبل أن يسدلوا الشرشف الأبيض على جسده الناحل.

الصحفية ذكَّرتني بدانييلا. لعلهما متقاربتان في السن، إلا أنّ ملامحهما تختلف. هذه تبدو مكتنزة بعض الشيء، مثلي، وتميل إلى القصر، بخلافي، فيما جسم دانييلا نحيل، ويميل إلى الطول. هذا ما أميل إلى تقديره، إذ إنه لم يتح لي تأمل جسد دانييلا، على الرغم من كونها تعرَّت تماماً، بل أقدمت على نزع ثيابي فيما كانت توسعني قبلاً، ما أن دخلنا إلى الغرفة رقم 12، ودفعتني إلى السرير، وحطَّت فوقي.

لها اسم وحسب. قد لا يكون صحيحاً، وأنا أمضيتُ أقل من ساعة واحدة معها.

لن أجد دانييلا، على الأرجح، فهل سأنجح في إيجاد طالب يتولى الأعمال المطلوبة في فحص محتويات المكتب وتدوينها؟

دعوة المدير للتفتيش عن طالب جعلتني أتحقق من أن أمامي فرصة لتفقُّد المكتب قبل انتقالي منه، الذي قد يكون وشيكاً. فرصة أخيرة لمعرفة أدوات عمل البروفسور الراحل: هو من جيل مضى، أكبر بكثير من جيل أستاذي الذي أشرف على أطروحتي. إنه جيل ما لن أعرفه إلا في الكتب والموسوعات والسِّير، ما حفَّز اهتمامي بتدبير طالب للمهمة: هكذا أتعرف معه، وأسافر معه، في خريطة عقل أستاذ لن أبلغه أبداً.

كيف أختار طالباً منهم، وأنا لا ألقاهم سوى مرة واحدة في الأسبوع؟ كيف أختاره، وهم يتراصفون في صفوف ممتدة، فيما لا يزيد عددهم عن الثلاثين في كل محاضرة أسبوعية، يوم الجمعة؟ ولِمَ لا أختار طالبة، وعددهن، على ما انتبهت، أكبر من عدد الشباب؟

في المحاضرة التي تلت يوم «المداهمة»، كما أسميتُه في دفتر يومياتي، أخبرت الطلبة وأعلمتهم بوجود مثل هذا العمل؛ ولمن

يرغب فيه، عليه أن يتوجه إلى مكتبي، في دوام استقبال الطلبة، وأن يقدِّم ترشيحه ودوافعه للقيام بهذا العمل، على أنّ العرض لن يبقى مطروحاً غير أسبوع واحد، ثم أبلغ الطالب أو الطالبة بقراري بعد عشرة أيام، بعد موافقة مدير الدائرة بطبيعة الحال.

إحدى الطالبات المحجبات رفعت إصبعها طالبة الكلام: كم يكون البدل المادي عن هذا العمل؟ وقبل أن أتدبر جواباً عن سؤالها الذي أربكني، تابعتْ متسائلة: هل يحق لطالبة تستفيد من منحة مالية من الجامعة القيام بهذا العمل؟

اعتذرت عن الجواب، لأنه يتصل واقعاً بمدير الدائرة، على أن أجيبها عنه في لقائي بها إن رغبَت في هذا العمل. طالبة أخرى رفعت يدها طلباً للكلام، وكانت تجلس في الصف الأمامي: من يكون هذا البروفسور الراحل؟ ماذا عن محتويات مكتبته؟ هل يمكن لها أن تفيدهم، هم الطلبة، في دراساتهم العالية؟ حرتُ في الإجابة، لكنني سارعت إلى القول: هو كبير الأساتذة الشرقيين في هذه الجامعة منذ أربعين سنة على الأقل.

وجدتُ هذه الطالبة تتقدم مجموعة الطلبة الذين كانوا ينتظرونني أمام مكتبي، في الخامسة بعد ظهر يوم الجمعة. كان اللقاء إفرادياً بطبيعة الحال، اقتصر منهم على أسئلة معدودة: ما البدل المادي لهذا العمل؟ كم يدوم؟ ما هو العمل بالتحديد؟ الطالبة كريستين مارييه (وقد شهرت بطاقتها الجامعية وحدها لما دخلت إلى مكتبي) لم تسأل هذه الأسئلة، مثل طالبَين من المغرب، وآخر من مصر، ورابع من الجزائر، فضلاً عن طالبة إيرانية. أخبرتني، ما أن استقبلتها، أنها اطَّلعت على بعض أخباره في الإنترنت، في «الويكيبيديا»، وأنها تحققت كذلك من أنه درس أحوال بلدان عديدة، ولا سيما الأدب

فيها. هذا ما جذبها، أي معرفة مؤلفاته ومحتويات مكتبه، على أمل أن تجد فيها ما يفيدها في تحضيرها لرسالة الدكتوراة.

ما لا تعرفه كريستين هو أنه لا يحق لها العمل، طالما أنها ممنوحة من الحكومة الفرنسية. هذا ما أخبرني به مدير الدائرة: مثل هذه الأعمال نخصِّصها - إن توافرت - لمن لا يكسبون منحة منتظمة. هذا ما أخبرتها به بمجرد أن توقفت عن السؤال، لكنها أجابتني: أنا مستعدة للقيام بهذا العمل من دون مقابل.

لمّا خرجتْ من مكتبي، قبل أن تتعدى الشريط الحديد الذي ينتهي إليه باب المكتب، عادت إلى الوراء فوجدتْني أرقب طلَّتها من خلف. احمرَّ وجهها لسبب لا أعرفه؛ اقتربتُ منها بضع خطوات للتخفيف من ارتباكها البادي:

- أنسيتِ شيئاً؟

لم تجب. كانت تحدِّق في وجهي، ما جعلني أنتبه إلى جمال عينيها السوداوين مثل حبَّتي لوز محمصتين.

اقتربتُ أكثر منها، فتراجعتْ قليلاً إلى الوراء:

- هل لي بسؤال؟

- تفضلي.

- السؤال شخصي. أهذا مسموح؟

- تفضلي.

- هل أنت هندي؟

ضحكتُ، ولم أجِبْ. كنت أطمع باستكمال الحديث معها، من دون شك... كنت أودّ معرفة السبب أو الأسباب التي حملتها على تشبيهي بالهندي. إلا أنها تبرَّمت من وقفتها؛ شدَّتْ إلى صدرها

حقيبتها الصغيرة، وراحت تعبُر سريعاً الممر المؤدي إلى الدرج الواصل بين الطابق الأول والحديقة الخارجية أمام البناء. انتقلتُ إلى شبّاكي أترقب خروجها من المبنى. . . من دون جدوى: إلى أين مضت؟

- من أين أبدأ؟

- لا أعرف.

هذا ما أجبتُها به لمّا دخلتْ إلى المكتب، بناءً على موعد سابق، ووقفت تنتظر كما لو أنّ عليَّ أن أشير إلى ما يجب القيام به، وإلى بدء العمل نفسه من هذه الناحية أو من جهتها المقابلة في المكتب الطولي. كانت كريستين تقف سائلة، وأنا أرقب وقفتها من مسافة من دون أن أتحرك. كان في ودّي أن أبقيها واقفة أتأملها: هي واقفة، ماثلة، وأنا جالس، فاحص، كما لو أنها معروضة للمراقبة أو الفرجة. إلا أنني خجلت من جلستي، ولو كنت أستاذها والمسؤول عن عملها الإداري أيضاً، كما لو أنها طالبة وظيفة، أو مستخدمتي التي تسألني عمّا تريد طبخه لـ «المِسْتِر»، أي أنا، بعد فطور الصباح.

انتقلتُ إلى جانبها، وأخبرتها بأنني لم ألقِ نظرة فاحصة على محتويات المكتب منذ أن حللتُ فيه قبل شهر. وما منعني من الاقتراب من رفوف المكتب المعدنية هو الوسخ الذي علاها، وبات يشكِّل طبقة سميكة، يمكن لضعيف النظر، مثلي، أن يتبينها، عدا انشغالي بأمور إقامتي وإعداد وترتيب محاضراتي وعملي البحثي نفسه، وترتيب أموري الإدارية المختلفة في الجامعة وخارجها.

كان المكتب عبارة عن صفين لرفوف مكتبية، فيما يقع مكتبي

الخشبي أمام أحد الصفين، مقابل الصف الآخر. ويقوم جدار زجاجي في الجهة المقابلة لمدخل المكتب، ما يفضي إلى أشجار عالية واقعة في الحديقة قرب المبنى الكبير المستطيل، من دون أن أقوى على النظر إلى خارجه: هو - أي البروفسور الراحل - مَن طلب هذا المكتب، إذ كان يذكِّره بمشهد ياباني، مشهد الحديقة التي لا تفضي إلا إلى أشجارها وأوراقها، من دون أي هيئة إنسانية تبلبل أو تشغل الناظر إليه، إلى هدوئه، الساكن والحيوي في آن. هذا ما أخبرتني به سكرتيرة دائرة العربية، لمّا عرضت عليّ الإقامة فيه، في زيارتي الثانية للجامعة بعد أربعة أيام على حلولي في ستراسبور.

كنت أحادثها، وقد خرجَت من مكتبي، بلغة لا تصلح تماماً بين أستاذ وطالبته، طالما أنني بادلتها بعض أخباري الخاصة. أيعود هذا إلى طبيعتي «الطيبة»، كما كانت تقول لي صديقتي في بيروت أم إلى اهتمامي الظاهر، بل الذي يظهر تجاهها؟

تكاد أن تكون كريستين في عمر ابنة دانييلا، على ما حسبت. لماذا أجمع بينهما، ولا شيء يربط بينهما، أو يدعهما موضوعاً للتشابه!؟ لماذا أستدعيهما، الواحدة مع الأخرى، وواحدة منهما تكاد أن تكون في عمر أمي، والثانية، في عمر أختي الصغيرة؟ واحدة أستدعيها في الليل خصوصاً، والثانية أراها أمامي، في مكتبي، كل صباح، في العاشرة تماماً، إذ تباشر عملها التوثيقي.

أستدعيها مثل فيلم مستعاد مرات ومرات. أتفرّج فيه على نفسي، ما يمكنني رؤيته، أو تبيُّنه في ذلك التدافع الهائل الذي أصابني بين يديها، بين جسمي وجسمها. إذ إنها أقبلت عليّ بمجرد فتحها باب الغرفة رقم 12، بل دفعتني بعنف صوب السرير الوحيد،

الضيق، والمستند إلى حائط يفضي إلى نافذة، هي الوحيدة في الغرفة. هذا ما تنبَّهت إليه، ما أن تركتني وذهبت إلى غرفة الحمام للحظات. دفعتني ونزعت عني ملابسي بسرعة عنيفة، من المعطف البني الغامق إلى السترة الجلدية، ثم راحت تفكِّك أزرار بنطالي قبل قميصي، من دون أن تتلفظ بأي كلمة. كانت تُصدر أصواتاً محمومة، متلاحقة، من دون أن أتبين وجهها تماماً، إذ كنت أتلوى بين يديها، أو تلويني حسبما تشاء: كنت جسداً مشتهى، ولو بالجملة.

أتيحتْ لي رؤيتها بعض الشيء، ما أن عادت من الحمام. تنبهتُ إلى جسدها الأبيض والنحيل، ولكن من دون ترهل في ثدييها. عادت منه عارية، محتفظة فوق ساقيها بجوارب سوداء ترتبط بكماشات من حديد، تمسك هي الأخرى، من جهتها العليا، بسروالها الصغير الأسود، هو الآخر. علتْ السرير واقفة، ووضعتْ قدميها من جهة قدمي المسبلتين، ثم راحت تفكّ الكماشات ببطء مناسب لرقص التعري في البارات الليلية، ثم صرختْ لاحسة لسانها فوق شفتها العليا: ألا تراني مثيرة للغاية؟

لم يتحْ لي إجابتها عن سؤالها، ولا أظن - وأنا أكتب هذا في مكتبي وحدي - أنها كانت تنتظر مني أي جواب. وضعت دانييلا برنامجاً متتابعاً، له فقرات أعدّتْها في أدق تفاصيلها، بمنأى عني، وقبل أن تلتقيني أو تراني في المقهى.

تقدمتْ كريستين في عملها، وقد طلبتْ مني زيادة وقتها بعد أن جلب لها تفتيش الكتب والمجلات، وتدوين أسمائها، فائدة

لامتناهية. ولما سألتُها عن هذا التعلق الذي يبدو أشبه بالهوس، أكثر منه بالمثابرة، أجابتني بثقة: أنا أقرأ عناوين الكتب والمجلات، كمن يتعرّف على خريطة بلد، بل بلدان معاً... مكتبة البروفسور أكثر من مكتبة، إنها موسوعة شرقية غنية، تجمع بين أطراف آسيا المتباعدة، اليوم، وتجمع بين ديانات وحضارات وثقافات تتناحر اليوم وتغرق في حروبها الأهلية...

كنتُ قد وضعتُ معها خطة للعمل، تقضي في قسمها الأول بإحصاء الكتب والمجلات، وقد وجدتْ كريستين طريقة ميسّرة لذلك: راحت تصوِّر بجهاز هاتفها النقال اسم الكتاب أو صورة غلاف المجلة، ما جعل العمل يتقدم بسهولة مذهلة. هذا ما جعلها تنهي في أقل من أسبوعين إحصاء المواد المرتَّبة فوق رفوف الجهة الواقعة وراء مكتبي. ولما أذهلتني سرعة تدبيرها، المشفوعة بذكائها، طلبتُ منها التوقف عن إكمال إحصاء رفوف الجهة المقابلة لمكتبي، على أن تتفرغ لمعرفة مختلف المواد الأخرى، المتروكة فوق المكتب، وفي جواريره خصوصاً.

دارت الأمور بعجلة ما توقَّعها مدير الدائرة بنفسه، حتى إنه طلب التعرُّف إلى الطالبة بنفسه مبدياً رغبته في دفع بدل مالي عن عملها، على الرغم من تبرعها بذلك. لمّا تحققت كريستين من تقديرنا لها، أتتني في صباح اليوم التالي على موعدنا مع المدير دورمييه: يجب أن أوضح لك سبب إقبالي الشغوف على هذا العمل... توقفتْ عن استكمال الكلام، فيما رحتُ أتحسب لوَقْع ما ستعترف به أمامي. ثم سألتني: هل تسمح لي بالجلوس؟ لمّا أجبتها بالإيجاب، فتحت دفتراً كانت تحمله، وشرعت في الكلام، ناظرة إلى الدفتر بين فقرة وأخرى من دون أن تنقطع عن الكلام واقعاً:

أنا أحب الكتب منذ صغري. أحببتها قبل أن أحسن القراءة. كان والدي يتلو على مسامعي حكايات قبل النوم، لدرجة أنني حفظت أكثر من واحدة منها عن ظهر قلب... لما كان والدي مضطراً أحياناً لتسريع الحكاية أو اختصارها، كنت أوقفه وأعيده إلى الصفحة حيث توقف... هذا السبب ليس هو الدافع لما أقوم به. السبب الحقيقي هو أنني طلبتُ (بعد تردُّد ولعثمة) الاقتراب منك... لا تُسِيء فهمي، أرجوك. والدي علّمني أن المعلمين المسلمين القدامى كانوا يتحدثون عن «الملازمة»: ملازمة الطلبة لأستاذهم كل يوم، والتعلّم المزيد والمتنوع منه...

كدت أن أوقفها عن الكلام، وأن أقول لها إنني لست مسلماً، وإن «الملازمة» تناسب مفهوم «الحلقة» القديم، لا الجامعة، ولا المدرسة قبلها، إلا أن كريستين كانت تتكلم كما لو أنها تفيض بما يختلج في وجدانها، وبما دار دورات عديدة في صدرها قبل أن تتلفظه وترتجّ معه حمالة ثدييها، على ما تنبهت. كانت تتمسك بدفترها المفتوح من دون أن تنظر إليه، ولا تقوى على رفع نظرها إلى نظري، أنا الذي اتّسعت حدقتاه، وأذناه، لما كان يراه ويسمعه.

تحدثت كريستين طويلاً عن دراستها العربية... أوقفتُها عن الكلام: لستُ في مجال سماع حكاية في حكاية... قولي لي: ما الذي قادك صوبي؟

أجابت عندها كريستين رافعة نظرها إلى وجهي: اخترتُك قبل أن تصل إلى ستراسبور، إذ أعلمني أحد الأساتذة عن موضوع محاضراتك السنوية الذي يناسب موضوع أطروحة الدكتوراة التي آمل في إعدادها.

- ما هو؟

- درسُ ترجمة ابن المقفع لـ «كليلة ودمنة».

استيقظتُ، وقد شعرت بسروالي مبللاً في فراشي الضيق. كانت الغرفة معتمة، فما مددتُ يدي إلى مكبس الضوء المجاور للسرير من جهتي اليمنى. بقيتُ، بين المغتبط والمندهش، أتبين ما حصل لي في غفلة مني.

أمضتْ دانييلا لحظات معي، في صور هاربة، متسارعة، متداخلة، من دون أن أجد رابطاً بينها. أشبَهُ بضربات رعد، من دون برق، ثم انهمر المطر بحباته الطرية. ما الذي استدعاها إلى أحلامي، وقد نسيتها في الأسابيع الأخيرة، بعد مضي أكثر من شهرين على موعدنا الفجائي في فندقها؟ لم أتبين شيئاً من الحلم: صور متفرقة، ممزقة، متطايرة، في عتمة خفيفة، متحققاً وحسب، عند استيقاظي، من أنني كنت شريكها، لا تلميذها أو مستخدمها الجنسي. تحققتُ من أن العرق كان يتصبب بدوره حول رقبتي، فضلاً عن جفاف في حلقي. أأشتاق إليها؟ أأصبحت شريكاً لها أم أرغب في أن أكون شريكاً لها؟ في المرة التالية سأكون حاضراً، وفاعلاً. هل ستكون هناك مرة ثانية؟ يبدو أن هناك مرات تالية، معي ومعها، من دونها، إذ إن قِوى خفية أفردت لها نوافذ أو بوابات للانتقال إلى هيكلي.

يبدو أنني غفرت لها فعلتَها: هذا ما رحت أردِّده على مسامعي، بعد الاستحمام، وأنا أعدّ قهوتي على النار. يبدو أنني بتُّ متعلقاً بها، من دون علمها. هل يمكن أن أتحدث عن شبحها أم عن طيفها، وقد

تعلمت بأن الطيف جارٌ ليلي في صورة، فيما الشبح ظلُّ جارٍ معروف.
أهي جارتي الممكنة، وقد رحت أستعيدها في فراشي، وحدي، في الليلة التي تلت حلمي المبلل، بل أكثر من مرة في الليلة الواحدة؟

عادت دانييلا إلى حياتي من جديد، من دون أن تظهر بعد تلك الليلة في صورة خفية. هذه المرة، أنا الذي رحتُ أعطيها توجيهاتي: تعقبتُها، لحقت بها، أذَقتُها ما يطيب لي أن أذوقه معها، ومن دونها.

لعلها أخطأت معي... كيف لها - لو رغبت في ذلك - أن تصلح خطأها، وتستعيد علاقة طبيعية معي، وهي لا تملك عنواني، ولا تعرف اسمي حتى؟

مع ذلك باتت دانييلا شريكة في شقتي الصغيرة، من دون أن تهتم بملابسي التي أضطر إلى غسلها في محل قريب للغسالات العمومية. باتت ترافقني إذ أقف أمام المرآة صباحاً لتسوية هندامي، ولكن من دون أن تكوي ثيابي، طالما أنني أرتدي الكنزات، وأضع القمصان تحتها. هي تحضر في الليل، إن شئتُ بطبيعة الحال، وتطيع أوامري التي لا تتعدى امتثالها لما أطلبه منها: صامتة، مطيعة، وتشيع رائحة مختلفة في غرفة النوم، بل في الشقة.

هذا ما كاشفني به زميلي الدكتور هيبوليت، إذ زارني فجأة، من دون موعد، بعد السادسة مساء بقليل: عرفتُ أنك تعيش في هذه الشقة قبل يومين، وأنا أعيش في شقة غير بعيدة، جئت لأدعوك إلى عشاء بسيط في شقتي مع عدد من الزملاء... توقفَ قليلاً، قبل أن يستعيد: ما هذه الرائحة في الشقة؟ يبدو أنك مرتبط دوماً في الليل.

أمرُّ إلى جانب محل زهور، اسمه: «الروح الخلاقة».

أشجار جرداء، لا بفعل الشتاء، وإنما لأنهم شذبوها بعناية: تنام استعداداً لحبلها، لحملها القادم.

أشجار، أشكال منحوتة: مكنسة الأرض للكشف عن سماء.

في «ساحة بروغلي» صبية على دراجتها الهوائية تطلق ابتسامة صريحة صوبي، في اتجاهين مختلفين: أتسخر مني؟ أرأت ملاكاً يظلِّل رأسي، مثل هالة، ولا أراه أنا؟ ذلك أن الابتسامة عالم، لغة، نحتاج إلى فهم إبلاغاتها، وإمالاتها، ما هو صعب مع امرأة أمامك.

رذاذ ثلج خفيف، والباعة ينصبون منصات البيع - منصات «سوق عيد الميلاد»، الذي تختصره الشوكولاتة بأشكالها المتنوعة وكتلها المنحوتة... إنه عيد الأطفال، عيد الطفل في المغارة، عيد باعة الشوكولاتة.

منصات، محلات خشبية مقفلة في الساحة. أحدها تَصدر منه رائحة السكر المحروق. محلات خشبية مرفوعة على أخشاب صغيرة في أكثر من جهة، ما يجعل أصحابها ينقلونها إلى حيث ما شاؤوا. يفتحون تباعاً... إلى جانب شاحنات كبيرة تتحول بدورها إلى محلات بيع، ولها درجات في مؤخّرها.

لحية بابا نويل مع جزادين وهدايا للعيد على أكواب وصحون مزوَّقة. والكراتين التي حملها أصحابها وسيحملونها، في حال عدم بيعها في نهاية النهار، لا تزال - والساعة 12 ظهراً - أمامها من دون ترتيب أو إخفاء.

أقع على مقربة من الساحة على ممرّ صغير يحمل اسم الفيلسوف: والتر بنيامين، وفيه شجرتان، أسمّي الواحدة منهما: «الثابتة»، والأخرى: «العابرة».

أعود إلى «مقهى بروغلي» من جديد. أقرأ في الجريدة عن عملة

إلكترونية: (Bitcoin). تسمح بتبادل المال من دون تكلفة، بشرط أن يتكفل خمسة من أعضاء الشبكة بالجديد الداخل إليها، بين الولايات المتحدة الأميركية واليابان وفنلندا، في الوقت الحالي... تدخل صبية وتجلس إلى طاولة مجاورة لي. ما أن تنزع عنها معطفها البني الذي كان فاتحاً لولا ما لحقه من تلوث مدعوك بالاستعمال المديد، تسألني: هل أنت مسيو...؟ من دون أن أحتفظ أو أتبين ما تتلفظه. أجيبها من دون تردد، مع ابتسامتي: لا، لا... لا أنتظر أحداً. لا ينتظرني أحد.

مع ذلك باتت شقتي أكثر إلفة. لا أتضايق من البقاء فيها خارج ساعات القراءة والكتابة أو النوم. بتُّ أمعن النظر ملياً في ما يحيط بي، في ما أقوى على رؤيته من نافذة الصالون الكبيرة. حتى مرأى الأشجار العالية، والبنايات المتتابعة، بات يريحني، يرسل صوبي إشارات قبول.

فرحت بزيارة الدكتور هيبوليت المفاجئة. أحسنتُ استقباله، على ما حسبت.

جمعني العشاء في شقته بعدد من زملاء الدائرة، فيما لم أحسن متابعة الحوار معهم حول تنامي العنف الإسلامي، إذ كنت معنياً أكثر بفهم الاضطراب الفرنسي البادي في الأزمات الداخلية. عشاء عابر، بدليل أنني لم أتعرف على وجه أحدهم في اليوم التالي لمّا التقى بي، وبادرني إلى الكلام في الممر الواصل بين مكاتبنا...

•

كانت ترتدي «الشلوار القميص» (على ما ترجمتُ واجتهدت في تسمية هذا اللباس التقليدي)، بلونيه الأبيض والأزرق. هكذا

اكتشفتها، بل نادتني بنفسها مخافة ألّا أتبينها في فوضى الألوان والأشكال والسحنات والأطايب والتوابل والبهارات وروائح الشواء، وفي فوضى اللباسات «الوطنية» التي يعمد الطلاب إلى التزيّي بها، في حفل خاص، بعد ما يزيد على شهرين من بداية العام الأكاديمي. زميلي، الدكتور جان-جاك زيمر، شجعني على المشاركة في الحفل: ألستَ جديداً بدورك في الجامعة؟ ألا يستحسن بك المشاركة في حفل التعارف بدورك؟... الحفل يشارك فيه الأساتذة والطلاب وموظفو الإدارة، على أن يتكفَّل الطلاب أنفسهم بإعداد كل شيء: كلٌّ يتدبر طبقاً أساسياً من مائدة بلاده، فضلاً عن شراب أيضاً.

نادتني كريستين، ووصلت أمامها، من دون أن أخفي دهشتي ممّا كان يتكشَّف لناظري: جمال كريستين الأسمر والأخاذ. كان حياؤها، إذ تنبهتْ إلى مفاجأتي السارة، يزيد من جمالها. تداركتْ الأمر بأن ابتعدت قليلاً وأتت بكوب من شراب هندي شديد الغرابة والعذوبة.

شكرتُها وابتعدت عنها، إذ ناداني مدير الدائرة الذي أبدى فرحته لوجودي بينهم، ثم لم يتخلف عن واجباته إذ أفادني بأنّ الصحفية، ابنة البروفسور، قبلت بإنهاء الأمر حبياً، بين الجامعة وبينها، من دون أي متابعة قضائية، بمجرد الانتهاء من عملية إحصاء محتويات المكتب. ثم أخذني البروفسور بيدي مبتسماً ابتسامة عريضة: تصلك بعد غد رسالة تهنئة من قبلي لهذه الفكرة الرائعة.

- عن أي فكرة تتحدث؟
- فكرة تنظيم العيد.
- ما علاقتي به؟

- أخبرني عدد من الطلاب أنك كنت وراءها... مثل هذه الأعياد ليست في تقاليدنا... يقوم بمثلها أحياناً طلبة الفنون الجميلة، إلا أنها تنتهي في الغالب بمشاكل شغب وفوضى...

لم يُتح لي استيضاح الأمر، إذ أتْبَع المدير حديثه بالقول: هذه الفتاة (عن كريستين) رائعة... شجعتُها على تأسيس نادٍ جامعي فيما بينهم.

هي، إذاً، مَن أبلغ المدير بمسؤوليتي عن الاحتفال!

لم أقوَ على تبينها بين الوجوه والكراسي والطاولات، إذ غاب شكلها المعتاد في مشهد من الثياب الذي يبدو لغرابته تنكرياً. إلا أنني لم أجد صعوبة، بالمقابل، في تذكر وجه العاملة في المطبخ الجامعي، لما وقفت أمامي وبادرتني بالكلام، بل بشرح ما حدث لها معي: إنها فضيلة، من تطاوين في تونس، تعمل في إعداد الأكل، لا في خدمة زبائن المطعم الجامعي، إلا عند الضرورة... عرفتْ من إحدى رفيقاتها في العمل أنني عربي، إذ سمعتني أتبادل بعض العبارات بالعربية مع أحد الطلاب المغاربة، فحسبَت أنني مسلم: العربي مسلم حكماً في بلادنا... أنا آسفة لما جرى. ثم استأذنتْ وعادت إليّ بطبق: أرجو منك قبوله... إنه طبق «البريك»... ستحبه من دون شك... هل يمكنني سؤالك: لماذا تأكل مع الطلبة؟

أسماء الشوارع أو الجادات أو الأزقة باللغتين: الفرنسية ولغة قريبة من الألمانية. حتى إنني تنبهت إلى وجود اسم حيّ فيه اسمه: فرنسا الصغرى. هذا ما رحت أكتشفه بنفسي متنقلاً في أحياء

ستراسبور المختلفة، بقدر شديد من الحذر والحيطة، من دون أن أعلم أسبابه. شوارعها تفيض عن حاجات سكانها. الاكتظاظ الوحيد ألقاه في بعض الأوقات إذ أصعد إلى الترامواي المتجه صوب «غاليا». هذا ما كان يزعجني أبداً، إذ أجتمع في الحافلات بالطلاب، بشنطهم وألوانهم وفوضاهم المحببة بالنسبة لي، طالما أن المدينة تبدو ساكنة للغاية، بل مضجرة أحياناً.

اهتديتُ إلى محل كبير لبيع الكتب على مقربة من مقهاي، وإلى محلات أخرى تلبي حاجات الزوار المختلفة، في شوارع عريضة ومرتبة. إنه شارع الماركات الكبيرة للثياب والعطور وكل ما هو فاخر، وفيه مبنى «برينتان» الشهير، الذي اعتدتُ فيه على أكل وجبة الظهر الخفيفة.

هذا الصباح وقعتُ في الشارع الفاخر على مستعطية جالسة على الرصيف: كانت تتلفظ بلغة لا أفقه شيئاً منها، وتحمل كوباً فارغاً لاستقبال القطع النقدية فيه، ما يختصر ويعوِّض عن امتناع لغتها على العابرين. يفضي الشارع إلى «الرجل الحديدي»، وهي محطة دائرية للترامواي في أكثر من اتجاه، مع قبَّتها العالية التي لا تقي غير القليل من ركابها المنتظرين في الشتاء والثلج.

أخيراً فهمت حديث أبي المتكرر عن الترامواي، إذ عرفه لبعض الوقت في بيروت، وهو صغير، ينتقل فيه من أمام «ملعب سحاقيان»، حيث بيت عائلته، إلى «محطة الخوري» في الدورة، حيث بيت أخيه الكبير ألفريد.

أقع في «شارع الميساجري» على ترامواي في اتجاهين من دون سيارات. يكاد أن يدهسني أحد القطارات لولا زعيق زموره.

أقبلت، اليوم، على شراء أول كتاب من المكتبة التي بجوار

مقهاي. وجدتني خفيفاً، مرتاحاً، أراقص الكتاب بين يدي بخفة كما لو أنه هدية ابتعثُها لنفسي في الأسابيع القليلة قبل عيد الميلاد. السيدة التي تتقدمني في الصف للدفع كانت قد تبضَّعت لأحفادها، على ما سمعت من حديثها مع البائعة: أرجوكِ، ضعي كل كتاب على حدة... إنهم لأحفادي. أضع في كل كتاب شيكاً للمعايدة... إنهم يمصون دمي كل عام، ولي 11 حفيداً. لهم طبعاً أعياد ميلادهم. لا يكتفون بالكتاب. هذا يريد حاسوباً، وذاك تلفوناً نقالاً... لا تصدقي ما قلتُه للتو. أنا أعبدهم. ما قيمة الفاتورة الإجمالية؟

خرجت من المكتبة مستعيداً عبارات أمي الغاضبة لمّا أبلغتها قبل يومين بعدم مجيئي إلى لبنان في مناسبة الأعياد. أما أبي فلم يبدِ اعتراضاً على قراري مكتفياً بالقول: كان حضورك ليُفرِحنا في هذه الأيام الحزينة التي يعيشها البلد.

في الممرات الواصلة بين الجادة العريضة وشقتي، أوقفني رجل من دون إنذار. وجدته يعترض طريقي تماماً: ألي ببطاقة هويتك؟ أخرجتُ جواز سفري من جيبي الداخلي، ثم راح يدقق في تواريخه، ويهمهم من دون كلام بيِّن. وقبل أن يعيده لي، حدجني بنظرة ثابتة: لا بأس... لا بأس... لا تنسَ الذهاب إلى مخفر الشرطة القريب في أقرب وقت. ولمّا سألته عن السبب، كان قد أدار ظهره ومضى لا يلوي على شيء خلفه.

حارت كريستين في ترتيب أوراق البروفسور والمواد المتفرقة التي كانت تتوزع في جوارير مكتبه: كيف توزعها؟ ألها أن تقرأها؟ ما سارعتْ إلى ترتيبه كان مرتباً سلفاً، في علبة خشبية تفوح

منها - ما أن تفتحها - رائحة ذكية. إنها علبة صور فوتوغرافية عديدة، ذات حجم صغير في الغالب. صور بالأبيض والأسود، ما عدا مجموعة صغيرة ملونة.

لم يكن من السهل التعرف على البروفسور في هذه الصور المتفرقة، التي تتوزع (على ما خمنت) بين قاعات لمؤتمرات، أو إلى جانب آثار مادية في خرائب وحفريات، أو قرب صخور في غابة أرز كثيفة، أو أمام معابد تظهر فيها نقوش لراقصات، وصور أفراد مختلفين في لقطات مدبرة في الغالب، حتى إن إحداها تُظهر أكثر من جلسة نهارية تحت عريشة عنب في أحد البيوت... من دون صورة واحدة لستراسبور.

كريستين هي التي نبهتني إلى أنّ بعض الصور يحيل على الأرجح إلى معابد هندوسية، فطلبت منها التأكد من الأمر. استأذنتني وقامت بتصوير هذه الصور بهاتفها النقال، متعهدة بتلفها ما أن تتوصل إلى التأكد منها، ومن معرفة أصولها.

في البيت، في المساء، أمضيت ما يزيد على الساعتين منقباً في هذه الصور، باحثاً عن نقاط استدلال فيها، كما لو أنها مخلفات آثار، على الرغم من أنها لا تبعد سوى سنوات وربما عقود قليلة عن حصولها في حياة هذا البروفسور المتنقلة والغنية، على ما يبدو.

رحت أتعقب هيئات الأشخاص في الصور، طالباً التعرف من بينها على هيئة البروفسور، على تغيراتها بين عهد وآخر. رحتُ أخمّن وأدقق، مستعيناً بصورة فوتوغرافية عثرتُ عليها في الجامعة. ولمّا حصلت عليها من البروفسور هيبوليت، أخبرني: كان معنا، ولا نعرفه. كانت حياته غامضة، بل سرية، على الرغم من صيته العلمي الكبير، والمعروف دولياً. كان كتوماً للغاية، ولم أنجح طوال سبع

سنوات، وأنا جاره في المكتب المجاور، في محادثته إلا في مرات قليلة... قلّما كانت تتعدى هذه استيضاح أمر ثقافي، مثل مناقشاتي معه حول دخول المسرح الأوروبي إلى إستانبول... هذه الصورة التقطتُها بنفسي، بناء لطلب مني، فلم يمانع... يمكنكَ التعرُّف على رفوف مكتبه وراءه. وعدني بالتقاط صورة مشتركة لنا في يوم آخر... لم ننجح في الأمر، إذ انتقل بعد ما يزيد على الشهرين إلى المستشفى، ثم إلى المقبرة.

في اليوم التالي، توقفتُ عن فحص الصور، بعد أن أعدتها إلى علبتها الخشبية، فمثل هذا العمل لا يُجدي، عدا أنه لا منفعة لي منه، لكن أموراً أخرى شغلتني بين أوراقه الخاصة: طوابع بريدية من أكثر من بلد، مرتبة في مجلد خاص بها، وراء أوراق شفافة ولماعة. قصاصات جرائد في أكثر من لغة، وبطاقات بريدية مرسلة إليه... إلى أن وقعتُ على محفظة جلدية بنية صغيرة ومعتمة، وفيها مفتاح وعلّاقة تحمل في جانبها البلاستيكي رقم: 61، وفي الجانب المتدلي منها مفتاحاً صغيراً. ما يلمّ شمل حياة في هذه المتفرقات المبعثرة؟ أفي كلّ مادة متبقية مفتاح يخصّها ويربط الفقرات بعضها ببعض؟ وماذا عن المفتاح المحفوظ بعناية؟ ماذا عن الرقم نفسه؟ ألا يعدو كونه رقماً وحسب، خالياً من أيّ دلالة؟ ماذا إنْ كان رقم خزانة سرية؟ أين هي؟ ماذا تحوي؟ ألهذا تبحث الصحفية، ابنته، عن متبقياته؟

ألتقي لليوم الثاني على التوالي بالشخص عينه الذي زاملته في «البيت اللبناني»: هو في اتجاه، وأنا في الاتجاه الآخر فوق السجادة

الميكانيكية الواصلة والفاصلة بين خطَّي مترو. لم تُصبه أي دهشة، ظاناً أنني ما زلت أعيش - مثله على الأرجح - في باريس.

أعود إلى باريس لبضعة أيام، بعد أن أقمتُ فيها لشهور معدودة قبل سنوات. هذه المرة أزورها لتدبير مواد بحثي المفتوح عن ترجمة أنطوان غالان لـ «ألف ليلة وليلة».

كنت أعبرها وحسب، بخطى متثاقلة، صعوداً وهبوطاً على الأدراج الحجرية الواصلة والفاصلة بين حافلات القطارات السفلية. ما كنت حتى أتجول فيها... لم أستفظع، قرب «السان ميشال»، أنّ محل «شي أندريه» للسندويشات بات محل «نيو دلهيز»، ولا مرأى المجلة التي أشبه بجريدة، وكانت تقلِّبها الجالسة إلى جانبي في الحافلة...

لست سائحاً مثل كثيرين، ممّن أتعرف بيُسر على هيئاتهم: من نظراتهم اليقظة والجاحظة، من انكبابهم على خرائط الحافلات، من أشكال ألبستهم، أو من طلبات أكلهم... تدبّرت فندقاً رخيصاً، على مبعدة مئات الأمتار من «المكتبة الوطنية»، التي تحمل أيضاً اسم بانيها الجديد: «مكتبة فرانسوا ميتران». لم تعُد المكتبة جديدة بالنسبة لي، بل قديمة، بعد أن أقمتُ فيها لأيام، بل لأسابيع، في تلك الناحية التي تبدو أقرب إلى الضاحية منها إلى طرف العاصمة.

كان يحلو لي التمشّي بين الفندق والمكتبة، ولو تحت رذاذ المطر الخفيف في هذه الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر. أمضي إلى المكتبة مثل الكثيرين الساعين إلى أعمالهم، ولا سيما في مجموعة من الأبنية الجديدة التي تشغلها شركات وشركات. لعلهم موظفو هذه الشركات مَن ألقاهم بين رصيف وآخر: أكثر من عابر في هيئات مرتبة، ولا سيما الشبان منهم، ممّن يمشون بخفّة مع حقائبهم التي

تحمل حواسيبهم على الأرجح. فيما أتحقق من أنّ غيرهم يُقبل على هاتفه النقال بحماس وشغف، كما لو أنهم يمضون فوق دروب لامرئية، لكنهم يُحسنون الانتقال فيها.

أنا بدوري أحمل حاسوبي معي، مثلما تحمل السلحفاة بيتها، فوق ظهرها، طالباً أوراقاً خافية عني، وأحتاج إلى اكتشافها ومعرفتها، عمّا قاد غالان إلى ترجمة «ألف ليلة وليلة»، وهي الترجمة الأولى لها في أي لغة في العالم. هل يمكنني برهنة صحة ما أقوله في الترجمة: بين النقل والتأليف؟

ألتقي يومياً الأفارقة الأربعة الواقفين، سواء في طريق الذهاب أو في طريق العودة، وفي أي ساعة من النهار. جاهزون، ماضون إلى العمل. أو يستريحون لتبادل أخبار قليلة بين وقفة وأخرى، طالما أن قبعاتهم المعدنية لا تفارق رؤوسهم أبداً. أربعة بمقاسات مختلفة: بينهم الطويل للغاية، وبينهم القصير للغاية، مثل قياسات مختلفة لنموذج واحد. أصغرهم لا يبدو طفلاً مع ذلك، بل رجلاً قصير القامة، أو رجلاً كبيراً ولكن بمقاسات أو قياسات صغيرة.

ألتقيهم في الشارع العريض، أو في الصور المحفوظة في هاتفي النقال. الصور نفسها يوماً بعد يوم، من دون أن تتغير وقفتهم. أصوِّرهم من زوايا مختلفة: الأقصر من بينهم أعطيه فرصة أن يتصدر الصورة، فيما يبدو في زاوية أخرى جانبياً، هامشياً، أكثر من الثلاثة الآخرين. يتجاورون ليس إلا، من دون أن يتبادل أي واحد منهم مع أي واحد النظرات، ويبدون مقفلي الأفواه تماماً. أحدهم يمدّ يده وحسب إلى الأمام، فلا تقبض إلّا على الهواء البارد.

جامدون في منحوتة، جامدون بلونين: أبيض وأسود مائل إلى الرمادي. متشابهون ومختلفون. يلتقون ولا يتحاورون. هم بأربعتهم هامشيون. لعلّهم ذاهبون إلى العمل بدورهم بقبعاتهم المختلفة مثل أسلحة المحاربين القدماء.

كلٌّ منهم ينظر في اتجاه. مجتمعون بعضهم إلى بعض من دون أن يتبادلوا أي نظرة، ولا أي كلمات. ولو قيِّض لهم أن يفارقوا وقفتهم الجامدة لكان كلّ واحد منهم مضى في اتجاه. وما يعلوهم من قبعات، يختلف هو الآخر، بين من يعتمر خوذة معدنية، مثل التي لعمال البناء أثناء العمل، ومَن يضع قبعة أشبه بطربوش ولكن بلون أبيض.

هم باقون على وقفتهم، فيما تتساقط أوراق الشجر بصورة مزيدة في الحديقة الصغيرة التي يقفون بموازاتها. أتحقَّق في أي وقت من بقائهم، فيما تتشكّل الأوراق النازلة من الشجرتين الكبيرتين، كما تتبدى لي صورها من خلال السياج الحديد الأخضر المحيط بالحديقة الصغيرة... الأوراق تتشكل، تتبدّل، وتتغيّر ألوانها، تزيد أو تنقص أعدادها فوق العشب الأخضر المتّصل.

من خلف، لم يكن شيء يضايقني في مشيته. كنتُ قد اجتزتُ الأفارقة الأربعة، الذين لم يبرحوا مكانهم، وإن كان نظري لا يقع عليهم عند نزولي الدرجات الأخيرة المفضية إلى الجادة العريضة.

كان يتقدم وحده، حالياً، مثل الأعمدة الحديد المتراصفة وفق حسابات دقيقة. كان يبتعد عن نظري أكثر، على الرغم من خطواتي

المتلاحقة بثبات. بات أقرب، بسبب نظري الضعيف من دون شك، إلى عمود أسود، يعلو دائماً من يمرّ إلى جانبه في الاتجاهين.

انتبهت إلى وجوده في مرات سابقة. كان قبلي دوماً. كما لو أنه ينتظرني في جهة خفية لكي يتقدّمني، لكي يسابقني واقعاً. أما الأفارقة الأربعة فما كانوا يأبهون: لا به، ولا بي. إذ أغادر، إذ أعود، في أيّ وقت، ألقاهم واقفين، يجتمعون من دون أن يقطع أحد أحاديثهم الهامسة ربما، في وسط الرصيف العريض، في بناء دائري...

أحثّ الخطى، ما لا أعلم سببه، بل أركض وصولاً إلى التعرّف عليه قبل أن يختفي في سراديب المترو على الأرجح، الواقع أحد مخارجه في الشارع العريض. هذا ما بلغته أمام الصيدلية، قرب المنعطف الواقع قبل درجات مخرج المترو. ناديته طالباً المساعدة، فلم يُجب، بل مضى في مشيته. كان مصمماً لدرجة أذهلتني، ما جعلني أركض من جديد، وأقف في أولى الدرجات الحجرية: كان مَن كنت أتعقبه ويسبقني كل صباح: أعمى. تعقبتُه نازلاً على الدرجات، ثم في المدخل الميكانيكي المُفضي إلى بهو المحطة الداخلي، ثم على درجات السلم الميكانيكي المؤدية إلى رصيف المحطة. لم يكن يحتاج إلى أحد، تقوده عصاه الدقيقة التي تتقدمه مثل نور كشاف لما يستقبله. صعدت خلفه إلى الحافلة، فرفع العصا الدقيقة، وطواها، ثم وضعها في جيب سترته الخارجي.

في المحطة التي تلت، نزلت منها. خرجتُ إلى الشارع من دون أن أعلم حقيقة ما أصابني في اللحاق به، ثم في تعقبه الهستيري اليوم. كنت واقفاً، ساهماً، في وسط الرصيف، إلى أن استدعاني صوت طفل قريب مني: كان يتقدم صوبي، وهو لا يتعدى السابعة

من عمره، ويجتازني على دراجة صغيرة ذات دعسة واحدة وتُعاوِنُه قدمه الأخرى أرضاً، فيما يحمل على ظهره شنطته المدرسية. . .

ثم وجدت كلباً يشمشم الرصيف ممسوكاً بسلسلة من حديد، وفقاً لحركة معلمه الذي يتقدمه، من دون أن يلتفت إليه: لعله يشمشم آثار معلمه، رائحته، فيتعقبها، ولا يريد فكاكاً منه.

أرى في زجاج نظارتي إذ تأتيها الشمس من خلف، ذرات من أجسام لا أعرفها، وهي تتخلل نظري بالتالي. هي تختفي ما أن تكون الشمس أمامي. هي من المؤكد أنها موجودة، لكنها تختفي أو لا أراها بالأحرى إذ أتجه صوب الضوء.

أبتسم إذ أقرأ على واجهة مبنى تجاري دعاية تحمل الشعار التالي: «السرور هدية».

لم أجد رغبة في لقاء أحد ممّن كنت أعرفهم في باريس. هي صلات متباعدة بأيّ حال، كانت تقتصر على لقاءات سريعة، سواء في جامعة باريس الثالثة، أو في «البيت اللبناني»، أو في «معهد العالم العربي»، أو في محلات المأكولات اللبنانية، الموجودة أينما كان. لم أكن أعرف سبب تمنّعي هذا: أيعود إلى خشيتي من نقاشات اليوم حول «الربيع العربي» أم لكونها لقاءات عجولة لا تفيد في شيء غير تبادل اللياقات؟ وماذا لو أزور أنيتا، المخرجة على القناة التلفزيونية الثانية؟ أأزورها وقد طردتني من بيتها قبل منتصف الليل بقليل؟ أأقول لها إنني مستعد هذه المرة لتمضية الليلة معها في شقتها الصغيرة قرب «مركز جورج بومبيدو»؟

في المرة الأولى والأخيرة، فاجأني الأمر: خذْ، هذه بيجامتك.

لمّا سألتها عن السبب، أجابت بلهجتها الواثقة: لأنك ستمضي الليلة معي في الشقة. ولما أبديت عجبي من طلبها، بل من أمرها، رفعتْ الغليون عن فمها، وضعتْه على الطاولة الخشبية التي تتوسط صالونها، أمام جهاز التلفزيون: أتظن أنني عابرة سبيل، تقضي ساعة أو نصف ساعة معها، ثم تمضي!؟ كانت قد صبتْ لي كأس ويسكي، بعد أن اقترحته عليّ، إثر دخولنا إلى الشقة، بعد عودتنا من المطعم. أبعدتُ الكأس قليلاً، بدل أن أمسك به، وأتجرع رشفة أولى منه. نظرتُ إليها نظرة فيها الكثير من الدهشة، من دون أن أتفوّه بكلمة، ولا بالجملة التي أمسكتُها عن الخروج من حلقي.

أنيتا هي التي استدعتني إلى فراشها، بمجرد اللقاء بها في «مقهى لوسكولييه» في «الحي اللاتيني». كنت جالساً في المقهى عينه، منصرفاً إلى قراءة كتاب مرجعي، لما انتبهت لجلوسها إلى جانبي في الطاولة المجاورة. انتبهت إلى مرور تنورتها، بل حفيفها بساقي الأيمن. قلت لنفسي: إنها تعمّدت الاحتكاك بي، إذ كان في مقدورها دفع الطاولة بعض الشيء، أو استئذاني بالمرور. كانت تنورتها وردية الألوان، ما جعلني أرجِّح كونها بيضوية الشكل، وذات شعر أشقر. تابعتُ انصرافي إلى كتابي المرجعي، وإلى «دفتر الهوامش» الذي يرافقني حين لا يكون الحاسوب في حوزتي. تابعتُ القراءة، من دون تركيز. سعيتُ إلى كتابة شيء فوق الدفتر من دون جدوى. المجهولة التي حلّت إلى جانبي، كانت قد عرفتني من دون شك، لو تفقدتْ نبضات القلب التي تسارعت، والارتباك الذي علا نبضه في صدري.

كانت قد مضت عدة دقائق، أتى بها النادل بفنجان القهوة، ووضعه على طاولتها، من دون أن أرفع رأسي عن الكتاب. سأبقى

ممتنعاً عن النظر إليها، في نوع من المراهنة: أستبادر هي إلى محادثتي؟ وهي كانت واقعاً تغطية لحرجي من مبادرة إحداهن في مقهى. وضعتُ الكتاب جانباً، من جهتها، ثم طلبتُ تدوين شيء في دفتري، الذي أكتب فيه عادة ما أظنه صالحاً ومفيداً في هوامش لأطروحتي، أو في متنها أحياناً. وإذا بيدها تمتد إلى الكتاب، مصاحبة حركتها بجملة: أهو كتاب مثير للاهتمام إلى هذه الدرجة؟ رفعتُ وجهي إليها، من دون أن أبادلها أي جواب. كانت شقراء فعلاً، وبيضاء السحنة، وتنظر إليّ، بل تحدجني بقوة، منتظرة جواباً مني، أي جواب. لمّا لم يأتِ الجواب، أمسكتْ بدفتري وكتبتْ عليه اسمها الأول: أنيتا، ورقم هاتفها، مكتفية بالقول: اتصلْ بي بعد يومين مساء، إن شئتَ. ثم وضعت قطع اليورو القليلة فوق الطاولة، ومضت، مع ابتسامتها التي كانت قد رافقتْها ابتسامتي بدوري.

ألا تشبه أنيتا قبل ما يزيد على سبع سنوات ما كانته دانييلا قبل شهرين وأكثر بقليل؟ هذه مثل تلك، بادرتْ إلى معاكستي، من دون أن أكون شبيه براد بيت أو عمر الشريف.

أستعيد اليوم بعض أسئلة الأمس، وأنا أتوقف لدقائق أمام «مقهى لوسكولييه» من دون أن أفتح بابه الزجاجي. أكان صعباً تمضية الليلة معها، وهو أقصى ما كنت أشتهيه في تلك السنوات؟ ما منعني من ذلك؟ ما القوة الخفية، التي أجهلها أو أتجاهلها، التي منعتني من قبول عرضها؟

مع ذلك مضت الأمور بيننا بيُسر شديد مثل فيلم مُعَدّ بإحكام، وينفذه مخرج عالي القدرة والخبرة: اتصلتُ بها بعد يومين، فأجابتني

ضاحكة: لا أعرف حتى اسمك، أيها الطالب... ماذا تقول لو نلتقي غداً في الثامنة مساء في المطعم الياباني: «دموع ناريياما»، قرب «مركز جورج بومبيدو»... إنه يبعد عشرات الأمتار عن شقتي... نلتقي غداً. كانت جملها مرتبة، أكيدة، مقطَّعة كما في حوار مُعَدّ أو مكتوب، حتى إنها ما كانت تنتظر أجوبتي، مكتفية بهمهماتي المؤيدة طبعاً لما تقول. ولكن كيف عرفتْ أنني طالب؟

لم أجد «دموع ناريياما» في مكانه قبل يومين، حين مررتُ به صدفة للحاق بمكتبة جورج بومبيدو المتاحة للجمهور من دون اشتراك. جفَّت تلك الدموع، إذ تحوَّل المحل إلى بيع الأحذية النسائية الفاخرة. اقتربتُ قليلاً من الواجهة، مقدِّراً وحسب مكان الطاولة التي جمعتنا، في ذلك المطعم الضيق، الذي ما كانت تتجاوز طاولاته الست طاولات.

وصلت أنيتا قبلي إلى المطعم. وجدتُها تقف أمامه، منصرفة إلى غليونها، مبادرة إلى القول: لم يعُد في مقدورنا التدخين، كما يحلو لنا؟ ماذا عنك، هل تدخن؟ أتريد رشفة منه؟ وقفتُ إلى جانبها، أتنشقُ بدوري معها الدخان المنبعث من غليونها الذي يلتوي بين أصابعها، واجداً في ذلك موضوعاً لكلامي معها: رائحته جميلة للغاية.

مضت أنيتا حينها في حديث طويل، أمام الواجهة ثم على الطاولة، عن كيفية إعدادها لتبغ غليونها. فهي لا تحشوه بتبغ معروف، بل تقوم بخلط مجموعة متفرقة من أنواع التبغ بنفسها، ثم تقوم بتجفيف قشر الليمون، وتضعه في البراد في مطبخها، ثم تدقّ القشر بعد يباسه التام دقاً قوياً، وتخلطه بالتبغ بعد أن يكون قد أصبح ناعماً للغاية...

أمضينا قسماً واسعاً من عشائنا في أحاديث متفرقة عن التبغ والتدخين وعاداته، إلى أن توقفت قليلاً متوصلةً إلى خلاصة حاسمة: قلْ لي، ما سيفعل مخرجو السينما مع منع التدخين في الأمكنة والمؤسسات العمومية، إذ كانت كل لقطة لا تبدأ من دون أن يشعل (أو تشعل) أحدهم (أو إحداهن) سيجارة؟ كيف سيربطون بين اللقطات؟ لن تلقى السيجارة في لقطات سينمائية مزيدة، بعد اليوم، وإنما في الشارع، أمام البنايات، في غرف خاصة بالمطارات، مثل المصابين بالأمراض المعدية في الأزمنة القديمة... أليس كذلك؟

دانييلا نجحت في ما خططت له، بخلاف أنيتا الشديدة الوثوق بقدرتها على إدارة الأمور... حتى اللقطة الأخيرة، إذ ظنت أنها قادرة على إيصال الفيلم إلى خاتمته، إلى حيث تشاء. يبدو أن دانييلا كانت مستعجلة، فيما تمهلت أنيتا في سيناريو تتقنه عن ظهر قلب، فتضيف أو تزيل مَن تريد من الممثلين من دون أي حرج أو هلع... ما كان مقدراً له أن ينتهي مع فطور الصباح في الفراش الواحد ينتهي وفق نهاية أخرى: احتفاظ السيدة الشقراء بعزّتها النسوية المتشددة.

لكن ما الذي يجذبهن إليّ؟ أفيهن قدرة سرية قادرة على كشفي؟ أفي ظاهري، في ما أبدو عليه، ما يعرفنه بسرعة، وأفضل مني بأي حال؟ حتى كريستين الصبية هي التي استدرجتني، أليس كذلك؟

مفاجأة كبيرة كانت تنتظرني بمجرد عودتي من باريس. كنتُ قد أخطرت الطلبة بتغيُّبي عن آخر المحاضرات قبل عطلة العيد، وأخبرتهم بأنني سأكون في مكتبي ليومين فقط قبل مباشرة العطلة. المفاجأة كانت تتمثل في تعابير وجه كريستين لمّا وصلت إلى مكتبي.

كانت تقف لصق الحائط، مقابل مكتبي، ضامة إلى صدرها ملفاً، وجزدانها المتدلي من يدها، وتبدو في عينيها تعابير متغضنة للغاية.

- ما بك؟

- لا أنام الليل من هول ما عرفت.

- ماذا عرفت؟

- البروفسور قاتل...

ثم انطلقتْ في نوبة بكاء، كما لو أنها حبست ذلك طوال أيام وليال في انتظار قدومي، ما دعاني إلى إغلاق باب مكتبي تماماً. لكنني ما تجرأت على ملامسة وجهها، أو التربيت على كتفها، للتخفيف ممّا تكابده أمام ناظري، ومنذ غيابي. جلستُ إلى كرسي مقابل كرسيها. مددتُ لها محرمتي لكفكفة دموعها. حملتْها بيدها من دون أن تنشف أي دمعة. كانت تنوي البكاء وحسب...

كنتُ قد أذنت لها باصطحاب بعض الأوراق من ملف البروفسور إلى غرفتها الجامعية لمتابعة فحصها. أوراق عديمة الجدوى في غالبها، حتى إن بعضها تمثّل في فواتير كهرباء وهاتف وغيرها من مدفوعات. واحدة من تلك الأوراق حملت الخبر - الصاعقة:

«أنا الموقع أدناه، أقرُّ وأعترف، وأنا بكامل قواي العقلية تماماً، بأنني أقدمت على القتل ليلة السابع من أبريل في العام 1961، من دون سابق إصرار أو تعمد، المدعو الذي لا أعرف اسمه، على مبعدة بعض الأمتار من أحد المداخل المؤدية إلى غابة الأرز في شمال لبنان.

أكتب هذا، إثر عودتي إلى باريس، في العاشر من الشهر نفسه، ومن السنة عينها، طالباً إجراء تحقيق عادل في الحادثة المشؤومة».

كانت الورقة من دون توقيع، من دون تاريخ. الورقة عادية ممّا يمكن انتزاعه من دفتر، ليس إلا. وحسبت كريستين أنها تعود إلى البروفسور، وقد باتت تعرف خطه، وبعض الإشارات الدالة عليه، مثل الإمالات أو الاستطالات في عدد من الحروف.

لم تحسن كريستين قراءة الورقة، بل مدتها أمام وجهي. أعدتُ قراءتها بصمت أكثر من مرة، من دون أن تصدر عني ردة فعل واحدة.

لم تجد الطالبة أوراقاً أخرى مفيدة في كشف هذا السر الصاعق، بل وجدت ورقة أخرى أشبه بتمرين أولي لما بدا واضحاً وجلياً في الورقة السابقة. حملتْ كريستين هذا السر طوال أيام وليال من دون أن تخبر أحداً به، سواي، بعد مجيئي. شكرتُها على ثقتها بي، على الرغم من أنني أتحمل ما لا طاقة لي على حملانه.

تبادلتُ معها عبارات أخرى، محدودة، مقتضبة، متسائلاً: ألا يكون البروفسور يمرن كتابته ليس إلا؟ ألا يكون يكتب مقطعاً لرواية؟ طرحتُ أسئلة غيرها، كما أفاضت كريستين بدورها في عرض احتمالات أخرى. إلا أننا، أنا وهي، عدنا إلى الحقيقة المادية الحاسمة: من الصحيح أنه لم يوقع الورقة، لكنه كررها مرتين ما يعني إصراره عليها. ولكن كيف يحدث له أنه لم يخفِ هذه الورقة في خزنته التي نملك مفتاحها من دون مكانها أو محتوياتها؟ ألا تكون عديمة النفع طالما أنه أبقاها مع فاتورة تبديل إطارات سيارته البيجو 403، وإصلاح الغاز وغيرها؟

خرجت كريستين من دون الأوراق من مكتبي، لكنها حملت معها سراً بات يجمعني بها، ما لا أعلم بعد مؤدياته. خرجتْ من مكتبي لكنها تركت بين يدي حملاً ثقيلاً، أكثر ثقلاً من وزن الأوراق

الخفيف. ماذا أفعل بهذا كله؟ هل أبلِّغ المدير؟ ألهذه الرسالة - الوثيقة صلة بما تطالب به ابنة البروفسور؟

أمضيت نهاري خارج المكتب، كما لو أنني أطلب الابتعاد عن مكان الجريمة. ما لا تعرفه كريستين، هو أن غابة الأرز التي حصلت فيها الجريمة قد لا تبعد كثيراً عن بلدة والدي. كيف يحدث هذا؟ بأيّ تدبير؟ هذا يجعلني متضرراً حكماً من جريمة البروفسور. هذا يملي عليّ واجباً إضافياً بالتالي. هذا ما يدعوني إلى إخفاء سرّ هذه الرسالة قبل جلاء أمورها، في ستراسبور قبل غابة الأرز.

هذا ما انتهيت إليه بعد ساعات وساعات من المشي على غير هدى. طردتُ سلفاً فكرة الاتصال بوالدي لاستعلامه عمّا جرى ذات ليلة على مقربة من غابة الأرز؟ كيف يذكر ذلك، وكان حينها في الحادية عشرة من عمره؟

للمرة الأولى لم أعد محتاطاً، ولا حذراً في تنقلاتي. لا شيء له أهمية بعد اليوم، والبروفسور الذي يطمح الجميع إلى بلوغ مرتبته، ويتسابقون للفوز بمقعده في «أكاديمية النقوش والآداب الجميلة»، قاتل. كيف سأتدبر الأمر مع كريستين؟ هل أقول لها إن الضحية من أهل بلدي، وربما تكون له صلة قربى بوالدي؟ هل سألبس ثوب المحقق في جريمة غير معروفة وغير مكشوفة؟ هل سيُضايق كشف الجريمة وضعي المؤقت في جامعة ستراسبور؟

الأسئلة كثيرة. كانت تتدافع مع تدافع خطواتي في شوارع وأزقة أبلغها من دون قصد، وأتركها من دون قصد. كانت الرسالتان في جيب سترتي الداخلي: كنت أتوقف أحياناً، وأستعيد قراءتهما، باحثاً

عن تفصيل صغير تتكشف فيه عتمة الحبر عن أسرارها. من دون جدوى. كان الخط في الرسالة الثانية أكيداً، مرتباً، منتظماً فوق سطور غير مرئية.

وصلتُ، يومها، من حيث لا أقصد أمام مبنى زجاجي ومعدني كبير. إنه «البرلمان الأوروبي»، بعد استفساري عنه من أحد الحارسين الواقفين أمام بوابته الميكانيكية التي لا تنفتح من دون موافقتها. كان في ودّي سؤالهما عن موعد الزيارة الممكنة إذ أدرجتها في حساباتي، لكن قدماي قادتاني في وجهة ثانية من دون الاقتراب مجدداً من الحارسين.

قعدت على مقعد انتظار أحد الباصات، ثم توقّفت في أكثر من شارع وزقاق، ولا سيما الخاص بوالتر بنيامين. تفرجت على واجهات المحلات الفخمة وقد ازدانت بزينة العيد، ولكن من دون أن أراها. التقاني أحد الطلبة، إذ كنت جالساً في مقعد انتظار أمام إحدى المحطات، لكنني بمجرد توجيه التحية قمت من مقعدي ومشيت من جديد.

لم أعرج على «مقهى بروغلي» عند مروري به، فقد كنت إذذاك في طريق العودة إلى البيت، بعد أن توقّفت مرتين مختلفتين في مقهيين متباعدين: في المرة الأولى لتجرُّع كأس نبيذ، وفي المرة الثانية لتجرع كأس أخرى.

عند وصولي إلى البناية التي أقيم فيها، لم أدخل إلى شقتي، بقيت في الباحة الخارجية، اقتعدتُ أحد المقاعد الواقع في جهة جانبية من المبنى. رحت أتأكد من وجود الورقتين في جيبي من جديد، ومخافة أن أفقدهما كنت أستخرجهما من جيبي الداخلي

وأتأكد من وجودهما فيها. ما عدت في حاجة إلى القراءة، إذ إنني حفظتُ نصّ الاعتراف عن ظهر قلب.

كانت عتمة الليل قد حلّت تدريجاً من دون أن أتنبّه لذلك، لولا سماعي لعابرة سبيل تمر إلى جانبي وتقول: مساء الخير. لم أجِب، فكان أن سمعتُ العبارة نفسها من جديد على مقربة مني. كانت فضيلة بمعطفها المعتم، وجزدانها المعتم هو الآخر. اعتذرتُ منها لعدم انتباهي لمرورها. سألتني: ماذا تفعل هنا؟ أجبتها: بودي أن أسألك السؤال نفسه...

إلّا أن مفاجآتي لم تنقطع في اليوم التالي، عشية عيد الميلاد، إذ سمعت قرعاً على باب شقتي، وكانت دانييلا واقفة أمام الباب.

الفصل الثاني

عراك في جسد واحد

أمضيت عطلة العيد بصحبة أنطوان غالان، بعد أن تدبرت نسخة من كتاب «يومياته»، آملاً في أن أجد فيها ما ينير عتمة البحث في ترجمته الفرنسية لـ«ألف ليلة وليلة»، بين سياسة النقل وسياسة التأليف. والغريب أن أمي ووالدي لم يتضايقا من عدم مجيئي إلى لبنان، إذ قالت لي أمي: أجواء العيد حزينة على أيّ حال، فيما نبهني والدي إلى مخاطر الخطف، سواء على طريق المطار أو في مناطق غيرها.

كنت أحتاج إلى مثل هذه الأيام القليلة لكي أتحقق ممّا يجري في حياتي من أحداث متلاحقة، كما لو أنها تخرج فجأة من علبة شيطانية، مثل التي كانت تفجر ضحكي في طفولتي: كنت أضغط على زر في العلبة فإذا بمخلوقات مختلفة تخرج من ثقبها المخفي، باعثة فيَّ مشاعر الدهشة المتجددة من دون مخاوفها، كما في المرة الأولى بعد تجريبها من قبل أبي أمام عيني الشاخصتين.

زيارة دانييلا المفاجئة خفَّفت من مشاعري الغامضة والمزعجة التي استبدّت بي طوال أكثر من شهر. اعتذرتْ بمجرد جلوسها على الكنبة عن فعلتها، ثم وضعت فوق الطاولة الصغيرة رسالة ضمّنتها بضعة أوراق من فئة العشرة يورو تعويضاً عمّا سرقته مني. هذا ما

تحققتُ منه بمجرد فتح الرسالة، إلا أنها دعتني إلى قراءة الرسالة بعد مغادرتها لشقتي: كتبت في الرسالة ما يفسر ما حصل... ماذا لو نحتسي كأساً في مقهى مجاور؟

في الطريق القصيرة الواصلة بين شقتي والمقهى المواجه لفندق «إسبلاند» لم نتبادل سوى كلمات قليلة، فيما كنت أسترق النظر إليها غير مصدق ما يجري لي. مرة أخرى تقودني، برضاي هذه المرة، ومن دون هلع أو ضغط. بدا لي كما لو أنني ألتقيها للمرة الأولى، من دون أن أتبين وجهها تماماً. توقفتُ أثناء المشي لكي أدعها تسبقني بضع خطوات فأنظر إلى جسمها من الخلف، فما أتيح لي ذلك تماماً في العتمة، خاصة وأن معطفها الغامق اللون كان يخفي تماماً تقاطيع جسمها.

الغريب هو أنها لم تبادر إلى تقبيلي عند دخولها إلى شقتي، فيما بلعت الدهشة حركاتي، وجمدتها كلها، بل الغريب هو أن مشاعر النقمة ما لبثت أن تبدّدت، وحلتْ محلها أسئلة واستفسارات: أكنت أقبلُ أعذارها، وأياً كانت؟

في المقهى أتى الحديث متقطعاً، من دون بدايات أو تتمات. كانت حركاتها وتعبيرات وجهها تتعدد وتتنوع، فتبدو مصطنعة، مفتعلة فيما كانت تبدو ساهمة، بعيدة عني، في أحيان أخرى. كانت تجلس مثل طالبة مجتهدة أمام طاولتها الصغيرة، فتضع يديها مرتبتين فوق الطاولة، جامعة بينهما كما لو أنها تؤدي صلاة صامتة، أو تتهيأ لاحتفال بتهيُّب واحترام. كانت جملها متلاحقة، من دون أن أحسن الربط بين فقرات ما ترويه عمّا جرى لها، قبل لقائي بها وبعده. أخبرتني أن عصابة سوء تعرَّضت لها، قبل لقائها بي، في حي معتم (من دون أن تذكر اسمه) في جهة من ستراسبور، واختلستْ منها

أموالها. كما أخبرتني أنها كانت مُلزَمة بتدبير مبلغ مالي ولو قليل للعودة إلى برلين أو فرانكفورت. . . كنت أستمع إليها غير مبالٍ واقعاً بما ترويه. كنت أريد سؤالها عمّا جعلها تقتادني إلى غرفتها. لكنني كنت أنظر إليها وحسب، طائعاً ولكن مختاراً هذه المرة. السؤال الوحيد الذي نجحتُ في طرحه عليها هو عن كيفية معرفتها بعنواني، وباسمي قبل ذلك. فأتى جوابها واضحاً هذه المرة، ومفاجئاً: في جيب البنطلون وجدت، إلى أوراق اليورو، ورقة من «الضمان الاجتماعي» يَظهر فيها عنوانك واسمك العائلي.

ما أن انتهت من فنجان قهوتها، أصرت على دفع الفاتورة، واعتذرت مني بلزوم مغادرتها المكان للّحاق بباص واصل بين ستراسبور وفرانكفورت. ما أن وقفتْ دعتني إلى مرافقتها إلى باب المقهى وحسب، وما أن وصلتْ إليه اقتربتْ مني، أمسكت خصري، وتلقفت شفتي السفلى بشفتيها، وراحت تمصّها مصّاً متمادياً، فضلاً عن تحريكها للسانها في فمي.

كان عليَّ أن أتدبر أكلي في هذه الأيام المعدودة، وحدي، والمطاعم الجامعية الأربعة تقفل أبوابها لما يزيد عن ستة أيام. احتجت إلى سيارة أجرة لنقل الأكياس الكبيرة التي حمَّلتها وجبات أكل جاهز، فضلاً عن فواكه وخضار ومشروبات مختلفة. كنت وحدي، في شقتي، من دون أن أتدبر أموري فيها. تنبهت إلى غير أمر لا أحسن القيام به، أو معرفة تفاصيل صغيرة في إعداده. ألي أن أتّصل بأمي لأسألها عن إعداد طبق أو سلطة؟ ماذا تفعل فضيلة خارج المطعم الجامعي وفي أيام العطلة هذه؟ ألي أن أدعوها لتعليمي إعداد

أكثر من وجبة واحدة؟ وحدها الحبقة كانت تنمو من دون عناية كبيرة بها...

مع ذلك، لم أكن حزيناً تماماً، ولا متضايقاً، بل كنت أنعم بنزهات لطيفة عند الغروب في اتجاه «ساحة بروغلي». زينة العيد تدغدغ نظري، ومرأى الأشجار الاصطناعية أو الطبيعية لا يقودني إلى طفولتي، ولا إلى الشجرة الصغيرة التي كانت توضبها أمي في علبتها، وتُخرجها منها سنة تلو سنة، مع كرياتها ونجمتها الكبيرة التي تعلو رأس الشجرة... كانت لزينة العيد، ولا سيما مع حلول العتمة البطيء، طلة، بل ملمس خاص مثل معطف إضافي فوق معطفي.

لم يكن ينتظرني أحد، ولا أواعد أحداً، فيما أنتبه إلى البسمات البادية على وجوه قلّما اعتدتُ على رؤيتها باسمة بهذا الشكل في حياتها اليومية.

كدت أبكي، ذات مساء، وأنا أودّع وأستقبل مَن لا يوجهون لي تحية، أو قبلة، أو يواعدوني، لولا أنني شعرت بأنني فرح في عميق نفسي، وأن هذا الشعور الطافي فوق العينين عابر، بل هو إشارة عن الخوف ليس إلا. فأنا أشعر بخوف، لأنني قلما كنت وحدي. وحدي، لكي أتدبر حلولاً لما يصيبني، أو أواجهه من دون معونة أحد.

ما أفعل بجريمة البروفسور التي أعرفها؟ هل أتوجه إلى ابنته أم إلى مدير الدائرة أم إلى الشرطة؟ أتكفي الرسالتان بخط يده لتجريمه أو لرسم دائرة شبهة حوله؟ ماذا يخفي المفتاح الصغير والرقم المتدلي من علّاقته الصغيرة؟ ماذا يخفي هذا المفتاح الصغير؟ أيشتمل على دليل اعتراف بجريمة مكتومة؟ ماذا أفعل بالطالبة التي

تلاحقني وتستفزني؟ أهي من طلابي فعلاً أم تتدبر بعض أخباري منهم؟ كيف لي أن أكشف هويتها أو أن يكشفوها هم بدورهم؟ ماذا أفعل بدانييلا التي دعتني في رسالتها إلى أن نمضي أياماً معاً في فيينا، في منتصف شهر فبراير المقبل؟

الأسئلة عن دانييلا زادت في الواقع، بدل أن تخفّ أو أن تنجلي. لا أملك بعد حكاية واضحة عمّا حصل لي معها، أو عمّا فعلته بي. حتى الرسالة التي تركتها لم تبدِّد الريبة، ولا مشاعر الامتعاض من سلوكها. كنت أنتظر شروحات منها عمّا فعلت، لكنها لم تلتزم بما وعدت، ولم تُضمِّن رسالتها الشروحات الموعودة. خرجتُ من المقهى بشكل مباغت. أودعتني قبلتها الشهوانية فقط، إذ لم أجد في الرسالة غير كلمات قليلة عن الرحلة، فضلاً عن رقم هاتفها.

كان المشي ممتعاً ومريحاً، إذ يخفف عني ثقل الأسئلة، ويجعل الليل أطرى وأخف على كاهلي. لا أعرف ما يحدث لي، وكيف يتحول الليل إلى محكمة، إلى جلسة تعذيب تؤرقني، ولو تخلَّلتها لحظات جنس متفلت، بيني وبين دانييلا من جديد، أو بيني وبين «شهرزاد» - شهرزادي الإلكترونية. ما أن أشعل الحاسوب، وأفتح قناة التواصل، حتى يظهر اسمها: شهرزاد، من دون أن يظهر وجهها، وتبادرني بإحدى جملها المثيرة: سيدي وحبيبي ومعلمي، أتحتاج إلى ما يسلي وحدتك ويخفف عنك خجلك وكبتك؟ سيدي وحبيبي ومعلمي، ما تحب أن ترى الليلة؟ سيدي وحبيبي ومعلمي، ألا تنوي الكشف عن مفاتن جسمك لي أنا المتيمة التي لا ترمقها حتى بلفتة في دروسك؟ سيدي وحبيبي ومعلمي، أنا بين يديك، أنا فانوسك السحري ولو في العتمة، متى ستظهر أمامي؟

جمعتُ بعض الصور مما أرسلتْ، وحاولتُ مرة أن أخمّن ما يكون عليه جسمها. كانت تكتفي بلقطات مقربة لثديها، أو لسرتها، أو لكاحلها، من دون وجهها. ومن قال إنها تعود لها، لا لعارضة أزياء؟ أهي تهواني فعلاً أم ترغب في إغاظتي؟

وحدها فضيلة تمنَّت لي عاماً سعيداً، إذ أتت إلى طاولتي من مطبخها الخلفي، وأرفقت جملتها بابتسامة عريضة. كدتُ أخبرها بأنني فكرتُ فيها في العطلة، ثم طردت الفكرة من رأسي لمّا انتبهت إلى أنني احتجت إليها واقعاً مثل طاهية في شقتي.

الرجل الذي استوقفني قبل أسابيع للسؤال عن أوراق إقامتي، وجدته ينتظرني أمام البناية. ما أن وصلت إليها، بادرني بالقول: هل راجعتَ مخفر الشرطة؟ فأجبتُه بالإيجاب. حارَ في ما له أن يقول. هَمْهمَ كلاماً من دون أن أسمع شيئاً منه. انتبهت يومها إلى أنه لم يكن حليق الذقن، ويمسك بيده اليمنى مظلة واقية من المطر وممزقة في جانب منها.

استعدتُ محاضرتي الأسبوعية، واستعدتُ فحصي للوجوه، ولحركات هذه وتلك، طمعاً بالكشف عن شهرزادي الإلكترونية. تعمدتُ التنقل بين صفوف الطلبة، والاقتراب أكثر من طاولاتهم، لملاحظة ما قد يبدر عنهم من إشارات. أأخضِعهم لفحص فوتوغرافي يكشف عن صدورهن، كما في آلات المختبرات الطبية، عندما يحتاج الأمر إلى صورة أشعة، مثلما حصل لأمي، ذات يوم، في مختبر «سيديم» في مجمع «الأبراج» قرب سن الفيل؟ هكذا طلبت التوقف، في صورة غير مطلوبة، بل متعمدة، عند شخصية شهرزاد

لمعرفة ردود أفعالهم، فما نجحت في اصطياد مواقف دالة، إذ اكتفى أحدهم بالقول، أمام إصراري على إثارة النقاش: شهرزاد موجودة اليوم في شارع المومسات، لأقل من نصف ساعة للزبون الواحد. . . ، فيما قاطعه آخر بالقول: . . . عدا أنها لا تسمح للزبون بتقبيلها. لا جدوى من وراء هذا كله. حتى بقائي مع الطلبة بعد نهاية المحاضرة للإجابة عن أسئلة متفرقة، لم ينفع أبداً إذ لم يستثر اهتمام أحد، فيما خلا كريستين، مساعِدتي، التي كانت تقف على مبعدة منا، وقريبة منا. أتكون هي مشاكِستي؟

استبعدتُ الفكرة تماماً، ما أن حللتُ في مكتبي من جديد، واستقبلتُ كريستين التي أخبرتني عن تقدم العمل في إحصاء محتويات المكتب. ما أن استعدَّتْ للخروج، عادت أدراجها: ألا ترى مناسباً أن تلتقي بابنة البروفسور، وأن تستفسرها عن حياته، ما يمكن أن يساعدك في التعرف على سيرته الشخصية، وربما على الجريمة المفترضة؟ شكرتُ كريستين عمّا اقترحته، ودعوتها للجلوس قليلاً. بدت على وجهها ابتسامة خفيفة. سألتها أكثر من سؤال عنها، عن عائلتها، فتمنعت بلطف، إلى أن قالت: عفواً، يا أستاذ، مثل هذه الأسئلة لا تطرح بين شخصين إن لم يكونا في علاقة حميمة. . . ثم أردفت قائلة: صديقنا السوري ما أن التقيت به، بعد الصف، لأول مرة، أخبرني عن بيته، وعن حياته، من دون أن أطرح عليه أي سؤال. . . ولما أشرتُ له بصعوبة مثل هذا الأمر في الحياة الفرنسية، راح يحدِّثني عن «الجيش السوري الحر».

كريستين بدورها هي التي تبادر، فيما أنا أتلقى. ماذا يعني هذا؟ الغريب أنه لا يزعجني تماماً، وإن كنت أدهَش لحصوله مرة تلو مرة، مع هذه المرأة أو تلك. أهنّ يستضعفنني أم يجذْبَني غير مبادر في ما

يقع في نطاق شغلي ومسؤولياتي؟ ألا أكون غير معني كثيراً، أو مهتماً بما يتعلق بإدارة الأمور؟ ألي أن أفرح بهذا الجانب أم أن أتضايق منه؟

لم أخبر ابنة البروفسور بما اكتشفتُ، ولا بالرسالتين طبعاً. أبلغتُها أننا سننتهي قريباً من إحصاء محتويات المكتب، وأن عليها - حينها - أن تبتّ الأمر، بل الخلاف حول الملكية، مع مدير الدائرة، وبالتالي مع الجامعة نفسها. ذلك أن المدير دورمييه أخبرني، مثلما أعلمَ الموظف في التحقيقات القضائية، عن وجود رسالة بخطّ البروفسور تَهِبُ محتويات مكتبه، ولا سيما الكتب والوثائق فيها، لدائرة الدراسات الشرقية.

فيرا، ابنة البروفسور، رحبتْ بطلب الاجتماع بها، ولم تعترض حين اقترحتُ عليها الاجتماع بها في شقة البروفسور نفسها، الواقعة على بعد مئات الأمتار مشياً من مكتبه، بل قالت لي: أنا أقيم فيها أساساً.

لم تكن الشقة بالكبيرة، على الرغم من أنها توحي بذلك، إذ كانت عبارة عن حيز ممتد وملتو، بحيث لا يرى الجالس في جهة السرير منها، من يجلس على المكتب في الجهة الأخرى. للشقة شكل نصف دائري، لكنه يمتد فوق رفوف كتبية موصولة، فيما يقع المطبخ الصغير والحمام في الجهة الأمامية من الشقة.

انتقلتْ فيرا بعد أيام قليلة على وفاة والدها إلى الشقة، بعد أن أوصى بها لها. انتقلت من شقتها التي تقع في ضاحية ستراسبور، والتي ورثتها من أمها المتوفاة، والتي كانت بدورها تركة عائلتها لها: تركتُها بمجرد أن تبلغتُ من محامي والدي بأمر الوصية. أبقتْ الشقة

كما كانت عليه، فلم تجرِ أي تعديل فيها، وهي لا ترغب في ذلك. كانت تتنقل في الشقة بقدر من الراحة، بل من الاعتزاز. راحت تتمشى أمام رفوف المكتبة، وتعرض لي بعض محتوياتها الموضوعة أمام الكتب نفسها، أو بينها أحياناً: تماثيل صغيرة، زخارف فوق أقمشة، أكواز صنوبر يابسة... تعرضها مادة مادة، بحرصٍ وعناية، ما جعلني أسألها: هل أنت معجَبة بها إلى هذا الحدّ؟

كانت مثل حافظة متحف. لا يبدو، في ما تقول، أو في ما تفعل، ما يدل على صلة خاصة بالموجودات. ولا يحتاج الزائر إلى استيضاحات أو إجابات لكي يدرك مباشرة أن البروفسور كان يقيم فيها وحده. توقفت فيرا عن المشي، لما سألتها: أما عشتِ في الشقة في السابق؟ بل نظرتْ إليّ متسائلة: ما السبب الداعي لزيارتك؟

كانت فيرا قد تعدت الأربعين من عمرها من دون شك، إذ بدت أكبر من دانييلا، خصوصاً وأنها أسمن منها، فيما يميل جسمها إلى القصر بخلافها. كنت أحتاج، إذاً، إلى تبرير مجيئي وزيارتي إلى الشقة. كانت تقف في مواجهتي حينها، ما جعلني أتبين جمال عينيها، الغارقتين في خضرة مشوبة بلون عسلي: أخبرتُك أنني أكاد أن أنتهي، مع مساعدتي، من إحصاء محتويات المكتب، وتوصّلنا إلى وضعها في قوائم تبعاً لموضوعاتها، مثلما يفعل الباحث المدقق في قائمة المراجع عادة... طلبتُ المجيء لرؤية المكتبة، لا الشقة بالضرورة، لكي أعرف محتوياتها، وما إذا كانت تختلف أم تلتقي، من ناحية كتبها ووثائقها، مع محفوظات مكتبته الجامعية.

توقفت فيرا عن التمشي المتمهل أمام الرفوف، ودعتني إلى الجلوس في جهة المكتب، بعد أن كنتُ قد تنبهت إلى عدم وجود

كنبة أو غيرها لضيوف الشقة. هذا ما ناسبني بالطبع، إذ شعرتُ بأن عليها أن تفاتحني بأمور شخصية من دون شك. وهو ما كنتُ أتمنى حصوله لمعرفة المزيد عن البروفسور الشهير والغامض.

إلا أنها بدل أن تحادثني عنه، أو عنها، كلمتني عن نفسي: هل تعرف أنك الأقرب إليّ في هذه الشهور والأيام؟ لما بدت على وجهي من دون شك معالم الدهشة، استدركتْ بالقول: أنت الأقرب طالما أنك الأقرب والعارف بما خلّفه والدي. لكنني خالفتها الرأي مبدياً ملاحظة «منهجية» (مثلما أطلقتْ عليها)، وهو أنني أبدو مثل عالم آثار من دون أي معرفة مسبقة بالبروفسور، فيما هي ابنته، العارفة به أكثر مني بالطبع. إذذاك لمعَ في عينيها بريق دمع، من دون أن تقاوم نزوله الهين، لكنها لم تبكِ، ولم ترتجف في ما قالتْه بهدوء، ما خفف من صورتها العنيفة السابقة، لما دخلتْ عنوة إلى المكتب الجامعي.

في الليلة التالية، في مطعم «مائدة لويز»، كانت تنتظرني على الرغم من أنني لم أصل متأخراً أبداً، إذ أحبُّ الوصول دوماً قبل الموعد. كانت قد أنهت كأس نبيذها الأحمر، لما طالبتْ بالثاني فيما كنت لا أحسن التعرف على أي من الأطباق التقليدية المميزة لهذا المطعم، على ما أخبرتني. لم أنعم معها بحديث متصل، إذ بدا كلامها متفرقاً، عن دراستها في كلية الآداب، أو عن عملها في جريدة «أخبار الألزاس الأخيرة»، من دون أن تذكر والدها في الواقع. كان الغائب في حديثنا، على الرغم من سعيي في بعض الأحيان إلى إدخاله في الحديث، بل كان أشبه بالشبح الذي يعبُر بيننا وبين أطباق المائدة. لماذا دعتني إلى العشاء، إذاً؟

تفرستُ في وجهها، ورحت أراجع تصرفاتها وأقوالها، فلم

أجد فيها ما يدعو أو يبعث على السؤال عن دوافعها: لا، هي لا تتصيدني من دون شكّ، إذ لا تكاد تنظر إليّ، فيما أجلس قبالتها تماماً. كانت معي، لكنها تتابع سيرها في أنفاق لا أدركها، بل تدركني بعض أقوال منبعثة منها ليس إلا. تركتُها تسترسل في أحاديثها، كيفما حلا لها، من دون أن أبادر إلا بالهمهمة، أيّ بنوع من التأييد اللفظي لما تقول إن طلبتْ تأكيداً مني.

كنتُ قد أنهيت طبق الأكل، المكوّن من سمكة مغمّسة في صلصة لذيذة للغاية، فيما كانت لم تقتطع سوى شرائح قليلة من قطعة اللحم الوردية في صحنها، إذ كانت لا تتوقف عن الكلام، أو عن احتساء النبيذ. فكان أن سألتها عن نوع النبيذ الذي كانت قد اختارته بنفسها، ثم راحت تحدثني عن النبيذ، وعن «عائلاته»، التي تفوق «عائلات» الجبنة. وهو ما راقني، إذ إن اهتماماتي الناشئة بالأكل، بالمائدة عموماً، تقودني حكماً إلى العناية بالنبيذ، بدوره المتنوع والمتعدد في الأكل، إذ يفتح ويُنهي شهية المائدة.

كدت أستلّ دفتر «يومياتي» من جيب سترتي الداخلي لتدوين ما كانت تقول، وإضافته إلى ما كنتُ قد تعلمته من البروفسور هيبوليت في أحاديث متفرقة معه، في مكتبه، أو ذات مساء في شقته القريبة مني. ألا تكون فيرا تبحث عمّن تحادثه، عمّن تتكلم معه من دون أن تنتظر أجوبة منه بالضرورة؟

عند خروجنا من المطعم اقترحتْ إيصالي إلى شقتي، لكنها استدركتْ: ألا يعنيك التمشي في شوارع المدينة في اتجاه «الإسبلاناد»؟

كانت المدينة أشبه بالفارغة، في شوارع عريضة ولكن خالية إلا من بعض السيارات العابرة، ووسط مبانٍ عريقة من دون أن يظهر كثيراً لمعان الإنارة من شققها، كما لو أنها تزيد على أعداد ساكنيها أو عن حاجاتهم. ما زاد من هذا الشعور كوننا كنا نستمع إلى وقع خطواتنا فوق بلاطات الشوارع المرصوفة، فيما كانت الأنوار تضيء قليلاً العتمة الرازحة، المطبقة على ستراسبور. لم أكن أعلم وجهة السير الأكيدة، من دون أن يظهر في مشيها سبيل محدد لخطواتنا.

توقفتْ وواجهتني قائلة: كنت أظنّ أنّ في إمكاني محادثتك عن علاقتي بوالدي في المطعم أكثر من الشقة، إلا أنني لم أنجح في ذلك... مع المعذرة. ثم أدارت وجهها، وتابعت المشي، فيما كنت أتدبر جملة لا تحرجها، طالما أن الفرنسي يتضايق من الحديث عن حياته الخاصة، بل يمتنع عنها: اعذريني، بدا لي في الشقة كما لو أنك غريبة عنها.

هذا صحيح: أجابتني. كنت أعلم بوجودها، بعنوانها، من دون أن أقوى على زيارتها... لم يكن هذا مسموحاً لي. كنت ألتقيه في مطعم، أو مقهى، بناء لطلبه، أو لطلبي أحياناً. زرتُ الشقة للمرة الأولى قبل أكثر من خمس سنوات عند وفاة والدتي... ذلك أنه انفصل عن والدتي بعد أقل من سنتين على ولادتي... انفصل عنها، من دون أن يُقدِما على الطلاق. عشتُ طفولتي في بيت جدتي، وكان يصطحبني أحياناً إلى نزهات قصيرة في ستراسبور نفسها، من دون أن أمضي رحلة واحدة معه، أو نحن الثلاثة... ما كنت أنجح في مكاشفته، أو في سؤاله عن سبب الابتعاد. أمي بدورها كانت تتمنع عن محادثتي في الأمر، والغريب هو أنها لم تطالب أبداً بالطلاق،

بل بقيت زوجته حتى وفاتها. وهو بدوره لم يطلب الطلاق منها، وبقيت زوجته الرسمية حتى وفاته بدوره.

توقفتْ فيرا عن المشي، ثم سحبت من جزدانها محرمة، من دون أن أعلم ما إذا كانت تجفف دموعها، أم أنفها في هذه الأمسية الباردة. توقفتُ بدوري من دون أن ألتفت إلى وجهها. ثم تابعت مشيها، بل حكيها، الذي كان يتتابع بيُسر، مثل ماء يجري من دون أي إعاقة، من دون تشنج... أخبرتني أنها وجدت في جارور خزانة ثياب أمها، بعد وفاتها، أكثر من صورة فوتوغرافية، بالأسود والأبيض، تجمعُها في لقطات مرحة بشاب من دون أن تعرف عنه شيئاً، لا هي ولا خالتها الصغيرة: كانت الصور في عمر الشباب على ما رجحتُ، من دون أن أجزم ما إذا كانت قد التُقطتْ قبل زواجها من والدي، أو أثناء الزواج، أو بعده مباشرة... لم أرها في حياتي منشرحة كما في هذه الصور. لما سعيت إلى فحص محتويات الصور لم أجد فيها ما يدل على زمنها، أو الأمكنة التي جرت فيها... تنبهت فقط، في إحدى الصور، إلى وجود آلة تسجيل صوتي ذات بكرة قائمة فوق طاولة بين والدتي والشاب المرح، كما أسميته. كانت الصور في الخارج، في أمكنة مختلفة، بدليل تبدل ثيابها وثيابه بين صورة وأخرى. كانا معاً في هذه الصور، من دون أن يشاركهما أحد فيها، عدا أنها لم تكن صوراً عفوية أبداً، بل يتم إعدادها قبل التقاط الصور. هذا ما تعلمته من الصحيفة، ومن صورها، لما عملت سكرتيرة تحرير تنفيذية في الجريدة، إذ شرح لي أحد مصوري الجريدة الطرق الجديدة في التقاط الصور بحيث يبدو الشخص والأشخاص لاهين أو غير مبالين بصورتهم، أو لا يواجهون الكاميرا مباشرة، مثلما يحصل لوالدتي مع الشاب المرح.

كانت تتحدث بيُسر عن والدتها، عن جدتها، وعن خالتها الصغيرة، إذ كن يعشن معاً، فيما كان جدها المهندس يعمل في مدينة تونس، ويعود لبعض الوقت صيفاً إلى البيت. ولكن ماذا عن والدها؟ هل تعتقد أن خلافاً أساسه غرامي وقع بين والدها ووالدتها؟ أخانت أمها والدها أم العكس أم تبادل الزوجان الخيانة؟ لماذا احتفظا بزواجهما من دون أن يقدِما على الطلاق؟ أهناك سرّ أو أكثر يجمع بينهما، ويقيِّدهما بالأحرى؟ لا تحسن فيرا الجواب عن أيٍّ من هذه الأسئلة، ولم تجد ما يخفف من وطأتها عليها، بعدما حاولتْ أكثر من مرة مع والدتها، وأفراد عائلة جدها لأمها، أو مع والدها نفسه، في المرات القليلة التي التقت به، التعرف على هذا الوادي السحيق الذي تقف حياتها فوق جنباته.

هذا ما شغلَها لبعض الوقت، في سنوات المراهقة، إلا أن أسئلتها تحولت إلى غضب عارم ضد والدها، إلى قطيعة معه. هذا ما كانت تعود إليه كلما وقعت في مشكلة كبيرة، باحثة في الوادي الكبير عمّا له أن يتكشّف عن أسباب فشلها في الزواج مثلاً: أهي سيرة الوالدين تتكرر معي؟ هذه الأسئلة عادت بقوة بعد وفاة والدتها، وبعد عرض الصور الفوتوغرافية على والدها، من دون أن تلقى أيّ جواب شافٍ منه: لا أعرفه أبداً... لا أذكر تماماً هذه الثياب... لا أعرف إذا كانت تعود إلى فترة عيشنا معاً أم إلى فترة ما بعدها...

طالبتْني فيرا بالجلوس على مقعد خشبي في أحد جنبات الطريق على مقربة من حديقة عمومية، فما رفضت، على الرغم من تأكدي من تقدم الساعة. إلا أنني لم ألتفتْ إليها خشية انتباهها لحركتي، ما قد يدعوها إلى إيقاف ما تقول. بعد جلوسها، سحبت حبة من علبة

معدنية في جزدانها، ثم بلعتها، ثم دارت بجسمها نصف دورة، وحدقت في وجهي ملياً: هل نعمتَ بحب الوالدين؟ أجبتُها بالإيجاب، فقالت: أنا، لا. ساكنتُ أمي، وافتقدت دائماً والدي... جدتي كانت الأقرب إلي. كانت أمي وصديقتي ومستشارتي، حتى إنني كنت أنظم معها نزهات مختلفة في ستراسبور... قدتُها ذات ليلة إلى أحد نوادي الرقص في ضاحية المدينة. فيما لم أنعم بالعيش مع جدي طويلاً، وقد دهسته سيارة مسرعة في «المرسى» في ضاحية تونس...

لما سألتها عن والدها، عن صوره ووثائقه في شقته، هزت برأسها: أتعلم، كنت أظن أحياناً أنني أحتاج إلى دروس في علم الآثار لكي أنقب وأفحص في تاريخ والدي؟ كان معروفاً، بل مشهوراً، خصوصاً بعد أن تمَّ انتخابه عضواً في «أكاديمية النقوش والآداب الجميلة»، ولكن مثل علم فوق مبنى رسمي... تصورْ، عرفت بخبر انتخابه بعد وصوله إلى الجريدة... علاقتي به تحسنت بعد وفاة والدتي، فكان أن دعاني إلى العشاء أكثر من مرة، كما أسرَّ إلي، بناء لطلبي، عن بعض أخبار طفولتي التي لم أكن أكيدة منها، إذ إنني لا أحتفظ بشيء عن السنتين الأولين اللتين عاشهما معنا. كما أن ما أخبرني به لا يتعدى الحديث عن تعثري في المشي، أو في النطق، متوقفاً خصوصاً عند انضباطي الشديد في النوم، إذ كنت - على ما قال - أذهب إلى الفراش من دون اعتراض في تمام السابعة مساء، فيما كان يحلو له قراءة إحدى القصص على مسامعي... أفراد العائلة كانوا قد أخبروني عن ولعي بالقصص، وعن اهتمام أبي بذلك معي. هذه القصة، «علبة الشمس»، لا تزال موجودة في البيت، أعادها لي ذات مساء، فسألتُه: لمَ أخفيتَها كل هذه

السنوات؟ لم يجب، معتذراً بأنه أضاعها ثم عثر عليها مؤخراً... ربما، المهم أنني أعود إليها في شقته، أفتحها من جديد، أقرأها بصوت مهموس، أضع إصبعي حيث كان يضع إصبعه، كما لو أننا نتلاقى بعد مضي السنوات بيننا. هذا ما أفعله مع كتب أخرى في مكتبته، إذ أعود خصوصاً إلى عدد من القواميس التي وجدتها، وهي مقفلة وواقفة في الرفوف، تميل إلى لون معتم بدل لونها الأبيض، لما فعلتْه أصابعه فيها.

عدنا من جديد إلى حيث أوقفتْ سيارتها، بعد أن درنا في شوارع مختلفة ما لبثت أن قادتنا إلى قرب «مائدة لويز». هكذا أقلتني بسيارتها إلى شقتي، وقبل أن أفتح الباب للنزول، طالبتني بالاقتراب منها. ولما اقتربت نظرتْ إليّ بعينيها الخضراوين الساحرتين، وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة: أتعلم، بتَّ، الليلة، جزءاً من عائلتي؟ ثم دنت بوجهها مني، وقبّلتني على خدي: أراك في وقت قريب... شكراً لفضيلة الاستماع لديك، إذ إنها مكّنتني من قول ما لم أقله لنفسي إلا بالسر، أو ما لم أقله، بل قادني الكلام إليه... ليلة سعيدة، وإن بتنا قريبَين من طلوع الفجر.

أرتاح في صورة مزيدة لإلقاء محاضراتي الأسبوعية. لم أعد أتعثر في نطق الفرنسية أحياناً. هذا ما أربكني في غير مرة، وجعلني أتردد وأستعيد جملتي أو أعيد ترتيبها من جديد، بل قلت لزميلي البروفسور هيبوليت: أحتاج إلى طبيب يعيد تنظيم فكي من جديد، فلا أتعثر في النطق بين اعتيادات النطق في العربية، المعتاد عليها، واعتيادات النطق بالفرنسية في صورة ناشئة في ستراسبور. خففَ

هيبوليت من شعوري بالضيق، وأخبرني أنه يعايش الأمر لما ينتقل للحديث بالإنكليزية، هنا أو هناك، بل حتى بالألمانية، لغته الأم. . . ثم أردف ضاحكاً: نحن كائنات لغوية، لكننا ننتقل بين اللغات عبر الكتب، لا عبر سبل العيش. . . ألا تلاحظ، أننا، أنا وأنت، نتكلم فرنسية متأتية من الكتب، من الورق المطبوع، لا من الألسن؟

محقٌّ في ما قاله هيبوليت، إذ تحققت، لا في بيروت ولا في تونس، بل في ستراسبور، من أن الترجمان يعتني بالألفاظ، لا بالكلام، ويعتني بالجملة لا باندفاع السيل اللغوي الحيوي. انتبهت إلى كونه ينتقل في مساحة واحدة بين جهة وأخرى، بين موقع وآخر، ووجدت في صورة سمعتُها من مخرج سينمائي على قناة «آرتي»، ما يناسب وضعية الترجمان: بعض السينمائيين يقف خلف الكاميرا وأمامها في المساحة عينها، وهو ما يحصل للترجمان، إذ يتنقل في الكتاب الواحد، ولا سيما في الرواية، بين كاميرات وزوايا نظر عديدة، وله أن يترجم لغات مختلفة، متأتية من أناس مختلفين، من جهة ثقافتهم وتحصيلهم اللغوي وكفاءتهم في التعبير والسبك والمحاورة. . .

هذا ما كان يُتاح لي خصوصاً مع كريستين، مساعدتي الإدارية، إذ كنت لا أخشى معها التعثر في الكلام، عدا أنني كنت أتنبه إلى الألفاظ المختصرة التي تستعملها في المحادثة، أو إلى دخول ألفاظ مختصرة من الإنكليزية بدورها إلى كلامها. قلّما كنا نتحادث، إذ تنصرف إلى عملها، وهي مواظبة عليه بكل جدية، حتى إنني تفاجأتُ لما أخبرتني بأنها قد تنتهي منه بعد أقل من أسبوعين. لم نعثر على رسائل مزيدة، بل على بعض الصور الفوتوغرافية، بالأسود والأبيض

وملونة، وتعود في الغالب إلى مشاركات البروفسور في مؤتمرات ومحاضرات، على ما أمكنني التكهن. فيما وقعت على صور أخرى، شخصية بحتة، يعتمر فيها البروفسور قبعة قش، ويرتدي ثياباً مناسبة للعمل في ما قد يكون حفائر آثارية، على ما رجحت. واستوقفتني خصوصاً صورة من بينها، بالأسود والأبيض، يظهر فيها البروفسور أمام ما قد يكون غابة أرز: أيكون قد زار لبنان، وغابته القريبة من قريتي؟

البارحة تحديداً قلت لنفسي: مشاكستي الإلكترونية قد تكون كريستين نفسها، بعد أن تنبهتُ لجسمها، وهي تعلو فوق درجات السلم العالي الواصل بأعلى رفوف المكتبة. كانت تلبس جينزاً كعادتها، وكان مشدوداً إلى مؤخرتها، بحيث يبدو تكوينها في أحلى تجلياته. مؤخرة متكورة مثل فلقتي تفاحة، شبيهة أو قريبة من الصور القليلة التي كشفت إلكترونياً عن أجزاء من مؤخرتها، متحققاً من أن اللون في الصورة يشبه سحنة كريستين المائلة إلى السمرة. ولما ناديتها: شهرزاد، شهرزاد... أدارت رأسها صوبي، وسألتني بكثير من الجدية: مع مَن تتكلم، يا أستاذ؟

ماذا لو كانت مشاكستي هي الطالبة الإيرانية، التي استقبلتُها في عداد طالبي العمل الإداري، وتضايقتْ من كوني لم أخترها للعمل، على الرغم من حاجتها إليه؟ ماذا لو كانت سعاد الجزائرية على الرغم من كونها ذات سمرة شديدة، ما لا يناسب الصور تماماً؟ ماذا لو كانت هذه أو تلك، طالما أنني لا أبادلها أي كلام، وأي صورة؟ لم تعد الصور الإلكترونية تثيرني أو تستفزني على أي حال، بل رحت أقفل حسابي تماماً لما تبادر شهرزاد إلى فتح نافذة التواصل بيننا. فهناك في قنوات التلفزيون، وعلى بعض مواقع التواصل، من

الأفلام والصور المثيرة ما يحرض مخيلتي، ويشحذ قواي الجنسية، فضلاً عن أن صور دانييلا باتت تراودني من جديد، عنيفة وصادمة، على الرغم من كوني حلمت بها قبل أيام ثلاثة، وهي تستلقي إلى جانبي في أرجوحة معلقة بين شجرتين في حديقة لم أرها سابقاً. ماذا أفعل بدعوة دانييلا لتمضية أيام معها في فيينا؟ ما تعني دعوتها؟ لماذا حددتْها في منتصف شهر فبراير، بعد أقل من شهر؟

بتُّ على معرفة مزيدة بطلابي، وقد تقدمتُ في توجيه بعضهم في بحوثه، وفي ما لكلّ واحد منهم أن يعرضه كإسهام للنقاش في الصف، بل استفدت من نصيحة البروفسور هيبوليت، إذ عمدت إلى توجيه البحوث في وجهات تجمع لي على الأقل بعض المواد التي أحتاجها في درس «**ألف ليلة وليلة**»، إن لم تفدني في بعض التوصلات البحثية. وهكذا كان: طلبت من كريستين، المتمكنة من التوثيق، أن تُعدّ ورقة حول «مخطوطات» **ألف ليلة وليلة**، ومن صِدِّيقة الإيرانية تهيئة بحث عن الجانب الإيراني منها، فيما وجهت حسونة، الطالب التونسي، صوب الأدب العربي القديم لمعرفة مكانة «**ألف ليلة وليلة**» فيه، وعبد الجبار، الطالب المصري، صوب الجانب المصري منها، فيما طلبت من فريديريك إعداد بحث عن صِلاتها بالسرد العربي القديم... هذا ما سيساعدني من دون شك، فيما أنصرف إلى فحص «يوميات» أنطوان غالان، المترجم الأول، التي وقعتُ على نسخة منها في باريس، ثم تدبرت نسخة إلكترونية لها صالحة للعمل، قبل أن أنصرف إلى فحص جزء من ترجمته ومقارنتها بالمخطوط الذي عاد إليه في عمله. تدبرتُ كل شيء لهم، فيما لم أتوصّل إلى شيء جديد بخصوص تركة البروفسور الثقيلة على ضميري. لماذا لا أخبر فيرا، وقد اشتدَّت أواصر العلاقة بيننا، عن

حقيقة الرسالتين القاتلتين؟ ألا يجب أن أدعوها بدوري إلى عشاء؟ أأدعوها إلى بيتي، وأنا لا أتوصل بعد، على الرغم من تحسني في إعداد بعض أطباق الأكل، إلى ترتيب مائدة لائقة؟

مفاجأة كانت تنتظرني في المطعم الجامعي في المساء، ما أن وصلتُ إلى خدمة الأطباق، التي توزّعها ثلاث سيدات وراء الفاصل المعدني بين جهة الموائد وجهة المطبخ. إحداهن استوقفتني، وأخبرتني أن فضيلة تبحث عني لغرض عاجل. وما أن جلستُ وحدي إلى طاولة غير بعيدة عن المطبخ، حتى وجدتها تقف أمامي، وهي تضع الغطاء البلاستيكي الخاص بمُعدِّي الطبخ فوق رأسها. بعد أن استأذنتني بالجلوس، سألتني عن أسباب غيابي، ما دعاني إلى التعجب من دون أن أتفوه بأي كلمة: أكنتَ مريضاً؟ ولما أجبتها بالنفي، سألتني: هل يمكنني محادثتك في أمر عاجل يخصني؟ ولما أجبتها بالإيجاب، استكملت حديثها: لا يمكنني محادثتك هنا، عدا أن وجودي معك على طاولة قد يزعج سمعتك، فضلاً عن أنه ممنوع علينا الانتقال بعد الفاصل المعدني.

اتفقتُ معها، وفق اقتراحها، على أن نلتقي يوم غد مساء، بعد الساعة الثامنة، عند الانتهاء من عملها، على المقعد الخشبي غير البعيد من شقتي، حيث التقينا ذات مساء مصادفة. لم يُتح لي الوقت للتفكير في ما يحدث لي، حتى وجدت كريستين قد اقتربتْ مني حاملة صينية الأكل، مستأذنة بالجلوس إلى طاولتي. هي طلبت الإذن، لكنها جلست قبل أن تسمع جوابي، إذ إنني لم أجب واقعاً، بل قلت كلاماً مبهماً، ما أحدث صوتاً من دون كلام بيِّن. جلستْ

وعلى شفتيها ابتسامة عريضة، تشير إلى تواطؤ سابق أو محتمل: مَن تكون السيدة الجميلة التي حادثتك؟ أهي صديقتك العربية؟

رفعتُ رأسي عن طبق الأكل، ونظرت إليها نظرة مستغربة: إنها عاملة في المطبخ، كما تعلمين من دون شك، وكما يوحي لباسها، أليس كذلك؟

راحت كريستين تتلفظ بجمل متعثرة ومتداخلة، من دون أن أفهم ما تقوله، ولا ما ترمي إليه. كانت فجأة فتاة أخرى، غير التي أعرفها، والتي اعتدتُ عليها، برصانتها وجديتها ومثابرتها على العمل. إلا أن هاتفي النقال أنقذني، إذ قمت عن الطاولة وابتعدتُ عنها، بعد أن تعرفت على صوت دانييلا. كانت تريد جواباً قاطعاً عن قبولي الدعوة، فأجبتها بالإيجاب، من دون أن أعلم حينها ما إذا كنت أنقذ نفسي من كريستين أم أقع في أسر دانييلا من جديد. كنت أراجع كلامها جملة جملة، وقد حدثتني من كابينة عمومية، على ما تحققت، بعد أن أعدتُ طلب الرقم نفسه، وسماعي لرسالة ألمانية مسجلة. كما انتبهت، بعد انتهاء المكالمة، إلى أنني خرجتُ من المطعم من دون أن أنهي أكلي، ومن دون أن أعيد الصينية إلى مكانها للتنظيف في المطبخ الجامعي.

كنت أتقدم بصعوبة في المشي، على الرغم من كوني قد سرتُ فوق الطريق عينها مرات ومرات، إذ كنت أراجع جوابي لدانييلا الذي أتى إيجاباً من دون أن أكون قد أبلغتها إياه إثر تفكير سابق. أكنت أشتاق إلى رؤيتها من حيث لا أدري أم لا أريد أساساً الإقرار بذلك؟ أم أنني أرضخ لطلبها، لضغطها، بطريقة أخرى هذه المرة؟

ما أن وصلتُ إلى البوابة الأساسية، حيث يقع مكتبي، بادرني أحد الموظفين بالقول إن كريستين تبحث عني، مرفقاً قوله بابتسامة لم أدرك معناها ولا سببها. وما أن طرقتُ باب سكرتيرة الدائرة لتحيِّتها، كما أفعل كل صباح، في أول الممر الواصل إلى مكتبي، حتى بادرتني بعد التحية: كريستين تبحث عنك، إذ تريد إعادة معطفك إليك.

ما قصة المعطف؟ عن أي معطف تتحدث؟ وكيف لها أن تعيده إلي؟ لم أستكمل مسلسل الأسئلة، إذ وجدت كريستين تلاقيني على بُعد خطوات من عتبة مكتبي، وهي تحمل بيدها اليمنى معطفي الرمادي. لم أسمع ما قالته لي، وأنا أُقدِم على فتح باب مكتبي، إذ كنت أراجع ما حدث بالأمس. لم أبقَ في المكتب، بل طالبتها بتأجيل عملها، لأن أمراً طارئاً يقضي بوجودي خارج المكتب. وهكذا كان، إذ تحجّجت بجلب أوراق من درج مكتبي، ثم أقفلت الباب، من دون أن أنظر إلى وجهها.

استعدتُ معطفي منها، وقد نسيته بالأمس في المطبخ الجامعي إثر تلقي مكالمة دانييلا، وخروجي المباغت من المطعم. تمشيت وتمشيت مرتاحاً لنسائم الهواء الباردة من دون أن أنتبه لغيابه. ولما عدت إلى شقتي، لم أنتبه لذلك، بل أعددتُ ثيابي لليوم التالي، كما أفعل كل يوم. أتكون فضيلة هي التي بلبلتني، أم دانييلا، أم كريستين؟ أم هن معاً؟ أم كنت أتهرب من إحداهن لأقع في حبائل الأخرى؟ الحادثة تافهة لا تستحق مثل هذه المراجعة مع النفس، إلا أنها تحدث معي لأول مرة. ذلك أنني تنبهت منذ وصولي إلى ستراسبور إلى وجوب أن أكون يقظاً للغاية خارج البيت، في الأمكنة العمومية، خشية السرقة أو الغفلة. هذا ما شددَ عليه والدي قبل

انتقالي إلى فرنسا، متذكراً السرقة التي أصابته ما أن خرج من مطار مدينة البندقية، وركوبه «الفابوريتو»، المركبة المائية الواصلة بين رصيف المطار وفندقه قرب «ساحة سان ماركو»: ما أن وصل يومها إلى الفندق، حتى فتح حقيبته الجلدية الصغيرة لكي يستخرج منها أوراق الحجز، فإذا به يجدها خالية من المحفظة الصغيرة التي تحوي أمواله وبطاقة السحب المالي وجواز سفره اللبناني... لحسن حظه استعاد جواز سفره بعد أقل من ساعتين، إذ اتصلت بإدارة الفندق دائرة الشرطة التي تعنى بالمحفوظات، بالمفقودات، أي بما «تبقى من السرقات»، كما كان يحب أن يقول ويردد على مسامعي. كان يتمنى سرقة جواز سفره، الذي ما كان يعني في ذلك الوقت سوى الذل له، لما تحقق من استقبال الكلاب البوليسية له ولغيره من الركاب، بمجرد نزوله من طائرة «أليطاليا»، قبل موظفي أمن المطار وعمال الحقائب. استعاد، يومها، جواز سفره من دون الألف دولار، فيما كانت قد تأكدت إدارة الفندق من أنه هو الشخص المعني بالحجز، وقد قامت شركة سفريات لبنانية بحجز الفندق وبدل الإقامة لخمسة أيام.

كانت رحلته الوحيدة، وكان في الثانية والأربعين من عمره، في رحلة تدبّرتها «إدارة المدارس الكاثوليكية» له ولعدد من زملائه المختارين، بينما لم أتجاوز بعد الثانية والثلاثين من عمري، وقد قمت بأكثر من رحلة إلى تونس وباريس وستراسبور وغيرها، من دون أن أفقد شيئاً ممّا أحمله معي في أسفاري. إنها المرة الأولى، وقد حدثت في غفلة مني. لم تسرق فضيلة، ولا دانييلا، ولا كريستين، معطفي، بل أنا الذي أضعته، بل نسيته فوق طاولة أكل. كانوا سيعيدونه إليّ من دون شك. وهو ما قامت به كريستين، فلماذا أغضبُ منها؟

وجدتني واقعاً في لحظة ضعف أمامها. ما زاد منه هو شعوري بأنها كانت تسخر مني في داخلها... لا، بل أكثر من ذلك: كانت توحي لهذا أو تلك بأنني نسيت معطفي معها، أي أنها تعيده لي بعد أن نسيته حيث كنت معها، في اليوم السابق، بل في الليلة السابقة. أم تريد إظهاري في هيئة الأستاذ الغافل؟

كنت أروح وأجيء في المساحة الصغيرة الواقعة بين النافذة والمكتب في صالون شقتي، وتتناوبني هذه الأسئلة وغيرها، ما يزيد من حرجي المستلحق، إذا جاز القول. إذ كنت أعيش بعد وقت مشاعر كان لي أن أعايشها، أو لا أعايشها، عند حصولها، فإذا بي أتحقق من كوني ضعيفاً، تجتاحني الأسئلة المربكة من كلّ صوب. هذا ما أشعر به للمرة الأولى، ومنذ سنوات بعيدة، فأجدني زائغاً، لا أحسن تقدير الموقف.

جلست إلى مكتبي، انتزعت ورقة من طابعة الحاسوب، وكتبت أسماء: دانييلا، فضيلة، فيرا، كريستين وشهرزاد الإلكترونية. ورحت أكتب إلى جانب كلّ اسم ما تكون عليه علاقتي معه. مزّقت الورقة، واستعدت أخرى، قبل أن أمزقها من جديد، متنبهاً إلى فساد هذه الطريقة. كيف لي أن أكتب عنها، وأنا لا أتبين حقيقة مشاعري من كلّ واحدة منهن. مع ذلك وضعت اسمي: فضيلة وفيرا على جنب، إذ كانت تميل علاقتي بهما إلى الوضوح، وإلى نوع من المودة التي تجمعني بفيرا، وإلى نوع من الشفقة ربما بفضيلة.

ما زاد من شعوري هذا تجاه فضيلة تحديداً، هو ما حصل لي معها في المساء، في الموعد المضروب. إذ وجدتها تنتظرني، وطلبتْ مني أن نتمشى بدل الجلوس في هذا المكان «المكشوف»، كما قالت. كانت فضيلة تضع منديلاً فوق رأسها، من دون أن يخفي

القسم المتقدم من شعرها الأسود، من دون أي ماكياج على الوجه.
كانت مرتبكة في ما لها أن تقول، واعتذرت أكثر من مرة لما ستقوله لي. خلاصة الأمر أنها طلبت مني ما إذا كنت أرشِّح لها أحداً للإشراف على دروس ابنتها الوحيدة بالفرنسية: كان في مقدوري فعل هذا الأمر في الصفوف الابتدائية، إذ كنت أراقب خطّها، والقراءة، وتركيب بعض الجمل البسيطة، أما اليوم، في الصف الخامس، فما عدتُ قادرة على مرافقتها ومساعدتها... إنها تطرح عليّ أسئلة لا أحسن فهمها، فكيف بالجواب عنها! تطرح أسئلة عن أدباء وكتاب فرنسيين لم أسمع بأسمائهم، فكيف بتحليل كتاباتهم... وعند سؤالي لها عن سبب توجّهها صوبي، توقفتْ عن المشي، ونظرت إلى وجهي نظرة كسيرة زادت من لمعان عينيها السوداوين: تصورْ، أنها سألتني قبل ما يزيد على الأسبوعين عن: رامبو، فأجبتها بأنني تعرفت عليه في أحد الأفلام. ولما شرحتُ لها بأنه مقاتل أميركي في الحرب الفيتنامية - الأميركية، انفجرتْ من الضحك، وانسحبتْ بكتابها ودفترها إلى غرفتها... برَبكَ، من يكون رامبو هذا؟!
كانت فضيلة تكرُّ جملها بتتابع حار وحيوي، فيما كنت أنظر إلى شفتيها المكتنزتين، لما تلتفت صوبي. كانت هي التي تتدبر سبل السير، متجنّبة - على ما لاحظت - الشارع العريض، مختارة الشوارع الداخلية بعد الخروج من ناحية «الإسبلاناد». كانت ترمي حيرتها على أكتافي، وتدعوني إلى مساعدتها، متسائلاً في سري ما إذا كان في مقدور، أو في رغبة، أحد طلابي، أو طالباتي خصوصاً، القيام بمثل هذه الساعات التعويضية.

كريستين تغيرت. هذا ما قلتُه في سري، وأنا أتحقق من تغيُّر أصاب هيئتها، إذ وضعت هذا الصباح أحمر شفاه على شفتيها. كانت تنتظر أمام مكتبي، حاملة، بل ضامّة إلى صدرها بضعة كتب. خرجتُ من مكتبي ما أن دخلتْ إليه، ولما استوقفتْني قبل الخروج قائلة بأنّ لها أن تحادثني في أمر، طالبتها بالانتظار إلى حين عودتي من مكتب البروفسور هيبوليت، زميلي وجاري. في الواقع لم أجده في مكتبه، ولا مدير الدائرة، فيما رحت أتنقل في الممر الطويل، بين المكاتب، من دون أن أتوقف عند أي منها، ومن دون أن أسأل عن أحد بعينه. هل أريد مشورة أحدهم في تدبير مساعِدة تعليمية لابنة فضيلة، أم أريد التباسط معه في ما يحدث لي ويجعلني مرتبكاً؟ ذلك أنني كنت أشبه بمن يستفيق من حلم مزعج، بل من كابوس، من دون أن يعلم حقيقة معناه، وما إذا كان صادراً عن ضغط متزايد أخرج الصور الكريهة بالتالي من أمكنتها المعتمة.

هذا ما لاحظَتْه والدتي بمجرد تبادلي معها بضع كلمات، إذ استوقفتني قائلة: ما لكَ؟ ما يحدث لكَ؟ لمّا أنكرت حدوث أيّ شيء مزعج أو مقلق، أجابتني بثقتها المعهودة: أعرفك زيادة لكي أنتبه إلى نبرة صوتك... كان لك أن تمضي أيام العطلة إلى جانبنا... كان هذا سيخفف من شعورك بالغربة، بالفقدان، من دون شك. لما أجبتها بأنني لم أجد، لا في كلام والدي، ولا في كلامها، عند إخباري لهما بعدم مجيئي إلى لبنان، أي دعوة حارة للمجيء، أجابتني: نخاف عليك، يا بني، ليس إلا. خفَّ مسلسل الخطف، لكن التفجيرات تزايدت، ولا سيما على طريق المطار... لا نزال من دون حكومة منذ شهور... أنت تتابع ذلك من دون شك.

كنت قد انقطعتُ عن متابعة أخبار لبنان، لما كنت فيه، فكيف

وأنا مرتاح لابتعادي عنه. كنت بعيداً عن أسباب التفجير والخطف، في بيتنا، أو في جامعتي، حيث درَستُ ثم ما لبثتُ أن درَّستُ بعض المقررات التدريسية. إلّا أنني ما كنت لأبتعد عنها في المساء، ابتداء من الساعة السابعة مساء، بعد العشاء، حيث يجلس والدي ووالدتي أمام التلفزيون بجدية بالغة يتابعان حصيلة اليوم، فوق أكثر من شاشة، وفي الوقت عينه أحياناً. كان والدي يتحقق، بعد انقضاء الحرب، من صعوبة الحلم الذي طالما راوده، وهو طالب جامعي ناشط في «حركة الوعي»، وهو قيام لبنان بعيدٍ عن الإقطاع السياسي، كما كان يحبّ أن يقول ويردد على مسامعي.

تركت لبنان قبل أن أتركه. هذا ما كنّا نتحادث حوله، ونحن طلبة: المهم أن نتدبر اختصاصاً يتيح لنا العمل والسفر إلى أوروبا أو أميركا. لهذا اخترت اختصاص الترجمة، وهو ما لم يجد اعتراضاً من والدي، الذي كانت له ميول أدبية صريحة.

تركت لبنان في الواقع أكثر من كوني طلبت المجيء إلى ستراسبور. تركته ولو لسنة واحدة فقط. كنت أمضي الوقت في ترصد المنح المتوافرة في الجامعات الفرنسية لما بعد تحصيل شهادة الدكتوراة، وتقدمت بترشيحي إلى أكثر من جامعة، إلى أن نجحت في الفوز بمنحتي الحالية.

خففتُ عن والدتي قلقها، وأخبرتها بأنني مصاب بزكام حاد، ما جعل صوتي مختلفاً. وهو ما شعرت به فعلاً منذ استيقاظي صباحاً، على الرغم من أنني لم أنم نوماً مستقراً منذ ليلة ما قبل أمس. أأصابني البرد لمّا خرجت من المطعم الجامعي من دون معطفي وتمشيت لبعض الوقت من دون حماية كافية؟ كنتُ قد بلغت في تنقلاتي المبنى الزجاجي لمقر «الاتحاد الأوروبي»، من دون أن

أقصده، فإذا بي أتنبه إلى أنني تركت كريستين في مكتبي، من دون أن أعود إليه، وهي لا تملك مفتاحاً له. وما أن وصلت إليه، وجدته مقفلاً، ولما سألت السكرتيرة عمّا جرى، أخبرتني بأن كريستين اتصلَت بها وطالبَتْها بإقفال المكتب إلى حين عودتي. ولكن ماذا فعلت كريستين في مكتبي، وفي غيابي؟ ألا تكون قد تصيدت أخباراً أو أوراقاً فيه؟ لماذا التشكك فيها، وأنا لم ألحظ أي سلوك مريب منها؟ لماذا تبدو الأمور مريبة على هذه الحال في هذه الأيام؟ أهو التعب الزاحف، أم موجات الزكام التي تدبّ في أوصالي؟

كدت أخرج من مكتبي على عجل، مثلما فعلت صباحاً، من دون أن أنتبه إلى بطاقة الدعوة التي تركتها كريستين فوق مكتبي، وهي تدعوني فيها إلى مناقشة حول مسألة «زواج المثليين» المتفاعلة في فرنسا. ما علاقتها بهذا الجدل كله؟ أهي مثلية بدورها؟

للمرة الرابعة أو الخامسة أعود إلى الحمام، وأنظر إلى وجهي في المرآة. ما له وجهي يتغير، بين مرة وأخرى؟ ما له يعتكر؟ ما لي أبدو غاضباً؟ ممَّ غضبت، وأنا لا أجد سبباً بيِّناً لذلك؟ أرى بقعاً مختلفة في وجهي، بين حمراء قانية وأخرى خفيفة الحمرة. هل ضربني أحد في حلبة ملاكمة من دون أن أعلم بذلك؟ أحدق ملياً في قسمات وجهي، في تعابيره، كما لو أنه شاشة، أو لوح ترجمة لما يعتمل في داخلي. لا يمكن أن أقرأ علامات جسمي، ولو أنني أشعر بالتعب المزيد من جراء الزكام. إلا أنه زكام جاف، كما علمتني أمي، من دون حرارة، لكنه يحتاج، هو الآخر، إلى أدوية وراحة وماء.

أحدق في وجهي، كما لو أنني، أنا بنفسي، أطلب معرفة ما

يدور في نفس وجسد شخص آخر، ماثل لناظري في المرآة، مثل ممثل فوق خشبته. ذلك أنني تحققت، منذ أن قررت عدم الخروج من الشقة، والخلود إلى الراحة، من أن معركة أخرى تدور في نفسي، غير الزكام، ولا أعرف بين مَن ومَن تدور، ولا أي الأثمان أو الأهداف المرجوة منها. أيعقل أن يربح واحد على آخر في الحيز نفسه، في هذا الجسد الضئيل الذي أشعر بأنه هزيل، ومنهك؟ كيف له أن يحتمل هذا العراك، هذا التزاحم، فوق مقعد واحد؟

كنت أعود إلى المرآة بعد أن أشعر على الكنبة، أو في السرير، بأن أحداً قد ظهر فجأة، بأنه سبقني إلى حيث أنا ملقى، فوق الكنبة أو السرير. أهرع إلى المرآة طلباً لرؤيته، وجهاً لوجه، فلا أجد أحداً سوى عينين مجهدتين تحاولان سبر ما يقع خلف الجلد، وخلف التعبير الماثل. تحاولان حفر المرآة، أو مسام الجلد نفسه، لمعرفة مَن يختبىء فيه، مَن بات حضوره أكيداً، على الرغم من تخفيه. ذلك أنني ما كنت أسمع كلماته بوضوح، بجلاء. كنت أسمع دبيب كلامه الرازح والمتتابع، لدرجة أنني كنت أعلو بصوتي أحياناً، لما يشتد دبيبه الزاخم، وأتفوه بعبارات نابية لإسكاته، أو للتوقف عن هذه المواجهة الخبيثة. كنت أدعوه للظهور، للمواجهة الصريحة، فيما تحققت، في مرة تاسعة أو عاشرة، من أنه غلبني، إذ وجدت وجهاً غير وجهي يحتل مكاني في مرآة الحمام.

كانت الساعة قد شارفت الثانية في فجر اليوم التالي لمّا استيقظت على الكنبة، فسارعت إلى الحمام، إلى المرآة، ونظرت إلى وجهي، فلم أجدني قد تغيرت فعلاً، مثل الوجوه المتغيرة في رواية فرانز كافكا العجيبة. إلا أنني خرجت من الحمام، مع ذلك، وأنا أشعر بأنّ ما يشبه النمل الصغير يتمدّد فوق جلدي.

أسرعت إلى المطبخ هذه المرة، تدبّرت شراباً ساخناً، على أن أشربه - كما علمتني أمي - ساخناً للغاية. وهكذا كان، ثم سارعت إلى تدبر كتاب لإلهاء نفسي عن نفسي. وجدت «يوميات» غالان جاهزة تنتظرني. حاولت جاهداً القراءة فيها، من دون أن أقوى على ذلك. ثم توقفت عن ذلك.

قلّبت بين كتبي المعدودة، فلم أجد فيها ما يسلي فعلاً، إلى أن وقعت على دفتري، في الجامعة اليسوعية، التي احتفظت بين دفتيه بمقاطع كانت تحلو لي من رواية «التربية العاطفية» لغوستاف فلوبير. عدت إلى الرواية، وأنا في سنتي الجامعية الثانية، وقد سمعت من أحد أساتذتي أنها أجمل روايات فلوبير، وأنها ترسم المسار العاطفي لفريديريك بعد بلوغه الجامعة، وتنقله في أحوال عاطفية مختلفة بين أكثر من سيدة. عدتُ إليها، وراقت لي قراءتها، حتى إنني رحت أتماهى مع شخصية فريدريك نفسها بين جديته وترفُّعه وفيضان عاطفته الجياشة التي لا تتنبه لها السيدة أرنو إلا بعد وقت بعيد. عدت إلى الرواية، وقد أصبحتُ بعد عدّة سنوات أستاذاً للترجمة الأدبية في جامعتي نفسها، فدعوتُ الطلاب إلى ترجمة مقاطع منها. وقد احتفظت في هذا الدفتر ببعض ممّا ترجمت:

«كان ذلك أقرب إلى الظهور العجائبي:

كانت (السيدة أرنو) جالسة في وسط المقعد، وحدها (. . .).

في الوقت الذي كان يمر به أمامها، رفعت رأسها؛ فكان أن انحنى بعض الشيء بكتفيه؛ ولما ابتعد عنها، في الجهة نفسها، رفع نظره إليها (. . .).

بما أنها كانت تحتفظ بالوضعية نفسها، قام بعدّة حركات يميناً ويساراً من أجل إخفاء مناورته؛ ثم حطّ على مقربة من مظلتها،

الموضوعة إلى جانب المقعد، ثم أظهر كونه مشغولاً برؤية قارب في النهر.

لم يحدث له أبداً أن رأى هذه الروعة التي في جسمها الأسمر، والغواية التي في قامتها، ولا هذه النعومة التي في أصابعها، التي تتسلل الشمس من خلالها. كان ينظر إلى سلة الخياطة بانبهار، مثل شيء عجيب. ما كان اسمها؟ أين كان مسكنُها؟ ما كانت حياتها؟ ما كان ماضيها؟ كان يتمنى معرفة أثاث غرفتها، كل الفساتين التي ارتدتها، والناس الذين تختلط بهم؛ حتى هذه الرغبة في التملك الجسدي كانت تختفي وراء رغبة أشد عمقاً، في نوع من الفضول المؤلم الذي لا نهاية له» (طبعة روبير لافون، التي تشتمل على أعمال فلوبير السردية كلها، والصادرة في العام 1981، ص 247-248).

ومن الدفتر أيضاً المقطع الآتي:

«كانت تقرأ في كتاب، قليل السماكة، وله غلاف رمادي. طرفا شفتيها كانا ينفرجان أحياناً، فيظهر وميض فرحٍ فوق جبهتها. غارَ من الذي اخترع هذه الأشياء التي كانت مشغولة بها. وكلما زاد في تأملها، كلما شعر بنشوء هوّة سحيقة بينه وبينها. فكرَ في أنه سيغادرها بعد قليل، من دون عودة، من دون أن ينتزع منها كلمة واحدة، ومن دون أن يخلف في نفسها أي ذكرى» (ص 249).

انسقتُ إلى قراءة دفتري القديم، بدل «يوميات» غالان. كنت أحتاج إلى قراءة خفيفة مثل هذه، ما يخفف التعب عن عينيّ المجهدتين، عدا أنني ما كنت أمتلك طاقة التتبع والفحص في تلك الكتابة التي ترقى إلى أكثر من قرن سابق على لغة فلوبير، والمكتوبة

بلغة فرنسية قديمة تماماً. كنت أتوقف عند بعض الفقرات المترجمة، وأقفز برمشة عين إلى سنوات بعيدة، إلى ما كان يتخلل الكلمات ويعبرها.

ذلك أنني لم أكن بعيداً عمّا كان يشعر به فريديريك في الرواية، وخصوصاً عمّا يقوم به. لم تكن لي علاقة ثابتة بأي صبية، أو أي زميلة في الدراسة. كنت منجذباً إلى أكثر من واحدة، فيما لم أكن أفهم تماماً ما كنت أقع عليه في أفلام فرنسية من أقوال وتصرفات تتحدث عن أن جيرار ديبارديو لا تعجبه كاترين دونوف لأنها لا تمثل «نمط» النساء الذي ينجذب إليه، بل كانت تحيرني، في أحد الأفلام للممثل عينه، كيف أنه اختار «خيانة» زوجته الجميلة التي تلعب دورها الممثلة كارول بوكيه مع سكرتيرته البدينة والعديمة الجمال، التي تلعب دورها جوزيان بالاسكو. أهناك نمط ونمط من النساء؟ كيف أعرف أن هذه تنتمي إلى نمطي، لا تلك؟ ألي أن أتعلم هذا أم أن أختبره؟ كيف أتحقق من الأمر، ولا تتعدى علاقاتي الجلوس مع إحداهن في المقهى الجامعي، أو المسايرة الخفيفة بين محاضرة وأخرى؟ فريديريك كان له الوقت الكافي لكي يراها من دون أن تراه، لكي يدور حولها مرات ومرات بمقادير من الحذر والخشية، فيما لم يكن متاحاً لي مثل هذا الأمر. ما فعلتُه ذات يوم هو أنني توقفت في «شارع مونو» بعد أن تنبهت إلى ابتسامة إحداهن عند مروري إلى جانبها، هي في اتجاه وأنا في اتجاه. توقفتُ وقد باتت على مبعدة أمتار مني، ورحت أنظر إليها من خلف، وأنتظر ما إذا كانت ستلتفت من جديد وتبادلني الابتسامة أو بعض كلمات...

«كان يقرر زيارتها في أيام بعينها، وما أن يصل إلى الطابق الثاني، أمام بابها، كان يتردد في الضرب عليه. بضع خطى قريبة؛ ثم يتمُّ فتح الباب؛ وما أن يسمع هذه الكلمات: «السيدة خرجت»، كان يشعر بأنه أُنقذ من ورطة، كما لو أن حِملاً على الأقل انزاح عن صدره (...). لم يكن يحادثهم خلال هذه العشاءات؛ كان يكتفي بتأملها (...). كان يعرف شكل كل إصبع من أصابعها. كان يلتذ بسماع الصفير الذي يُحدثه ثوبها الحريري، لمّا كانت تعبر قرب الأبواب، كما كان يتشمم سراً رائحة محرمتها؛ وكان مشطها، وكفوفها، وخواتمها، أشياء خصوصية، مهمة مثل أعمال فنية، تكاد أن تنبض حياة مثل أشخاص؛ وهذه كلها كانت تضغط على قلبه، وتزيد من ولعه» (ص 283-284).

كنت أقرأ، كما كنت أتابع النظر في جهة خافية، أشبَه بمن يحضر فيلمين في الوقت عينه، تماماً مثلما كان يحصل معي في أيام المرض. كانت لأوراق دفتري شاشة صغيرة، مثل شاشة الهاتف النقال، أنتقل بين السرير والرواية والدفتر ومشاهد متفرقة تستدعيها الذاكرة، متتابعة أو متقطعة، فيما كنت أغفو لبعض الوقت وأستيقظ من جديد.

تولهَ فريديريك بها، على الرغم من تردُّده العاطفي الشديد، وخجله المقيم، فيما كنت لا أستقرّ على رأي. كنت أجد أن غيري يتنقّل بيُسر، ويعقد صداقات ظاهرة، حتى إن أحدهم، ممّن كنت أعرف، ما كان يتردد عياناً عن وضع يده اليمنى على كتف زميلتنا هند، في ما يشبه أكثر من إعلان، من «حجز مقعد»، كما في قاعة المحاضرات، إذ كان غسان يسخر معي من مرآهما... كان أقرب

إلى إعلان سيطرة، أشبه بالعمليات التي كان يجريها البعض، عند بداية العام الجامعي، لاكتساب أصوات في الانتخابات الطالبية القريبة.

«حين كان ينتقل إلى «حديقة النباتات»، كان منظر النخلة يقوده إلى بلاد بعيدة. كانا يسافران معاً، فوق ظهور الجِمال، والأفيال، في مقصورة يخت وسط الأرخبيلات الزرقاء، أو جنباً إلى جنب فوق حمارَين لهما أجراس (. . .). كان يتوقف أحياناً في اللوفر أمام لوحات قديمة، وقد كان حبُّها ينقله بشغف إلى قرون بعيدة، فيما كان يُنزلها مكان شخصيات في اللوحات (. . .).

في مرات أخرى، كان يحلم بها، وهي مرتدية بنطالاً من الحرير الأصفر، فوق الطنافس في «حريم»؛ وقد كان كلُّ شيء جميلاً، وبريقُ النجوم نفسها، وبعض الألحان الموسيقية، وقوامُ جملة، أو منحنى، تقوده إلى التفكير بها بشكل مفاجىء، من دون توقف» (ص 293).

كانت الساعة قد شارفت على السابعة صباحاً، لما استيقظتُ ملبياً نداء الهاتف النقال المبرمج. فكان أن عدتُ، كعادتي، إلى روزنامة مواعيدي اليومية، فإذا بي أتحقق من أنّ عليّ إيجاد حلّ لفضيلة، ولابنتها، فضلاً عن لزوم الاتصال بفيرا نفسها، من باب الاطمئنان ليس إلا. هل أتصل بكريستين وأكلّفها بمهمة البحث عن معلمة مناسبة لابنة فضيلة؟ ماذا ستقول؟ ماذا ستعلّق إذ ستعرف أنني مريض؟ أأبحث عن حل فعلاً أم أطلب زيادة في مشاكلي؟

لا يزال الوقت باكراً، ومتاحاً، لإيجاد حلّ. توجهت إلى الحمام، فإذا بي أنتبه إلى أنني لم ألبس بيجامتي أساساً. عدت القهقرى، مرتاحاً إلى كوني لن أتفحص تعابير وجهي. تدبرت مجموعة من الصحون الصغيرة لفطور الصباح، فيما كنت أكرع الشاي الساخن كرعاً، في كوبين متلاحقين.

كنت منهكاً، بل قانطاً، من القيام بأي عمل كان: سأتصل بسكرتيرة الدائرة، وأبلغها عن مرضي، وأدعوها إلى وضع ورقة على باب مكتبي تبلغ عن غيابي. أأغيب عن هذا اليوم، أم عن يوم غد، يوم محاضرتي الأسبوعية؟ وإن غبتُ عن الجامعة، ماذا سأفعل بفضيلة؟

كان الوقت باكراً لاتخاذ أي قرار، وللقيام بأي تبليغ، فيما كنت أتساقط فوق الكنبة متهالكاً، مقبلاً على دفتري بحنان، بل بفقدان غريب.

«كان (فريديريك) يفكر في السعادة التي له أن يحصِّلها في العيش معها، في مخاطبتها من دون تكلف، في أن يمرِّر يده على ضفائرها طويلاً، أو أن يقعد أرضاً، على ركبتيه، فيما ذراعاه حول خصرها، وأن يشرب روحها من عينيها (. . .). غير أنه، من دون الإقدام على أيّ حركة، كان يدور ويدور في مدار رغبته، مثل سجين في زنزانته» (ص 294).

كنت أدور وأدور مستلقياً على الكنبة، فيما تتخاطفني صورٌ هاربة لهند، أو لدانييلا، أو لكريستين. . . كان في ودّي الاختباء في عيني فيرا، أو أن أكون تحت معطف فضيلة، في حمايتها. فأنا

وحدي. قد يصيبني مكروه من دون أن أحسن الاتصال بأحد. حتى رقم الطوارىء لا أعرفه. ولا أملك في حوزتي اسماً أو رقماً لطبيب.

مع ذلك كانت تتنازعني مشاعر من التخدير، من الاسترخاء، تتخللها قفزات سريعة وفجائية من مشهد إلى آخر: في القرية، في بستان تفاح جدّي لأبي، مع عاملة سورية، كانت تلتقط بعض ثمار التفاح المتساقط من أشجاره، لما باغتُّها هناك... جرت الأمور على عجل، إذ وجدتُ نفسي أضغط على جسمها، من دون أن أكون قد نزعتُ ثيابي، ولا هي فعلت ذلك. واعدتُها بالقدوم في اليوم التالي في نهايات شهر سبتمبر، من دون أن تأتي. تنبهتُ لها بعد أيام، في بستان آخر، فما كان منها سوى الابتسام...

«لما جلس (فريديريك) في العربة، في خلفيتها، ولما كانت العربة تتقافز فوق الطريق، محمولة بقوة الأحصنة الخمسة التي تعدو معاً، شعرَ بنوع من السُّكر يجتاحه. كان مثل مهندس يضع تصميماً لقصر، فيرتب فقرات حياته بشكل مسبق. راح يحمّلها مقادير واسعة من اللطائف والروعات، فيما كانت الحياة تعلو وتعلو في السماء؛ هذا ما ظهر في روعة من الأشياء؛ وقد كان تأمله عميقاً للغاية حتى إن الأشياء الخارجية اختفت من تلقاء نفسها» (ص 317).

تنبهتُ، من متابعة أرقام الصفحات المرافقة للترجمة، إلى أنني توقفت عن ترجمتها، متذكراً تذمري، بل تبرمي من متابعة قراءتها، إذ لم أجد في ما يقوم به فريديريك غرامياً وجنسياً ما يعوّض عن فشله

المتكرّر مع النساء عموماً. كان فريديريك يدور حول السيدة أرنو، بل ظلّ يدور حولها، فيما كنت أتشوق لرؤيته مقبلاً عليها، معترفاً لها بغرامه الشديد، بل زاد من تبرّمي كونه، لما نجح أخيراً في الاقتراب الغرامي منها، اكتفى بتقبيلها، وتحدث فلوبير عن «قبلة عميقة». ما تعني القبلة العميقة هذه!؟ هي لا تكفي في الرواية، فكيف في حياتي، وأنا اختطفت قبلاتي الأولى: من العاملة السورية، أو قبلها من زميلتي في الدراسة الثانوية، أو ممّا حظيت من غيرهن من «عمليات الحف»، كما كنت أسميها، أيّ محاسسة الجسد للجسد، ما كان يضجّ بعالم جنسيّ خفي وعارم في الوقت عينه.

لهذا، أمام هذا الحبّ الرومنسي، وجدتني أنتقل في الترجمة إلى الصفحة الأخيرة من الرواية، من باب الأمانة، لا من باب التلذُّذ:

«عندما عادا (إلى البيت)، نزعتْ السيدة أرنو قبعتها. أضاء القنديلُ، الموضوعُ على منضدة، شعرَها الأبيض. كان ذلك أشبه بضربة وسط الصدر.

من أجل إخفاء خيبته، جلس أرضاً قرب ركبتيها، وراح يقول لها جملاً لطيفة، بعد أن أمسك بيديها:

- إنّ شخصك، إن أقل حركاتك، كانت تشكّل لي، في العالم، قيمة أكثر من بشرية. إنّ قلبي، مثل الغبار، كان يرتفع وراء خطواتك. كنتِ تُخدثين في نفسي أثراً هو أقرب إلى ضوء القمر في ليلة صيف (...). ملذات الروح والجسد كانت مجموعة، في حسابي، في اسمك الذي كنت أردّده، ساعياً إلى تقبيله فوق شفاهي. ما كنت أحلم بشيء أبعد من هذا (...).

جلستْ من جديد؛ كانت تراقب رقاص الساعة، فيما كان يتابع سيره، وهو يدخن. لم يبقَ لهما شيء ليقولاه. هناك لحظة، في لحظات الفراق، لا تعود فيها المرأة المحبوبة موجودة معنا (. . .).

قبَّلته فوق جبهته مثل أم.

ثم بدت تبحث عن شيء، وطالبته بمقصّ. فكَّت التسريحة، فتساقط شعرها الأبيض كله.

قطعت، من جذور شعرها، خصلة كاملة:

-احتفظْ بها. الوداع.

لما خرجتْ، فتح فريديريك النافذة. السيدة أرنو، على الرصيف، أشارت بيدها إلى عربة جياد عابرة بالتوقف. دخلت إليها. واختفت العربة.

كان هذا كل شيء». (ص 552-553).

كان هذا كل شيء، فعلاً. مع ذلك، كان يتوجب عليَّ اتخاذ قرارات عاجلة ليومي هذا، ولما سيأتي أيضاً. لماذا «يتوجب» هذه؟ أهي لازمة فعلاً؟ ألا يسعني الفكاك من هذا كله؟ ما تعني هذه الانشغالات المختلفة؟ لماذا يتوجب عليّ الاهتمام بغيري، فيما لا أجد أجوبة أو حلولاً لما أحتاج إليه أو لما يناسبني؟ أليس عليّ أن «أتربى» بدوري؟ كيف أفعل ذلك، ورواية فلوبير رواية عن الفشل العاطفي واقعاً؟ أهذا ما تعلَّمه فريديريك، ولكن بعد فوات كل تجربة واقعاً؟ هذا ما تعلمه ربما قارىء الرواية، لا فريديريك نفسه. أتعلمت منها فعلاً ما يفيدني في حياتي العاطفية والمهنية؟ أليس لي أن أتدبر حلولاً؟

كان موضوع الزواج مؤجلاً في أي حال: كان والداي على

خلاف بينهما، كما في غيره من الأمور. هما على طرفَي نقيض دوماً: ما أن يمسك أحدهما بموقف أو رأي، حتى يتخذ الآخر الموقف الثاني. هذا ما كان يضايقني، إذ يجعلني معرَّضاً لانقسام في مواقفي، بل لانحياز إلى أمي أو إلى أبي. غير أنه ما كان يضايقني في أحوال أخرى، إذ كنت لا أجد حرجاً في التأخر، في التباطؤ، في اتخاذ قرار، كما في الزواج: كان والدي يتعجَّل في زواجي، وأنا ابنه الوحيد، فيما لا تجد والدتي ضرورة للتسرُّع. تجاوزت الثلاثين من عمري، ولا أزال فتى يافعاً في نظرها! أتريد إبقائي في البيت في نهاية المطاف!؟

خففَ مدير الدائرة عني، لمّا اتصلت به معتذراً عن المجيء إلى الدائرة، إلى مكتبي، حتى يوم الاثنين القادم. دعاني إلى عدم الاتصال بأحد، إذ سيتكفَّل بنفسه بإبلاغ سكرتيرة الدائرة لإجراء اللازم، وإبلاغ الطلاب بغيابي.

لم يمضِ وقت طويل على مكالمتي الهاتفية حتى رن هاتفي النقال: كانت كريستين. تمنتْ لي الشفاء العاجل، سائلة ما إذا كان في إمكانها فعلُ أي شيء لي. من أين أتت برقمي؟ أكلُّ مساعِدة إدارية تقوم بمثل هذه الخدمة، وبهذه العناية؟ ماذا أفعل بفضيلة؟ هل أحدِّثُ كريستين عنها، وعما تطلبه لابنتها؟ من أين آتي برقم هاتفها للاتصال بها؟ ألها هاتف نقال أساساً، وهي فقيرة الحال، على ما أظن؟ هل أنتقل إلى المطعم الجامعي القريب، وأنا مريض أساساً، ومتغيب عن الجامعة؟ أكان ضرورياً بقائي في البيت، ولا عمل لي فيه؟

انقطعتُ عن الدخول إلى الحمام، فيما اعتدت منذ أسابيع قليلة على الجلوس المديد في المطبخ. هذا ما أقدمتُ عليه صبيحة هذا

النهار، بل عملت على نقل «يوميات» غالان معي، وجعلت من طاولة الأكل طاولة عمل. شددتُ على عدة سطور، على عدة أيام في «اليوميات»، متنبهاً إلى هذا الجمع الظريف فيها بين ما يعايشه إلى جانب السفير الفرنسي في إستانبول وينقله في نوع من الحفظ لمهام رسمية، وما يعايشه ويكتبه لنفسه، والذي لا يتعدى بعض التعبيرات الخاصة. ولكن ما استوقفني فيها أكثر هو أن غالان كان يكتبها، وهو مدرك أنها ستكون، في نهاية المطاف، لغيره، لقارىء، هو الحاضر الخفي فيها. وإلا فلماذا يمعن في رصد تفاصيل عن الثياب، أو عن الاحتفالات، وهو يعايشها بنفسه، ويعرفها على طول العادة؟ ألا يكون يكتبها لقارىء لن يتاح له الوقوف في القاعة نفسها التي يجلس فيها السلطان على عرشه، على سبيل المثال؟

إلا أنني ما لبثت أن توقفت عن القراءة، عن الترجمة المحاذية، خاصة وأنني لم أجد فيها الكثير ممّا يدل عن ترجمة غالان، وهي موضوع عملي البحثي. وضعتُها جانباً، إذ إن للكلمات نقالة تحملني بيسر ممّا أنا مقيم فيه إلى خارجه، إلى كلمات أخرى، أشبه بفانوس علاء الدين السحري الذي ينير عتمات مشاهد وصور، بين متحركة وثابتة. مشاهد ممّا لم أرَ في السابق، ولم أحلم بها، إذ تنبسط المشاهد على غيرها، ممّا يؤلف تتابعاً. مشاهد حيوية، على الرغم من أن أقدامي لم تبارح الحذاء الرياضي الخفيف، ولا اللباس المناسب، الذي اشتريته طمعاً بجولات مشي في الفسحات الخضراء قرب الشقة، من دون أن أقدم عليها مرة واحدة. وما خفف من إقدامي هو خشيتي من الوقوع على من طلب التدقيق في أوراقي: وجدته يقف ذات يوم أمام البناية فعدت أدراجي إلى الخلف.

القراءة، أو الترجمة مع القراءة، لا تناسبني في هذا اليوم، إذ تقودني إلى حيث لا أقصد، ولم أقصد، بملء إرادتي. تفضحني القراءة، أو الترجمة مع القراءة، إذ تقودني إلى حيث تتمنى قوى خفية في داخلي، وهي قوى لا يرن لها جرس لكي ينبهني إلى وصولها، وإلى ما تريده: قوى أعلم مني بأحوالي. ما اعتدتُ في السابق على تناول أموري بهذه الطريقة. لم أكن أواجه مثل هذه الترددات، أو التساؤلات، في نفسي: أسيرُ في اتجاه، فإذا بي أنقاد إلى عمل أي شيء آخر، أو إلى عدم العمل بالأحرى، إلى التيه في أمكنة متفرقة من دون أن تحط أقدامي فيها فعلاً.

وجدتني مثل ورقة طافية فوق نهر، تدير المياه وجهتَها، فتنساق إليها. لا، وجدتني مثل من يقع في بحر، لا في نهر، من دون أن يحسن السباحة، فيغرق تحت الماء، ويطفو مرتعباً، من دون أن يحسن الخروج التام منه، ولا العوم مع أمواجه.

وضبتُ الطاولة من جديد، لكنني رحت هذه المرة أوزع فوقها مواد أكل مختلفة، مما سحبتُ من برادي الصغير. لماذا لا أتدبر أكلة مناسبة، ممّا اطّلعتُ عليه في أحد البرامج التلفزيونية التي تُعنى بوجبات الأكل؟ هذا ما حاولتُه أكثر من مرة، من دون أن أنجح فيه تماماً، إذ كنت لا أعرف شيئاً عن الأكل وإعداده، بل ضحكتْ أمي، في مكالمة هاتفية معها، لمّا أخبرتُها بأنني فشلت في إعداد «البابا غنوج». ولما سألتني عن سبب ذلك، أخبرتها بأنني تفرجت على لقاء تلفزيوني كشف فيه أحد كبار طباخي فرنسا، عن أن أجمل ما يأكله هو غير ما يقدّمه ويتدبره لزبائنه الكثر: أفعلُ مثلما تفعل سيدة البيت اللبنانية... تَشوي باذنجانة واحدة، ثم تُمرِّر عليها بعض الملح والزيت الحلو، ثم تأكلها بكل بساطة. ثم أتبعتُ ذلك بالقول:

أتعرفين، يا أمي، أنهم يسمون «البابا غنوج» في فرنسا «كافيار الباذنجان»؟

كنت أنا الغنوج، لا بابا، إذ إنني لم أعدّ نفسي لشهور الغربة، للعيش وحدي، والاتكال على نفسي. خرجتُ من البيت، من دون أن أحسن بالطبع إعداد أي طبق، طالما أن أمي كانت تنهاني عن هذا الأمر، إذ يقع في مهامها العائلية، عدا أنه ليس مقرراً، أو مستحسناً للرجال أنفسهم. أهذا ما يدعوني إلى التمرن، إلى متابعة حلقات تلفزيونية، مثل «التوب شيف» على القناة الفرنسية السادسة، أو إلى قراءة بعض الوجبات وكيفيات إعدادها على أحد المواقع الإلكترونية؟

كنت قد قرأت عن المواد، ولا سيما الخضار، أو عن التوابل خصوصاً، التي تُعطي للطبق نكهته، بل اطّلعت على وجهتَي نظر في الطبخ: واحدة تطلب من متذوقها تذوّق مواد الأكل نفسها، فيما تطلب الأخرى العناية بالتوابل، بالصلصة، أي ما يدخل من مادة مزيدة هي التي تعطيه نكهته.

كنت أنتقل واقعاً من قراءة إلى أخرى، طالما أنني لم أجرِّب حظي، ولم أتمرَّس في إعداد الوجبات.

بخلاف ما حصل لي اليوم...

نجحتُ في تدبر رقم هاتف المطبخ الجامعي حيث تعمل فضيلة. كانت مفاجأتها عظيمة لما سمعتْ صوتي. فكان أن أخبرتها عن وقوعي في مرض جعلني ألازم الفراش، ما جعلني بالتالي لا أجد حلاً لوضع ابنتها.

أنا الذي أصابته الدهشة لما قالت لي بأنها مستعدة للمجيء،

يوم غد، أو بعد غد، في يومَي عطلتها، مع ابنتها إلى شقتي لتدارس الأمر. تلعثمتُ، لما سمعتُ طلبها هذا، من دون أن أحسن نطق جملة واحدة بيِّنة. فكان أن تابعتْ تدفقها الكلامي: أتظن أن سيدة، مثلي، مستعدة للذهاب إلى شقة شاب، بعمرك، لو لم تكن في وضع صعب؟... أرجوك ستأتي ابنتي بكتبها معها... لن يقتصر الأمر إلا على دقائق قليلة...

أباتت المشاكل تصل إلى شقتي؟ وفي هذه الأيام المعتكرة؟ كيف لفضيلة أن تتوجه صوبي بمشاكلها؟ ألا يوجد معلمون تونسيون، أو حتى أساتذة جامعيون صالحون، أفضل مني لمثل هذا العمل؟ ماذا عن زوجها؟ لمَ لا يحرك ساكناً؟ لمَ لا يتدبر حلولاً؟ أتكون مشكلة ابنة فضيلة أزيد من مشاكل غيرها من أولاد المهاجرين؟ ألا تكون فضيلة تخطط لأمور أخرى، مما لا أدركه اليوم؟

استبعدتُ هذه الأفكار عن رأسي، مستدركاً كوني لا أتوانى، منذ أن وقعت مريضاً، عن تناول الوجوه السلبية في كل أمر، أو عن تبين أشباح تحوم حول ما يحدث قربي. ليست فضيلة من النوع الذي يخطط لاستدراجي لأمر، وهي المرأة المحجبة، كما تحققتُ بنفسي ذات مساء.

هذا ما قالتْه لي إحدى طالباتي المحجبات في الجامعة، في لبنان، إذ أسرَّت لي، لما تحققتُ من عملها النشيط مع طالب مسيحي، بأنها لا تخشى العمل معه، ولا مع غيره من الطلبة المسيحيين، إذ إن حجابها يوفر لها حصانة، فلا يتورعون عن معاكستها أبداً. إلا أن ما قالته الطالبة، نفاه زميلي الجامعي لمّا فاتحته بما جرى لي، فانفجر ضاحكاً: أنت لا تعلم شيئاً عن هؤلاء المحجبات؟ إنهن يخفين وراءه ما يريدون وما لا يريدون... إنه

ضمانة لهن لكي يحسنَّ اختيار ما يطلبن، من دون خطر محقق. . . أتعلم أن إحداهن لم تتأخر عن ملاعبة عضوي، في الباص الذي كان يقلنا في رحلة جامعية، عند حلول الظلام، وفي طريق العودة إلى بيروت؟

صورة الطالبة وعضو الأستاذ الجامعي لازمتني لأيام، بل لأسابيع، لما كنت أعمل على توزيع الطالبات، وبعضهن محجبات، في فرق عمل لتحسين لغتهم الفرنسية، قبل تمكينهن من الترجمة. لازمتني، على الرغم من كوني كنت أميل إلى أنّ ما قاله لي زميلي لا يعدو كونه صورة استيهامية، مما يرغب فيه ولا يحصل عليه.

فضيلة تحمل اسمها فعلاً، إذ لم يبدر منها ما يخفف هذه الصورة، أو يعدلها. لماذا أستفيض في الحديث عن الطالبة المحجبة، وأنا أقصد فضيلة واقعاً؟ هكذا يقودني البقاء في البيت إلى مثل هذه الصور التي تنحدر بي إلى مهاوٍ لم أبلغها في السابق. كيف لي أن أستقبلها، وشقتي في حالة مزرية من الفوضى والوسخ المتراكم؟ أأدعوها إلى العناية بشقتي فيما أتوكّل بتدريس ابنتها؟

إلا أن مفاجأتي الصاعقة، التالية، تلقيتُها في صباح اليوم التالي، لما بلغني صوت فيرا زاعقاً، متألماً، على هاتفي: أتعرف؟ والدي قاتل. . . والدي قاتل. . . البروفسور قاتل.

بات عليَّ تدبير مواعيد النساء في شقتي: فضيلة بعد الظهر، وفيرا في المساء، وأنا لم أستقبل في الشهور القليلة الماضية أحداً فيها، ما خلا البروفسور هيبوليت.

ما أن دخلت فضيلة مع ابنتها إلى الشقة، حتى سارعتْ إلى نزع منديلها عن وجهها. كانت ترتبه بعناية في جزدانها، فيما كنت أدعوهما، هي وابنتها، إلى الجلوس على الكنبة الوحيدة في الصالون. جلستُ على كرسي على مبعدة منهما، معتذراً من حالتي الصحية الرديئة.

كان شعر فضيلة أسود، يتهدل على كتفيها، ما جعلني أظن بأنها قد سوته قبل مجيئها. وهو الشعور نفسه الذي اعتراني ما أن نظرتُ إلى وجهها، الذي بدت فيه معالم جمال أكيد، معزَّز بعناية التجميل الذي صرفته عليه من دون شك.

ما أن بدأتُ بمحادثة ابنتها، أمينة، عن دروسها، متبيناً طبيعة مشاكلها في الصف، حتى تنبهت إلى أنها تتكلم الفرنسية بعناية بيِّنة، بل تعتني بإبراز شفتيها وأسنانها في النطق الدقيق والجميل في الوقت عينه. استأذنتْ فضيلة بالذهاب إلى المطبخ، بعد أن أخبرتني بأنها جلبت معها حلوى تونسية، وضعتْها في كيس كانت تمسك به أمينة عند دخولها.

كانت تقتصر مشكلة أمينة على فهم «ثقافة» اللغة الفرنسية، أي أدبها تحديداً، ما لا قدرة أكيدة لفضيلة على مساعدتها فيه، إذ راحت الصغيرة تسألني عن أسماء كثيرة، ممّا لم تعتدْ عليها: من فيون إلى بودلير اختصاراً.

فضيلة لم تعد خفيفة اليدين من المطبخ، بل بصينية وضعتْ عليها فنجانَي شاي، على ما أخبرتني: لهذا الشاي طعم لذيذ، وهو طعم الزنجبيل... يساعد في حالات الزكام. ثم ذهبتْ من جديد، وأتت فوق صحن ببعض حبات الحلوى، التي جلبتْها معها.

توقفتُ عن محادثة الصبية، وانصرفت إلى احتساء الشاي بتلذُّذ،

إذ إن طعمه راق لي فعلاً: تأتين لزيارتي، وأنتِ تهتمين بالخدمة فيه، بدلاً مني... هذا لا يجوز! اعتذرتْ فضيلة عن تدخلها المباغت في حياتي، عن مجيئها إلى شقتي: أنتَ تعلم مقدار الحرج الذي يصيبني بمجرد المجيء إلى شقة شاب عازب... هذا ما يفسر شدة المصيبة التي وقعتُ فيها... أنتَ تقدِّر ذلك، من دون شك.

لم أشأ التباسط في هذه الأمور الشخصية، وقد حصل ما حصل، فاكتفيتُ بتخفيف شعور فضيلة الثقيل بوطأة المسؤولية عليها: لا حاجة للهلع... أمينة تفهم ما تقرأ، لكنها تحتاج إلى من يعلِّمها بعضاً من الثقافة الفرنسية، ليس إلا. ولما سألتني فضيلة عن إمكان مساعدتها في الأمر، أخبرتها بأنني، لما أعود إلى الجامعة، سأرى ما إذا كان في إمكاني تدبير إحدى تلميذاتي لهذه المهمة. وإذا بفضيلة تتلعثم فجأة في قولها، وتحدق ملياً في عيني، وهي تقول بجمل متقطعة: يؤسفني سلفاً ما سأقول... أنا لا أعلم شيئاً عمّا تحدثني عنه، ولا أقوى طبعاً على مساعدتها في الأمر... أنا مستعدة لدفع المال اللازم لتعليمها، للتخفيف من هذه المشكلة... ألا يكون في إمكانك تعليمها ولو لساعات معدودة؟

فضيلة جاهلة لِما كانت تقول، ولِما كانت تتحدث عنه، من دون شك. أما فيرا فقد كانت تدرك تماماً حقيقة ما وقعتْ عليه في مكتبة أبيها، أي الرسالة التي يعترف فيها بإقدامه على القتل. كانت تريد مكاشفتي بالأمر، داعية عملياً إلى التخفيف عن حملها فوق أكتافي: أكنتَ تدرك هذا الأمر؟

نفيتُ بالطبع علمي بعملية القتل هذه، ونفيت طبعاً كوني اطَّلعت

على نسختين من الرسالة عينها، بين أوراقه، في مكتبه الجامعي.
كما كنت قد نفيت أمام كريستين إقدام البروفسور على القتل، إذ أخبرتها أن ابنة البروفسور وجدت بقية الرسالتين، أي وقوعهما في مشروع رواية شرع فيها والدها... ما بات يقلق فيرا، جعل كريستين تنسى ما كشفته من أمر مرعب في حياة الراحل.

رحت أقلب الورقة بين يدي، وأستفسر منها ما دعاها إلى إلقاء التهمة على والدها. فإذا بها تخبرني بأنها أمضت أكثر من ثلاث ليال، وهي تراجع خطه فوق أوراق مختلفة، لكي تتأكد من الأمر: أتعرف، قمتُ بتصوير أجزاء من الرسالة، أي بعض جملها، وأتيت بأوراق أخرى من خطه، وطلبتُ من دارس خطوط مراجعتها، فأكد لي صدورها عن الإنسان عينه. ذلك أن دارس الخطوط يتحقق من «ميلان» هذا الحرف أو ذاك، أو من «انتصابه»، خاصة وأن الفرنسية تتلاصق في حروفها...

كانت فيرا تبكي، بل عاودت البكاء واقعاً ما أن دخلتْ إلى الشقة، إذ كانت عيناها الجميلتان غارقتين تحت ضباب كثيف: أتعرف؟ تصالحتُ معه قبل وفاته بسنوات، ولو أنني لم أعلم أبداً سبب قطيعته معنا في العائلة... أصبحت أكثر قرباً منه، بعد وفاته، بعد دخولي وعيشي في عالمه الخاص، في الشقة، فكيف لي أن أقبل به اليوم قاتلاً؟!

الفصل الثالث

ليالي الأنس في فيينا

السبت 15 فبراير 2014

قبَّلتني ثلاث قبلات على خديَّ، ولما سلمتُها خدي الأيسر لقبلتها الرابعة، لحستْه بلسانها لحساً طويلاً، مديداً، عذباً، ثم ربتتْ على كتفي الأيسر، كاشفة عن ابتسامة عريضة.

توصلتْ دانييلا إلى ما تريد، ولكن بمشقة: وصلنا إلى فيينا، مثلما خططَتْ، ولكن هي في طائرة، وأنا في قطار. كانت قد اقترحت عليَّ المجيء بالطائرة، أو بباص، من ستراسبور إلى فرانكفورت، ونستقل معاً الطائرة في اتجاه فيينا، لكنني رفضت اقتراحها، مشدداً على رغبتي بالمجيء في القطار، مباشرة إلى فيينا من ستراسبور، ولو بعد إجراء ثلاثة تبديلات. ذلك أنها كانت تريد أن ندخل الفندق معاً، لا الواحد بعد الآخر.

كانت قد اتصلت بي على هاتفي النقال قبل ما يزيد على نصف ساعة من وصولي، وأخبرتني أنها ستستقل للتو سيارة أجرة في اتجاه المحطة، لاصطحابي معها إلى الفندق. كان لها الوقت الكافي، بعد وصول طائرتها في الساعة السادسة مساء و10 دقائق (بعد أن انطلقت في الرابعة بعد الظهر وخمسين دقيقة)، فيما يصل قطاري من ستراسبور في السابعة والنصف مساء: هذا ما أرسلتْه سابقاً برسالة

على هاتفي، بعد أن تمَّ الاتفاق بيننا، وتمت الحجوزات المختلفة. هذا ما كررتْ إرساله في يوم سفرنا، لما اتصلت بي وتمنت لي رحلة سعيدة.

كانت دانييلا تنتظرني على رأس الرصيف الذي حطّ عليه قطاري، واستقبلتني بعد رحلة طويلة: ما يزيد على ثماني ساعات و38 دقيقة.

انطلقَ قطاري من ستراسبور في العاشرة و52 دقيقة، وهي الدقة التي طلبتُها وعرفتها لما توجهتُ إلى باريس قبل أسابيع، ذهاباً وإياباً. بينما لم أعرف ذلك أبداً في مواعيد الطائرات، ومع أكثر من شركة، وفي أكثر من رحلة. إلا أنه لم يكن السبب الفعلي الذي جعلني أختار القطار بدل الطائرة للانتقال إلى فيينا: لم تقنع دانييلا بهذا السبب، وبما سقتُه على مسامعها، بل بدا عليها كما لو أنها تشكِّك في قبولي دعوتها. فكان أن قلتُ لها إنني اخترت القطار لسبب آخر، وهو التمتع بالتنقل في غير بلد أوروبي، لأول مرة، ولو من خلال نافذة القطار. هذا ما خفَّف من شكِّها، لكنه جعلها تلاحقني بالرسائل الهاتفية التي تخبرني بها عن مواعيد رحلتها، ورقم الغرفة التي حجزتها في «فندق غران ميركور بيدر ماير»، أو تطالبني بمواعيد رحلتي وغيرها من التفاصيل.

كنت أمنِّي النفس طبعاً بتتبع مناظر البلدان وهي تتتالى كما في ألبوم صور، من دون أن أبالي بعدد الساعات الكبير الذي سأمضيه من قطار إلى آخر. ذلك أن تمضية الساعات تلو الساعات في القطارات الثلاثة لا يجمِّدني كما في طائرة، وإنما يتيح لي التجوال

الخفيف، بين الحافلات المختلفة، أو بين الوجوه والأشكال. يتيح لي القطار التنقل البطيء، المتمهل، بين بلدان وقوميات من خلال أشكالها، وسحناتها، وثيابها، ولغاتها، وما تستثيره من دون شك رغبة الفضول لدى الترجمان. كما يتيح لي - إن شئت - الجلوس في المطعم - المقهى، مستعيداً عاداتي في ستراسبور نفسها. الترجمان يستسيغ السفر في القطار، كما قلتُ لنفسي، إذ يتيح لي تجريب لغتي الألمانية، التي درستُ، والتي لا تعرف دانييلا بعد - وربما لن تعرف - أنني أتقنها.

إلا أنني اخترتُ القطار لسبب أبعد وأخفى، وهو أنه يتيح لي - عدا متابعة قراءة «يوميات» غالان، التي أتيتُ بصور مستنسخة عن بعض صفحاتها - البقاء مع نفسي، والتفكير المتمهل في ما أقدمتُ عليه: اللقاء الحميمي بدانييلا، في الغرفة ذاتها، معاً، ولعدة أيام. لم يعُد السؤال: لماذا قبلتُ دعوتها؟ وإنما بات: كيف سأتصرف معها؟ بل يمكن صوغ السؤال بصورة أدق: كيف سيكون عليَّ عيشي الحميمي معها، وهو ما لم أعرفه مع امرأة، على الرغم من الليلة اليتيمة التي أمضيتها مع أوكرانية في شاليه في غابة أرز بشري قبل سنوات بعيدة؟

وافقتُ، أو لم أعترض أساساً على ما دفعتْه دانييلا أمامي مثل أمر مؤجل بيننا، ولكنه مستحق في الوقت عينه. قبلتُ بأن أعيش معها لعدة أيام وليال. في المرة الأولى، قادتني بيدي، من دون إخبار أو دعوة، ما يشبه الاغتصاب الرفيق، أما في هذه المرة فقد وجهتْ لي دعوة... اعترضتُ على قيامها بدفع بدل الإقامة في الفندق، لكنها أصرت على ذلك، مؤكدة على أنها «هديتها» لي، للتخفيف من إساءتها السابقة. كنت، في قرارة ظني، أنساق بشكل

خبيث أو غير ظاهر على الأقل لما كانت تدعوني إليه. كان في ودي إظهار بعض التشدد في تعاملي معها، بل إظهار سلوك «رجولي» معها. وهو ما نجحتُ فيه، في تحديد موعد الرحلة: كانت تصر على قيامنا بها في 13 فبراير منه، إلا أنني فرضتُ عليها القيام بها بين يوم السبت الواقع فيه 15 فبراير، أي في اليوم التالي لمحاضرتي الدورية، والعودة بعد ظهر نهار الخميس 20 فبراير منه، أي قبل يوم من محاضرتي أيضاً.

أستكون فعلاً «ليالي الأنس في فيينا»؟

في سيارة الأجرة، التي تقلنا، ما كانت دانييلا تترك يدي اليمنى من يدها اليسرى: تشدُّ عليها حيناً، وتتحسّسها حيناً آخر، إلا حين كانت ترفعها إلى شفتيها وتقبلها بشفتين منتفختين. هذا جعلني أقول في قرارة نفسي: كلُّ ما رسمتُه لنفسي من سلوكات، سقطَ تلقائياً، ما أن لحسَ لسانها خدي.

كانت متعجلة للوصول، على ما بدا لي من حديثها مع السائق، فيما كنت أسترسل في قعدتي وسط العتمة المحيطة بنا، موصولاً بجسمها عبر يدها. كانت تجلس فوق مقعدها بعد أن سوَّتْ تماماً معطفها المعتم - إياه - فوق جسمها النحيل، فيما كنت أرقبها مثل مَن يتعرَّف على من سيقضي معها ليلته الأولى. كانت محتشمة القعدة، فيما تتعجل يدها في العتمة استباق ما يمكن أن يكون لها من حراك لاحق معي. ولما وجدتني أحدق فيها، من دون أن تبارح يدي يدها، تبسمتْ، وأخبرتني أننا سنتمتع بأيام صحو مشمسة في فيينا. كانت أقرب إلى دليل سياحي، فيما تواعدُ يدها جسمي بأكثر من موعد.

انفكتْ يدي عن يدها، ما أن رنّ هاتفها النقال، وتدافعت جملُها في مكالمة ساخطة مع محدثها، على ما أظنّ. كانت تطلق كلماتها أشبه بالقصف المتتابع، حتى إن تعابير وجهها بدت عابسة، متجهمة للغاية، ما جعلني أنظر إليها نظرة المندهش مما يتكشف له.
ما كنت أحسن متابعة محادثتها تماماً، إلا أنني أظن أنها كانت تتبرم من ملاحقة أحدهم، أو إحداهن لها، إذ سألت: من أين أتيت بالرقم؟ أرجوك... أنا سأعاود الاتصال بك بعد وقت... وغيرها من الجمل ممّا يقع بين الغضب وعدم القدرة على الإفلات.

وضعتْ يدها فوق يدي، فيما شرحت لي بأن أحداً راح يعاكسها، فيما لا تعرفه. لكنها ما لبثت أن استعادت يدها من جديد، وفتحت جزدانها، وأخرجت منه ما يكفي لدفع الفاتورة، وإذا بالسيارة تتوقف عن الدوران. لعلها تعرف المكان من قبل، إذ لم يشرْ حديث السائق معها إلى قرب وصولنا، بل هي عرفته من تلقاء نفسها. هذا ما تأكدتُ منه بمجرد ما أن تقدّمنا فوق البلاطات الحجرية على رصيف الشارع، إذ راحت تتبين يميناً وشمالاً المكان بخشية العارف، قبل أن تدعوني، مثلها، إلى جرجرة الحقيبة، والدخول في ممر عريض في اتجاه الفندق. ما أن بلغنا غرفة استقبال الزبائن، دعتني إلى الجلوس والانتظار، ففعلت، فيما تتناوب عليَّ مشاعر متضاربة وملتبسة: ماذا؟ أتستمر في مهمة المرشد السياحي الذي يقود الأولاد في عطلتهم، ويتكفل عنهم بإجراء معاملات الوصول؟ ماذا قالت لعاملة الاستقبال عند إجراء عمليات التسجيل، وقد أخذت مني جواز سفري؟ ماذا قالت لهم عني، وقد أتت بورقة التسجيل لكي أوقّع عليها؟ أقالت لهم بأنني أخرس أم أصمّ أم أنني لا أحسن القراءة والكتابة؟ بأيّ صفة أنزل معها في الغرفة الواحدة،

على ما أظنّ؟ أأنا تلميذها أم أخوها الصغير أم جارها أم المريض أم المعوّق؟

كانت حركاتها تشبه حركات غسان، لما وصلنا معاً مع الأوكرانيتين إلى الفندق الشتوي القريب من غابة الأرز. حينها، قام غسان بإجراء المعاملات وحده، من دوننا نحن الثلاثة، إذ جلسنا على مقعد الانتظار، وكل منّا يمسك بحقيبته الصغيرة، فيما لا نتبادل فيما بيننا حتى النظرات. وصلتُ إلى بشري في سيارتي، وانتظرتُ وصوله في «فندق شباط»، قبل أن ألتحق بالثلاثة، ونصعد معاً إلى مجمع الشاليهات، وجهتنا الأخيرة. نظرتُ إليهم قائلاً: صباح الخير...، فيما كانت تعلو ضحكة غسان بقوله: لا، مساء الخير، يا أستاذ. كانت أكثر من ضحكة، كانت ابتسامة المتمكن ممّا فعل، إذ غمزني في إشارة بيِّنة إلى أنه نجح في جلب فتاتين جميلتين معه.

معاملات غسان انتهت على عجل، حتى إنني ما احتجتُ، لا أنا ولا الأوكرانيتان، إلى إبراز جواز سفر او بطاقة هوية، ولا إلى إنزال التواقيع فوق أوراق استلام الغرف. لعله تلفَّظ باسميهما، ما أن صعدتُ إلى سيارته «الشيروكي»، لكنني كنت ملتهياً، بل مرتبكاً ممّا أقدم عليه: كانت الفكرة فكرة غسان، وهو تعهدَ بمتابعة تفاصيلها بالكامل.

ما أن أقفِل الباب علينا، حتى سَرَت في أطرافي مشاعر لذيذة من التوتر والخوف.ممَ أخاف؟ أمن نفسي؟ أم من الأوكرانية التي لا أعرف اسمها، والتي لم تقبض أجرها بعد؟ أما دانييلا فلم تترك لي مجالاً لأي تردد، لأي مبادرة، إذ دفعتني دفعاً صوب السرير العريض، وراحت تقبِّلني بالشراهة نفسها التي عرفتها معها سابقاً.

إلا أنني كنت شريكها هذه المرة، قبل أن أتوقف وأستسمحها عذراً بأنني أحتاج إلى حمام ساخن بعد ساعات السفر المديدة.

راحت دانييلا تنزع ثيابي بنفسها، ولما انتهتْ منها تماماً، راحت تدلِّكني تدليكاً خفيفاً، وإذا بها تجدني متأهباً تماماً لاستقبالها من دون حمام. فكان أن علتني، كما يحلو لها، وهي تمسد بيديها جلدي، قبل أن أتخلص منها وأندفع إلى الحمام.

«إن كأساً واحداً يكفي لسكري... وأنا لا أحتاج إليه في هذه الليلة الجميلة»: كانت دانييلا تتحدث باسترخاء، فيما ينير عينيها بريق خفي وغامض. كانت الساعة متأخرة بعض الشيء لكي نخرج إلى العشاء في مطعم بعيد، بعد أن أعدَّت قائمة من المطاعم. إذ ما أن خرجنا من قاعة الاستقبال، حتى اتجهنا شمالاً لما يزيد على عشر خطوات بقليل، ودلفنا إلى مطعم يقع في الممر الواصل بين الشارع الذي حللنا فيه والمطعم نفسه.

كنت قد أمضيت ساعات وساعات معها، سابقة وحالية، وأنا لا أعرف شيئاً عنها. وهو ما فاتحتُها به ما أن انتهينا من اختيار وجبة الأكل والنبيذ: أهذا ضروري فعلاً؟ أنا بدوري لا أعرف شيئاً عنك. هذا لا يهمني، ما يهمني هو ما يجري بيننا. هذا ما دفعني إلى تقديم نفسي بكلمات صغيرة ولكن كافية. حدثتُها عن سبب وجودي في ستراسبور، وعن كوني من لبنان، وعن عملي في التعليم والترجمة، من دون أن أذكر عمري. أما هي فاكتفت بالقول: أعمل في مجال الفن، وأنا ابنة وحيدة لأبوين منفصلين: الأب كاهن بروتستانتي، والأم كاثوليكية، وأنا أقيم حالياً في فرانكفورت.

إلا أن دانييلا ما لبثت أن تبدلت بعد دقائق على جلوسنا في المطعم. باتت متعجلة لخروجنا منه من دون أن أعلم سبباً لذلك. لما سألتُها، لم تجب، ثم أردفت: ألا ترى كيف ينظر إلينا النادل في المطعم، وبهذا التركيز؟ لما نادتْه وسألتْه عن تركيزه عليها، سألها: ألا أكون أعرفك؟ أجابت بالنفي، وراحت تتعجل في أكل «الإسكالوب» الشهيرة في فيينا، طالبة مني دعوة النادل لجلب فاتورة الأكل. إلا أن الغريب هو أن النادل أتى بها، وقدَّمها إليها، لا لي، ما أثار دهشتي: كيف عرف النادل أنني ضيفها؟ ما زاد من دهشتي هو أنها تعجَّلت في العودة إلى الفندق، فيما بدت تمشي وحدها من دوني، خفيضة الرأس، متكوِّمة على معطفها المعتم.

الأحد 16 فبراير 2014

أهو قرعُ الأجراس القريب الذي أيقظني في هذه الساعة الصباحية الباكرة؟ أيلاحقني هذا يوم الأحد، حتى في مدن أوروبا التي لم أسمع فيها بعد جرس قداس أو احتفال، بخلاف ما يحدث لي صباح الأحد في قريتي، إذ ينبهني إلى وجوب القيام من فراشي، قبل أن توقظني أمي، وتدعوني إلى مصاحبتها إلى القداس. وجدتني عارياً تماماً في الفراش، مثلها. هذا ما طالبتْني به، ما أن قرَّرنا النوم، بعد ترتيب ملابسنا وأغراضنا الخاصة في أمكنتها المناسبة.

كانت الغرفة 412 تقع في الطابق العلوي من الفندق. كانت أشبه بشقة صغيرة، أضيق بقليل من شقتي نفسها، على ما قلت لها فور وصولنا إليها. كانت واسعة ما يكفي، للسرير العريض، ولفسحته الجانبية (التي تصلح لقيامي بحركاتي الرياضية فيها)، إلى جانب

مكتب وكرسي، أمام النافذة المفضية إلى الخارج، والذي يبلغني منها، من دون شك، صوت قرع الأجراس، فضلاً عن كنبة وكرسي أمام شاشة التلفزيون.

قررتُ هذا الصباح كتابة «يوميات» هذه الرحلة، طمعاً بمعاكسة غالان نفسه، رفيق رحلتنا الكتابي، وشرعت في تدوينها. كان لدي الوقت الكافي للردّ على رسالة والدي الهاتفية في الأمس، التي أعلمتني، وأنا في القطار المتجه إلى فيينا، بتشكيل الحكومة بعد ما يزيد على عشرة أشهر، أي قبل مغادرتي لبنان إلى ستراسبور. أجبتُه: مبروك. هل يستحق خبر تأليفها أن يعبر هذه المسافات كلها؟

كانت دانييلا غارقة تماماً في نومها، بعد ليلة لم تأتِ وقائعها بكل ما وعدتْ به، إذ سألتني، بعد دخولنا إلى الغرفة: أتريد مجامعتي؟ لما استغربتُ سؤالها، علا صوتها: أتشتيهيني فعلاً؟ لم أجبْ، مضيتُ إلى غرفة الحمام، ورحت أنظف أسناني. أتت صوبي، وقبلتني على خدي: لا تتضايق من ردات فعلي الغريبة أحياناً. . . أنا متعبة، أريد أن أنام، ولكن بشرط: أن تنام عارياً إلى جانبي.

توقفَ قرع الجرس، فبرز صوت زقزقة عصافير قريبة، فيما كنتُ أتبين عبر النافذة قرميداً وشجرة جرداء. في انتظار استيقاظها، عدتُ إلى عدد جريدة «لو موند»، الذي اشتريته في محطة ستراسبور قبل أن أستقل القطار. استوقفتني في الجريدة أخبار مختلفة، ولا سيما عن «عيد فالنتين»، متسائلاً: أما كانت دانييلا مصرّة على مجيئي قبل 14 فبراير للاحتفال معها في فيينا بعيد العشاق؟ قرأت عن العيد في طهران، وكيف أن الإيرانيين احتفلوا به ليل الخميس، ليل عطلة نهاية الأسبوع عندهم، بدل الجمعة. أقرأ في المقال أن بيع الورود

الحمراء كان ممنوعاً، حسبما قال أحد بائعي الزهور لصحفية الجريدة الفرنسية. إلى الورود، اشترى إيرانيون علّاقات مفاتيح، وأحصنة تيمناً برمز السنة الصينية الجديدة، كهدايا في العيد المتخفي في بلادهم. إلا أن الأسعار كانت عالية، والأحوال سيئة، حتى إن زوجاً أسرَّ للصحفية بأنه سيحتفل بالعيد مساء في بيت حماته، إذ لم ينجحا بعد، هو وزوجته، في أن يكون لهما بيت مشترك، وسقف واحد يجمعهما.

كانت دانييلا تتقلب في سريرها من دون أن تستيقظ، من دون أن يفارقها الحِرام العريض أبداً، إذ كانت ما أن تعدل من نومها، ويبتعد عنها الحرام، كانت تستعيده وتشده إلى جسمها. ما كان يظهر منها غير وجهها، الذي بدا عابساً، متجهماً، حتى إنني شعرت بأنها تعايش في نومها ما يشبه جدلاً أو عراكاً لا يتوقفان، لا ينقطعان عن التبدل، ما يستنفر مشاعرها وتعابيرها. أهو حنقُها يوم أمس؟ ممَ تضايقت؟ لم تجبني عندما سألتها؛ اكتفت بالقول: أنا متعبة... أنا متعبة. كنت أمني النفس بمعاشرتها جنسياً، مختاراً هذه المرة، لا مغتصباً. أأنتظر استفاقتها أم أتدبر فطوري الصباحي، وحدي، كعادتي، خصوصاً وأنني عرفت بأن الفطور النمساوي متنوع ولذيذ للغاية؟

عدت خصوصاً، في «لو موند»، إلى ملفها، الخاص بالمأدبة الفرنسية، وقد كان الدافع الأساس لشراء العدد، إذ لا تعنيني قراءة الجرائد أبداً، ولا أتسمر أمام شاشة التلفزيون، مثل أبي، لسماع الأخبار الكريهة: ما النفع من سماعها، وهي مجلبة للغم، أليس كذلك؟ ما كان يتوانى عن الجواب: السياسة طبق الأكل والأكل نفسه... نحتاجها لمعرفة أحوال البلد، والطقس خصوصاً. هذا ما

انقطعتُ عن مناقشته معه، بعد أن قلتُ له ذات يوم: ما عدنا نعيش في الحرب، التي عرفت... ألا تعلم أنك تجعلني أعيش ما لم أعشه، وما لا أريد التعرف عليه، وعلى بقاياه؟ ما كان يجيب، إذ كنت أعرف أن هذا هو ما بقي له في عينيه من بريق السياسة القديم.

كان الملف غنياً بمواده المختلفة. تعرفت فيه على أن الفرنسي يمضي ساعتين و22 دقيقة على المائدة، ما لا نجد نسبته في أي بلد آخر، حسب إحصائيات العام 2010. ذلك أن المأدبة شراكة، عقد اجتماعي، لها تاريخ يستحق الدرس، مدركاً أن ما بات يجذبني إلى الأكل، إلى إعداده، يتعين في هذا الجمع بين تلبية الحاجة طبعاً، والتذوق الحسي الشديد له. كنت في السابق آكل - إن أكلت - مثل من يقضي واجبه، وعلى عجل بالطبع. أما اليوم فقد رحت أتعرف على المواد نفسها، من اللحم إلى الخضار مروراً بأنواع الجبن والنبيذ وغيرها، إذ إن لها طبائع ومعطيات ونكهات جديرة بالمعالجة، بالتذوق. الوجبات الثلاث إلزامية، واجبة، وهي ليست لتلبية الحاجة فقط، وإنما للمشاركة، للمحادثة، ما يُذكِّر فلسفياً بـ«مأدبة» أفلاطون، التي تجمع بين ملذات الأكل والشرب ومتعة الجدل الفلسفي، بل قرأت في «الملف» ما لا أعرفه عن حياة الفرنسيين والإنكليز والأميركيين وغيرهم، عمّا يعنيه الأكل نفسه، ومواعيده، في سلوكاتهم الاجتماعية: قبول دعوة أحدهم للأكل إشعار مستحق بعلاقة مفتوحة، من الأعمال إلى الغرام؛ أما قبول دعوة العشاء من إحداهن (أو أحدهم) فيعني إيذاناً مؤكداً بحصول المجامعة بعد العشاء. أقرأ عن أن الإنكليزي يأكل فيما يقود سيارته، أو يطالع جريدته، أو ينقر على حاسوبه، فيما الوجبة عند الفرنسي «حدث اجتماعي كلياني»، كما يقول عالم الأناسة مارسيل موس.

أما عند الأميركي فالعجلة مطلوبة، في وجبة سريعة، قد يأكلها في سيارته، أو في مكتبه...

الوجبة أكثر من شراكة، تعني الألفة، الحيميمة، العلاقات الجمعية، كما في القداس عند تناول القربان المقدس: عادات المؤمنين في الكنيسة، وعادات الفرنسيين مجتمعين حول مائدة. أأنتظر دانييلا لكي أشاركها الفطور؟ ما أن خرجتُ من الحمام، وجدت دانييلا تنتظرني مستقيمة بعريها، في السرير: لا تنتظرني... يمكنك النزول إلى المطعم والفطور... لا تنتظرني... أيزعجك الأمر؟

استعدتُ في «البلفيدير» شعوري بأنني طالبٌ تقوده أستاذته أو مرشدته في صف تعليمي، ولكن خارج المدرسة، في قصر تحول إلى مجموعة متاحف، وسط حديقة ساحرة. هذا ما رسمتْه دانييلا في أولى خطواتنا في فيينا، بل خصَّتْ القصر بنهار بأكمله. أأمضي نهاراً بين لوحات وتماثيل؟ هل طلبتْ تربيتي الفنية أم طلبت تحسيناً وتمريناً لثقافتها الفنية؟ ألا تكون المؤسسة الفنية التي تعمل فيها هي التي دعتْها للقيام برحلتها هذه؟

تساءلتُ إذ بدا لي، من كلامها بالألمانية مع عاملة الاستعلامات، أنها تطلب زيارة بعينها لقاعات بعينها، وهي تنظم معرضاً يجمع بين برلين وفيينا من خلال الأعمال الفنية في القرن العشرين. أتندرج زيارتها، لا في تربيتي الفنية، بل في عملها؟

طردتُ من رأسي هذه الأفكار، إذ وجدت أنني أغالي في التشكيك بها: لا، هي تريد التعويض عن فعلتها القديمة... كما أن

زيارة معرض بعينه، إن احتاجت له، فهذا يبقى دون خطتها بالبقاء معاً في فندق لأكثر من ستة أيام.

كانت مرحة، بخلاف ما استيقظت عليه. أصرّت، ما أن وصلنا إلى بوابة القصر، أن تلتقط صورة لي على هاتفها النقال. ولما سعيت إلى التقاط صورة لها بدوري، زعقتْ في وجهي، ثم عادت من جديد إلى الابتسام.

كانت ترعاني في تنقلاتي بحنو غريب، ما ضايقني أحياناً، إذ بدوت فعلاً مثل مراهق مضطرب في محل من الثريات والأواني الصينية الفاخرة. لكنها ما كانت تُقدم على لمسي أبداً، ولما حاولت الإمساك بيدها في المقهى، قرب بوابة الاستعلام، سحبتْها بقوة. ثم استدركتْ بالقول: لا تفهمني في صورة خاطئة، أرجوك. إنها أول مرة تُقدم فيها بنفسك على لمسي... لكنني لا أحب هذه الحركات في العلن، في الشارع، أو في المقهى. ثم أغمضتْ عينيها بحركة منسقة مرتين متتابعتين: ماذا يعني هذا؟ قالت: أقبّلكَ مرتين.

أبقت دانييلا زيارة المعرض الذي سألتُ عنه إلى فترة ما بعد الظهر، وهو يقع في القسم الثاني من أبنية القصر - المتحف.

قاعات وقاعات، لوحات وتماثيل، بأشكال وأحجام مختلفة. كنت أحتاج، في التنقل بينها، إلى مَن يرشدني، أو يمكّنني من فهم ما يحيط بأعمال الفن هذه في تواريخها الخصوصية. كانت مواظبة في الشرح، ما يعني أنها تُقدم على ترجمة النبذات الصغيرة التي تتقدم كل قاعة، وتشرح المغزى من جمع الأعمال في كل قاعة. لم أحتج إلى متابعة شروحها فترة طويلة لكي أتوصل إلى سؤالها: أنت لم تدرسي الفن بطريقة نظامية، أليس كذلك؟ توقفت عن المشي،

وتفرست في وجهي: من أخبركَ بهذا؟ فأجبتُها: لا أحد. هذا حسُّ الأستاذ الذي يخمِّن ويفحص.

هذا ما شرحتْه لي بعد جلوسنا في المقهى: فعلاً، لم أدرس الفن في صورة نظامية، بل مكَّنني والدي، منذ الصغر، من تذوق الفن... كان يقودني معه إلى كثير من المتاحف، سواء ما كان منها قصوراً أو كاتدرائيات أو كنائس، فضلاً عن أنني طالعتُ الكثير من الكتب وأدلة المعارض، والصور المختلفة، التي كنت أقع عليها في بيتنا، أينما كان. كانت تعاليمه وشروحه أكثر من مدرسة ثانية لي، بل علَّمني الدرس الأهم في الفن، وهو أن عليَّ النظر إلى اللوحة بعين فاحصة، ما يعني أنّ عليّ عدم تصديقها، بل ملاحظة ما قد يكون فيها من مفارقات... إذ إنها لوحات متكررة، نمطية، لا يقوى فيها الفنان على التجديد، على تعديل القواعد المتبعة.

هذا ما راحت تشرحه في وقفات مختلفة، ولا سيما أمام لوحة تعود إلى العام 1502، التي وجدت فيها تعابير انفعالية في وجه امرأة ماثلة في اللوحة، فيما نرى الوجوه في غيرها من اللوحات هادئة، بل ساكنة، كما في أيقونة. ثم أوقفتني أمام لوحة «ختان المسيح»، لكي أنتبه إلى فروقات فيها: اللوحة مصورة بين العام 1440 والعام 1450... انظرْ إليها جيداً، ألا ترى أنها غريبة؟ كيف يعقل أن رجل الدين اليهودي يضع نظارة فوق عينيه لكي يُحسن القراءة في الكتاب الديني بين يديه؟ أكان هذا في أيام المسيح حقاً أم في أيام المصور نفسه؟

تحدثني دانييلا مطولاً عن لوحة يظهر فيها رجال مختلفون، وهي بعنوان: «حساء في دير». لم أجد في اللوحة ما يستحق التوقف عندها، ثم راحت تحدثني عمّا يمكن أن يحدث في الدير

نفسه. ولمّا سألتها عمّا يمكن أن يحدث، أجابتني: لا أعرف، لا أعرف... لماذا تظنّ أنني عارفة بذلك؟ أريد أن أشير فقط إلى أن اللوحة بعيدة كلّ البُعد عن حياة الناس، على الرغم من أن إدارة المتحف وضعت فوق مدخل القاعة العنوان التالي: «صور الناس».

أما ما استوقفني في ما كنت أراه في اللوحات الدينية، فهو أنها تشير إلى ما يقع قبل اللوحة خصوصاً، كصيغ مادية للعمل الفني، حيث نتبين صيغاً أخرى لها، فيما لا تتأكد اللوحة إلا بعد ذلك. كما استوقفتني كذلك الصلة بين اللوحة والكتاب، حيث يمثل العمل الفني فوق الخشب تحديداً، في أشكال يمكن له معها أن ينغلق أو ينقفل على نفسه، مثلما تنغلق دفتا الكتاب على ما يحتويه من صفحات. هي أعمال فنية، بعيدة عن اللوحة، بل هي أقرب إلى أن تكون منحوتات ملونة.

كانت دانييلا تعرض وتشرح، إلا أنها كانت متعجلة لرؤية معرض فيينا - برلين، الذي يقع في الجهة المقابلة للقصر. وهو ما انتقلنا إليه بعد المقهى... فوق الحصى الواصلة بين جانبي القصر، اقتربتْ مني، شدَّتني إليها، وقبلتني إحدى قبلاتها الشهوانية، قائلة: أنا لم أصدق بعد أننا معاً في فيينا. لكنها ما لبثت أن زعقتْ في وجه مَن حادثه على الهاتف: من تكون؟... أهذا أنتَ من جديد؟! برقم آخر هذه المرة؟ كُفَّ عن ملاحقتي... لستُ في فرانكفورت أساساً. لعله الشخص عينه. وهي اتصلت به، بعد أن نزعت هاتفها من جزدانها، فتبينت رقماً متصلاً بها، فيما كانت قد وضعت الهاتف في

وضعية صامتة، في قاعات المتحف. لما سألتُها عن سبب انزعاجها من المكالمة، أجابت من دون أن تلتفت إلي: تصورْ... يتصل بي أحدهم من أجل فاتورة كهرباء!

دانييلا تكذب، إذاً، من دون أن يرفّ لها جفن! من يكون ملاحقُها هذا؟ أتكون لها علاقات لا تلبث أن تتحرج منها أو تضطر إلى التملص منها؟ تحدثني عن مفارقات العمل الفني، فيما تنغلق عليّ تماماً بأشد ما ينغلق فيه الكتاب على صفحاته. هي معي، منذ مساء البارحة... عاشرتُها جنسياً للمرة الثانية، من دون إكراه هذه المرة، بل بمتعة، ولكن من دون أن أتعرف عليها فعلاً. حتى ما قالته عن نفسها بدا مفتعلاً، ولم تجبني إلا بعد أن طلبتُ منها، كما لو أنه كان في إمكانها البقاء مجهولة، وإن بين أحضاني. تُقبِّلني في الغرفة بشهوانية ما شهدتُها حتى مع الأوكرانية المتمرسة و«الفنانة»، كما أسميتها أمام صديقي غسان، فيما تمتنع عن تقبيلي في المقهى، وإن قبلتني - كما فعلت في الانتقال بين جناحي القصر - فكانت كما لو أنها تتصيد قبلة، تنتزعها سراً، ليس إلا. وماذا عن مكالماتها الهاتفية المربكة لها، على ما يظهر، إذ في مقدورها - لو أن أحداً يعاكسها، من دون أن تكون لها معه أي صلة، أي تواطؤ، سابقان - أن تنهره، بهدوء، من دون الزعيق المتتالي. ها هي تكذب بسرعة، بمجرد أن سألتها عن مصدر الهاتف المزعج... أهو مزعج أم مقلق؟ لمَ لا تقفل هاتفها مثلما فعلتُ؟

كانت تتنقل بين اللوحات الحديثة، فلا تراها، إذ كانت تبحث تحديداً عن إحداها. هذا ما أخبرتني به ما أن توقفنا أمام لوحة تحت عنوان: «لولا»، الموقَّعة في العام 1928، وتعود إلى الفنان كريستيان شاد (1894-1984). ما أن وقفتْ أمامها تماماً، تبسمتْ

ونظرتْ إلى وجهي: أهي جميلة؟ لما أجبتُها بالإيجاب، عاودت الابتسام، وقالت: إنها قريبتي. ثم رفعتْ يدها اليمنى صوبي مظهرة الخاتم في إصبعها، دالة على الخاتم عينه الذي يظهر في اللوحة. كان الخاتم عينه، من جهة شكله، بين اللوحة ويدها، إذ لا يعدو كونه حجراً مصقولاً مستقراً على قاعدته المعدنية؛ واللون نفسه، وهو المائل إلى اللون العنابي. أهو الخاتم عينه؟ كيف انتقلَ من اللوحة، بعد أقل من مئة سنة بقليل، إلى يد دانييلا؟ بلى، هو الخاتم عينه، ويعود إلى أمّ جدتي لأمي، التي أسكن معها في فرانكفورت. وما صلة جدتها البعيدة بالمصور شاد؟

اللوحة تُظهر صورة نصفية لسيدة جميلة، في وضعية رزينة، محتشمة الثياب، تمسك بيدها مروحة بيضاء، وفي يدها اليمنى الخاتم العنابي، على أنها تنظر إلى مصورها نظرة جدية، لا توحي بوجود علاقة تواطؤ، أو حبٌّ بالضرورة بينهما. لما سألتُها ما إذا كانت جدتها البعيدة «سيدة مجتمع» لكي يتم تصويرها وإبراز جمالها، ضحكت عالياً: لعلك نسيتَ ما قلته لك للتو: يجب أن نبحث عن المفارقة أو المفارقات في اللوحة، لا أن نكتفي بما تعلنه. السيدة لولا جدية إزاء اللوحة، لكنها لم تكن كذلك أمام المصور، على ما أخبرتني ابنتها، أي جدتي.

ماذا تقول دانييلا عن قريبتها؟ لماذا تقوله، حتى وإن كان صحيحاً؟ أهي تشبهها بين ما هي عليه في الخفاء وما هي عليه في العلن؟ أهي ترسم جدية بالغة لمّا أظهرُ معها أمام الآخرين، فيما تتكشف عن مواهب «فنية» في ممارسة الجنس، لا تقل براعة عن خبرة «فنانتي» الأوكرانية؟ كان هذا يضايقني، من دون أن أعلم كيف أن لوحة تثير حنقي إلى هذا الحدّ. هذا ما لم أُظهره بالطبع، لكنني

وجدت نفسي مرة أخرى مَقُوداً، في سلسلة متتابعة من المواقف، من الوضعيات، فأكون من حيث لم أطلب جزءاً من وقيعة، من مشهد مسبوق، مدبر. ألا تكون دانييلا أتت إلى فيينا لرؤية اللوحة نفسها؟ ماذا لو كانت تكذب مرة أخرى؟ ماذا لو أنها علمت بوجود اللوحة في المعرض، وطلبت سلفاً إدهاشي بأنّ لها تاريخاً أكيداً في الفن وبين الفنانين؟ قد تكون قريبتها فعلاً، إذ إنني أتعامل معها كما لو أنها لبنانية، لا ألمانية، أي مثل أكثر من صديقة وزميلة في الجامعة ممّن يسبقهن «صيت» العائلة، أو اسم الوالد «الرنان» في السياسة أو المال أو العسكر.

كانت تُمعن في الشرح وتتوسع فيه، من دون أن أسمع أي كلمة منه، بل حدت بنظري عنها، لكي أجد ما يبرر ابتعادي عن لوحة «لولا». فإذا بي أقع على لوحة على الجهة اليمنى في القاعة نفسها، تُظهر امرأة مقصوصة الشعر، ذات رداء أبيض، تجلس إلى طاولة، فوقها شجرة صبار مزهرة في أناء فخاري، فيما الباب خلفها بين مفتوح ومغلق. لا أعلم سبب توقفي أمام اللوحة، كانت هناك «مفارقة» تشدني إليها من دون أن أتبينها أبداً. لما اقتربتْ مني دانييلا سألتني عن سبب توقفي أمامها: أهي تعجبك إلى هذا الحدّ، لكي تنقطع عن رؤية جمال قريبتي؟ فأجبتها: هناك «مفارقة» فيها، لا أحسن تبينها.

تعود اللوحة إلى الفنان سيرجيوس بوزر (1898–1927)، الذي رسمها في سنة وفاته، على ما قرأت. اسم اللوحة غريب: «السيدة بالأبيض»، فيما تبدو سوداء في ظني، ما يظهر في عبوس وجه المرأة خصوصاً، وجلستها المتهالكة على الكرسي. كما لو أنها مقعدة، أو خرجت من سرير مرضها قبل أن تتعافى. أو أنها سجينة خرجت

للحظات من زنزانتها. أو هي راهبة في وحدتها القاتلة، بين باب يُقفل عليها أو ترغب في الخروج منه...

أوقفتني دانييلا عن الكلام ما أن تحدثتُ عن كونها راهبة، سائلة: لا شيء فيها يدل على أنها راهبة. بلى، انظري إلى شعرها المقصوص... ألا يشبه شعر الراهبات، الذي لا نراه أبداً، إذ يكون مخفياً تحت رداء وجهها، الذي يحتاج إلى قصه قصيراً في الغالب؟

لا أعلم ما الذي ضايقَها في حديثي، حتى ابتعدتْ عني! أأكون بذلك قد أخرجتُ نفسي ممّا أوقعتني فيه، عند حديثها عن قريبتها ذات الخاتم العنابي؟ لكن من أين تأتّتْ لي كل هذه الصور، كل هذه الشخصيات، التي سقتُها وأنزلتُها في لوحة «السيدة بالأبيض»؟ هل استخرجتُ من اللوحة مفارقات خافية فيها؟ هل استدعت اللوحة صوراً ممّا رأيت في حياتي، أو ممّا أتوجس من رؤيته، أو استقر في قرارة نفسي، من دون أن يكون قد خرج إلى العلن، إلى الظهور بعد؟

طلبتُ، بعد العودة من «قصر البلفيدير»، إثر خروجنا من محطة «المترو»، وعند التمشي في اتجاه الفندق، التوقف لمعرفة الأمكنة المحيطة بفندقنا، لكن دانييلا تمنّعت بسبب تعبها. كان نهاراً متعباً من دون شك، بين ذهاب وإياب في قاعات، بين وقوف ومتابعة مركّزة لما تشمله من أعمال فنية. هذا ما شعرتُ به بدوري، ولا سيما أنني كنت أدوّن في دفتري «يوميات» الرحلة، مثلما كان يفعل أنطوان غالان في مذكراته، ولا سيما عندما كان يقوم بمرافقة السفير في زياراته الرسمية.

رافقتُ دانييلا إلى الفندق. وجدتُها مسرعة الخطى، حتى إنها بدت لي كمن يخشى النظر إلى ما يحيط بالفندق. لكنني طردت هذه الفكرة من رأسي، إذ تنبهت إلى أنها هي التي اختارت الفندق بنفسها. فكيف لها أن تختار فندقاً لا يروقها، أو لا يروقها الوصول إليه؟

تمشيت قليلاً قرب الفندق، فعلمت مصدر قرع الأجراس، إذ يقع الفندق على مبعدة خطوات قليلة من كنيسة، فيما يلتصق بها مستشفى ترعاه جمعية من الراهبات. إلى جانب محلات مختلفة، منها ما يعرض ملابس داخلية مثيرة للنساء، أو يقترح أكلاً آسيوياً متنوعاً، بين ياباني وغيره، أو مجمع للسينمات، فضلاً عن مجمع تجاري استقرت فيه أقدامي، في مقهاه الواقع بين أقدام الزوار، ولا سيما في هذه الساعة، قبل المساء بقليل.

لم أتمكن من كتابة ما أشاء في «يومياتي»، إذ أصرّ النادل على مكالمتي بالعربية، لمّا تنبه إلى كتابتي بحروف عربية فوق دفتري: هاجر إلى النمسا منذ سنوات من حلب، قبل اندلاع «الحروب» فيها، كما يسميها. راح يتباسط في أخبار سوريا، من دون أن يتكلم عن هجرته، أو عن وطنه الجديد. كما سعى - من دون أن ينجح - إلى أن يتعرف إلى نسبي الطائفي... لمّا دفعته في النقاش إلى الكلام عن حياته الخاصة في المدينة، أخبرني بأنه كان يعمل في دوام آخر، صباحي، في إحدى السفارات العربية، التي كانت تحتاج إلى مترجم يتدبر أمور موظفيها بالعناية والترجمة، لكنهم طردوه بعد شهور قليلة على اندلاع الأحداث...

في الطريق إلى الفندق من جديد استبدت بي، لأول مرة، مشاعر حنان مباغتة إلى دانييلا: لعلي أظلمها، في التشكيك الدائم

بها، وإن بشكل خفي عنها. وهو ما فعلتُه بمجرد الدخول إلى الغرفة، لولا أنني وجدتها مستغرقة في بكاء صامت.

الاثنين 17 فبراير 2014

الفطور من جديد، وحدي.

لليلة الثانية على التوالي، أعود في الحلم إلى وجوه عرفتُها (ولا أزال)، منذ الطفولة، في القرية خصوصاً. أجدني مضطراً للسلام عليها في نوع من التصرف اللائق، فيما يخبرني أحدهم عن مشكلة، كما لو أنه يجدني أهلاً بمعالجتها... ثم أقع على قريبي العائلي المُقعد في صحة ضاجة، ما يثير دهشتي الفائقة.

رذاذ خفيف ليل أمس، وغيمٌ مطبقٌ، محمَّل بالأمطار هذا الصباح. في «غوغل» أخبروني أنّ الشمس ستكون في انتظارنا، فيما لم نبصر الشمس فيها. أهذا يعني «انقلابات» المناخ، كما تخصها «لو موند» بموضوعها الأساسي (كما قرأت في فطور الصباح)، وما حدثنا به جون كيري في نشرة أخبار الأمس التلفزيونية، إذ أقرَّ - أخيراً - بعد طول تجاهل وإنكار، بأن تحمية غلاف الأرض باتت مشكلة خطيرة، وتحتاج إلى حلول وقرارات ملزمة على مستوى الدول.

في هذا الصباح، كما في الصباح الذي سبق، تجولت قليلاً، بعد الفطور، في جنبات الفندق الخارجية، فوجدت أن هناك عدة محلات تقع في مقدمات المباني الملاصقة للفندق. منها ما يعرض ثياباً نسائية، أو عطورات، أو هدايا، فضلاً عن المطعم الذي تعشينا فيه ليلة وصولنا. هذا الشارع الداخلي يفضي من جهتيه إلى شارعين

عريضين: واحد هو الذي اعتدنا، دانييلا وأنا، على الدخول منه إلى الفندق، إلا أن هناك مخرجاً، أو مدخلاً آخر، للشارع عينه ينتهي به إلى شارع عريض آخر. وقد علمت هذا الصباح، بعد محادثتي مع عاملة الاستقبال، بأن مجموع المباني كان في عداد ملكية أحد كبار التجار في فيينا، قبل قرنين ونيف: توزعت المباني بين سكن عائلته الكبيرة وحاجاتها، وبين حاجات التجارة نفسها من مخازن توضيب، وأخرى للعرض وغيرها، بل علمت منها كذلك أنه كان يسمح للعابرين باجتياز هذا الشارع الداخلي، والمرور بالتالي في ممتلكاته، إذ كانوا يختصرون الانتقال بين جهتين متباعدتين يُقرِّب الشارع الداخلي بينهما.

هذا ما نقلتُه إلى دانييلا عند خروجنا من الفندق هذا الصباح، فكان أن سألتني عن سبب استفساري عن ذلك، فأعلمتُها بأنني كنت أظنّ بأن المبنى كان يعود إلى دير، فكان أن رمقتني بنظرة متعجبة: ما دعاك إلى تشبيهه بالدير؟ فأجبتها بأنني لاحظت التجاور بين المباني المختلفة، وعدم علو الطوابق، فضلاً عن وجود الكنيسة المجاورة التي يقع بناؤها بين العام 1710 والعام 1711. ثم تابعتْ السؤال: من أين حصَّلت هذه المعلومات؟ فأجبتُها: من عاملة الاستقبال. فعاودت السؤال: بأي لغة حادثْتَها؟ رددتُ عليها بالقول: بالفرنسية... ما لكِ؟ أَهو استجواب؟!

لم تستكمل دانييلا أسئلتها، لكنها انتقلت هذا الصباح إلى الجهة المقابلة من الشارع العريض، بدل أن نتخذ، كما العادة، جهة الشارع الواقعة إلى جانب الكنيسة، للالتحاق بمحطة المترو، «لندشتراسي»، للوصول إلى «قصر شون برن»، وجهتِنا لهذا النهار.

لكنها، على غير عادتها، اقتربتْ مني، مدَّت يدها إلى خدي

الأيمن، وتحسستْه بنعومة: أنا أعتذر... أمضيتُ ليلة سيئة من الكوابيس الكريهة. إذذاك وجدتُ المجال مناسباً لطرح سؤال يراودني منذ أن التقيتُها لأول مرة، وتأكدَ بعد إقامتي معها: ألا تعتقدين بأن عليك أن تخبريني بأشياء ممّا يفسِّر مواقفك الغريبة؟

بلى: قالتها دانييلا، وهي تنحني برأسها. ثم أكملت: هذا المساء... هذا المساء.

القصر واسع، يتوزع بين عدة جهات، ولكل جهة مبانٍ عديدة، فيما يغلب عليه شكل الثكنة العسكرية، مع أن لجدرانه لوناً جميلاً، يغري العين، ويخفِّف عنها هذا الاصطفاف الواطىء لجدران المباني. هنا البيت الإمبراطوري بات متحفاً، ولا سيما للشهيرَين اللذين شغلاه في نهايات القرن التاسع عشر، وحتى مطالع القرن العشرين: فرانسوا-جوزيف وسيسي. نتجول في المتحف، الذي تحولت غرفه إلى معرض لتاريخهما، ولعيشهما اليومي في القصر: فرانسوا-جوزيف أمير، بل إمبراطور حديث ولكن بعقلية موظف رصين، إذ يستيقظ، على ما تنقل دانييلا لي وتشرح، في الرابعة فجراً، ثم يبدأ عمله في المكتب المجاور ابتداء من الخامسة، وهو يأكل فيه صباحاً وظهراً، مخافة إضاعة الوقت، ولا يتوقف عن العمل إلا بعد نفاد قوته، كما كان يحب أن يقول. أما زوجته المعروفة بسيسي، فهي امرأة حديثة تحت رداء إمبراطورة، إذ كانت لا تتأخر عن التذمُّر من القيود المتوجبة عليها، مثل زواجها المبكر، في الخامسة عشرة من عمرها: كانت تمضي يومها في العناية بجمالها، إذ نرى في غرفتها قبان الوزن، الذي كانت تقف عليه

ثلاث مرات في اليوم الواحد، كما كانت تمتنع عن العشاء، موعد اجتماع العائلة بكاملها، مخافة زيادة وزنها؛ وكانت تعتني بشعرها الطويل والكثيف الذي يبلغ طوله حدّ الكاحلين. أما ما عرفتْه من حرية فكان في أسفارها المتكررة إلى خارج الإمبراطورية، ما سيكلفها حياتها، إذ سيتم الاعتداء عليها، وقتلها، في إحدى رحلاتها إلى الخارج من قبل «فوضوي» إيطالي...

أبدت دانييلا دهشتها لما أخبرتُها بعدم معرفتي بسيسي، شارحة بأنها كانت الصورة الحالمة لكثير من المراهقات والمراهقين في العالم، ولا سيما من خلال الأفلام التي روت بعض سيرتها، ومثلتْها رومي شنايدر.

استعجلتُ الخروج من بيت فرنسوا-جوزيف وسيسي، حتى إن اللوحات أو التماثيل المعروضة فيه لم تثرْ اهتمامي، عدا أن دانييلا ما كانت تعرفها، وليس لها ما تقوله فيها، ما زاد من قناعتي بأن لها علاقة مخصوصة، لا دراسية منتظمة، بالفن.

عند الخروج من محطة المترو، «كارسبلاتس»، وجدتُ مقاعد حديد خالية من دون أن يكسرها أحد، أو ينتزعها من أمكنتها، أو يأخذها إلى البيت، على الرغم من أن الصدأ يعلوها، ما يشير إلى طول عمرها: مقاعد خالية، مرتبة، تنتظر جالسيها حين تورق الأشجار الجرداء فوقها.

أشجار باسقة، وأشجار مشذبة أحياناً، كما في ستراسبور. أشجار صلعاء من دون أوراقها وأغصانها، ما يعني تربيتها، إذ لا يريدون لها أن تكبر، وأن تستطيل أغصانها، ما يعني أنهم يريدون الحفاظ على أشكالها المهندمة، والمتشابهة بين شجرة وأخرى. تذكرت البروفسور هيبوليت، وأنا أتحقق، هنا، من انتظام هذه

الأشكال الجرداء، المتشابهة، والمتكررة للأشجار، إذ قال لي: هي أشبه بطريقة اليابانيين في تربية أشجار «البونزاي»، مع أنها تبقى قزمة في اليابان. وتذكرت خصوصاً ما قلتُه له: حتى الأشجار تحتاج إلى تربية بدورها!

لم تكن دانييلا تحب «قصر شون برن»، إذ اعترفتْ لي بأنها لم تجدْ فيه ما يرضيها، أو ما يلبي فضولها، فضلاً عن أنه لا يتمتع بثروة فنية تزيد من ثقافتها الفنية بالتالي. ولما سألتُها عن إدراجها هذا القصر في روزنامة اليوم المبرمجة، أجابتني: ظننت أنك مغرم أو مهووس بسيرة سيسي.

كانت ودودة للغاية، اليوم. لا يشمل هذا برمجة الزيارات وحدها، ومنها زيارة المقهى-المطعم الشهير، الذي كنا نقصده في وسط المدينة، بعد القصر-المتحف، وإنما يشمل خصوصاً التفاتاتها المتزايدة صوبي. إذ راحت في الشارع تنظر إلى وجهي، كما لو أنها تكتشف وجودي إلى جانبها، أو تتعلق برقبتي، ونحن نتمشى في شوارع مخصصة للمشاة، كما لو أنها فتاة صغيرة مع والدها يوم شراء هدايا العيد، بل راحت تتراقص بعض الشيء في مشيتها، ما خفف أو بدّد شعوري بكبر سنها، وبعتمة معطفها الذي لا يفارقها أينما كانت.

أخيراً، تذوقتُ لطائف الحلوى النمساوية، الشهيرة في فيينا، ولا سيما في محل «ساخر» الذي حللنا فيه، بعد طول مشي ممتع بين المشاة. أخيراً، شعرت بأن المدينة مأهولة، بل تغصّ بأعداد ساكنيها وزوارها، لما وقعت عليه من أشكال بشرية، ومن أزياء، وألوان، بما فيها عدد من المحجبات أيضاً. تمتعت بدوري بطبقات الحلوى المشغولة بإتقان، ونعومة، وعذوبة، في نكهتها الممتزجة بأكثر من

طعم، ما جعلني أنظر حتى إلى وجه دانييلا مثل طبق شهي، عذب، طري، ومشع بأكثر من لون ولون. كانت دانييلا تذوب رقة، بمجرد ملامستي لها؛ لم تتضايق لما مددتُ يدي إلى ساقها اليسرى أتحسس نعومتها من فوق تنورتها، بل راحت تمدّ يدها صوب بنطلوني بدورها ما جعلني أوقفها عن المضي بعيداً. ولما سألتْني عن السبب، أجبتُها: إنها لحظة عذبة، أريد أن أتذوقها معك، مثلما تذوب الأطعمة الطيبة في حلقي.

في وسط المدينة القديم، دخلنا إلى كاتدرائية سان إتيان، ووجدنا خليطاً من الزائرين، ممّن قدموا للصلاة، أو للزيارة. مؤمنون وسياح في فضاء واحد، ما جعل الكنيسة محل عبادة ومحل متعة فنية. كنا نمرّ ونتوقف لرؤية أعمال فنية معلقة، فيما يركع إلى جانبنا مؤمنون يؤدون صلواتهم أمام مذابح صغيرة: أيعقل أنّ مثل هذا الفضاء الجامع بات ممكناً في هذه المدينة، وربما في غيرها؟ كيف لي أن أعود من فضاءات التعايش هذه إلى بلاد يَقتلون فيها بحد السيف، وباسم الدين؟!

استعادت دانييلا شروحاتها الفنية، وتوقفتْ مرة جديدة عند اللوحة-الكتاب، إذ وجدنا لوحة خشبية عريضة، كما في يوم أمس، تتوزع بين خلفية مرسومة لها، ولها مصراعان ملونان يضافان إلى خلفيتها، بحيث يقوى مَن يشاء على غلق المصراعين على الخلفية، كما لو أنه يغلق كتاباً على دفتيه. هذا جعلني أتيقن مرة أخرى من أنها عارفة في الفن الديني ليس إلا، عدا أنه يجذبها لأسباب أجهلها، قد يكون أحدها ما قالته عن اختصاص أبيها الكاهن بهذا الفن، وعن مرافقتها له في تنقلاته بين المتاحف والكاتدرائيات والكنائس. ولما سألتها عن سبب تسميتها اللوحة بأنها لوحة-كتاب،

أجابتني بأنها توصلت إلى هذه التسمية بعد طول تفكير، بل بعد طول «معاشرة». ولما سألتها ما إذا كانت كلمة «معاشرة» تناسب في الحديث عن لوحات دينية، أجابتني بأنها توصلت إلى هذه الفكرة بعد معايشة مديدة لها مع اللوحات الدينية.

لم أحسن مُفاتحة دانييلا بما وعدتْ به، وهو الحديث عن ارتباك شخصيتها، إذ أجابتني في المطعم الإيطالي، القريب من الفندق، بأن هذا لا يصلح بين رائحة البيتزا والمعكرونة، بل يحتاج إلى أن نكون معاً في السرير. وهو ما كان في غرفتنا، ولكن بعد أن اشترطت عليّ أن أدير ظهري تماماً، فلا أنظر إليها أثناء كلامها، بل أثناء «اعترافاتها»، مثلما سمَّتها بنفسها:

كان في ودي أن أخبرك بما سأرويه على مسامعك منذ وقت، بعد أن التقينا في ستراسبور لأول مرة، إلا أن الظرف لم يكن مناسباً، وكنت في حاجة إلى مال أتدبر معه العودة السريعة إلى ألمانيا، وقد أصابتني في ستراسبور أحداث تعيسة وخطيرة، قد أرويها عليك في مناسبة أخرى. لهذا أنا أعتذر منك، لأنني تأخرت في رواية فاصل مؤلم في حياتي، مما أثر ولا يزال يؤثر في شخصيتي وسلوكي.

لا أعرف من أين أبدأ؟ أأبدأ من قصة أبي أم من قصة زوجي؟ فعلاً، أنا كنت متزوجة لسنتين على الأقل. تزوجت من صديق أبي. كنت قد اعتدت عليه: في بيتنا، وأحياناً في بعض رحلاتنا. كان يكبرني بعدة سنوات، لكنه كان شديد اللطف. لم أكن أنتبه إليه، ولا إلى وجوده، إذ رافق أحداث عائلتنا الصغيرة بعد سنتين أو أكثر بقليل من انفصال أمي عن أبي. كانت هي بدورها منغمسة في عالم الفن،

حتى إنها كانت تمارس التصوير الزيتي لبعض الوقت، إلى جانب عملها في المجلس البلدي، في قسم المعارض منه. فوالدي تعرَّف على والدتي في معرض، قبل أن يقررا الزواج. ولكن ما جمع بينهما، أي الفن، فرَّق بينهما بعد وقت، بعد سنوات، إذ توطدت علاقات والدتي بعدد من الفنانين ممن طلبوا من الفن، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية، شيئاً قريباً من الحياة نفسها.

هذا ما كانت تقوله أمامي، وتردده على مسامعي. وهو أن الفن أعطاها معنى لحياتها. معنى يتعدى الحياة الزوجية، والإنجاب، والدين نفسه، بل قلب الفن حياتها بالكامل، إثر تعرفها على أحد الفنانين، الذي أقام حياتها رأساً على عقب. كانت والدتي تقترب من الأربعين من عمرها لما اتصلتُ به، لما تعرفت عليه في أحد الأنشطة الفنية التي أقدمت عليها البلدية في مدينة برلين حيث كنا نقيم. هذا ما أخبرتني به بعد وقت، بعد أن فاتحتني بحقيقة ما اكتشفتْ من عقم وجدب في حياتها، في حياتها الجنسية المهمَلَة مع والدي. كانت تردد على مسامعي، في بيت جدتي، لما كنت ألتقيها بين عطلة وأخرى: أرجوك، لا تحاسبيني عمّا فعلت... كان من الأفضل لك أن تبقي مع أبيك، في عهدته... هو أصلح مني لتربيتك، بل كانت تردد خصوصاً: كنت أخشى فوات العمر... أنتِ تعرفين، يا دانييلا، اليوم، أن الملذات - إن ذقناها، إن خبرناها بأنفسنا - لا يمكننا أن نفترق عنها، ولا أن نعود إلى ما كنا عليه قبلها...

هكذا عشتُ قسماً من مراهقتي مع والدي من دون أمي. كنت أحتاج إليها لتقودني في عالم المشاعر والأحاسيس لما رحت أتحسسه، وحدي، أو أتعرف عليه في الأحاديث التي كنا نتبادلها مع رفيقاتي في الثانوية، ثم في الجامعة. كنت أعيش مع والدي، من

دون أن أعلم الشيء الكثير عنه. كنت أرافقه في عدد من رحلاته، في مدن ومتاحف مختلفة، ولا سيما إذ قرر إعداد شهادة دكتوراة في تاريخ الفن الديني، عن صورة السيدة العذراء فيه.

كانت تربيتي جدية، مواظبة، ليس بسبب والدي القس، بل لأن تعليمنا متشدد في هذه الناحية، وهو ما لا تعرفونه عنا، وعن مدارسنا. لهذا اقتصرت معاشرتي للشباب على نزهات منظمة، وعلى بعض السهرات المأذونة في الغالب. كنت أهوى الرقص، ولكن من دون أن يأذن لي والدي بممارسته، أو بالانتساب إلى نادٍ محترم لتعلُّم فنونه المختلفة.

كانت مفاجأتي عظيمة لما فاتحني بأمر زواجي. وممّن؟ من صديقه، بل من أستاذه الذي أصبح صديقه بعد أن قرر والدي الالتحاق بالجامعة في عمر متقدم، وإعداد شهادة الدكتوراة مع هذا الأستاذ، الذي كان يكبره بسنوات معدودة. كنت أستلطف الأستاذ، وأنظر إليه بعين الاحترام والتقدير البالغَين، خصوصاً وأنه كان متميزاً في تدريسه كما في كتبه وأبحاثه المشهورة في مجال الفن.

جرت الأمور على عجل. لم أعترض على رغبة والدي، الذي قام هو بنفسه - على ما عرفت بعد وقت - باقتراح الزواج مني على أستاذه. كان يخشى موته القريب، على ما أسرَّ لي أستاذه، بل زوجي بالأحرى. لم يكن الأستاذ جاهزاً للزواج، إذ كان يعيش مع والدَيه المسنين. كان عليه أن يتدبر أمرهما، قبل أن ينفرد بشقة لنا. تزوجنا من دون أن نتزوج: بقيتُ في بيت والدي، بعد أن أجرى هو بنفسه مراسم الزواج، من دون أن يدعو أمي إلى الحفل، الذي انعقد في بيتنا بالطبع.

تزوجنا، وبقي في بيت أهله، من دون شهر عسل في انتظار

العطلة الصيفية، بعد شهرين على زواجنا. كنت راغبة في الزواج، ومنه، طالما أن الأمر لن يبدل حياتي أبداً. ذلك أن انفصال أمي عنا قبل سنوات جعلني أخاف من أي تبديل، عدا أنه كان يقِبُّني من والدي، ويجعل صورة أمي تتدهور تدريجياً، حتى باتت في نظري امرأة متهورة، بل شيطانية أحياناً.

كنا نجلس فوق السرير العريض، أنا من ناحيته اليسرى، على مقربة من باب الغرفة، فيما كانت تجلس على الجانب الآخر، على مقربة من الحائط الخارجي. كانت تتكلم بانتظام، في تتابع لافت، على الرغم من أنها كانت تحني رأسها مثل مؤمنة في كرسي اعتراف. هذا ما تبينتُه لما توقفتْ عن الكلام، ما جعلني أدير رأسي، وأتوجه إليها بنظري، ثم بقولي: أهذا ما تريدين قوله؟ فأجابت، وهي تقف متجهة صوبي، وواضعة رأسها فوق كتفي: هذا ما أقوى الآن على قوله، والبقية تأتي.

قبّلتني قبلة خفيفة، ثم دعتني إلى التمدد عارياً في الفراش، ثم قامت هي بدورها بالتعري، والتمدد، بل بالاندساس تحت اللحاف. وضعتْ اللحاف فوق رأسينا قائلة:

قد أستطيع الآن استكمال الحديث عن وقائع حياتي المؤلمة... تزوجتُ، إذاً، من أستاذ والدي وصديقه، من دون جهد أو مشقة، من دون أن أنتقل من بيت والدي في الشهرين الأولين، ثم إلى بيتنا الزوجي مع والدَي زوجي في بيتهما. كما انقطعتُ بمجرد زواجي عن الجامعة، قبل أن أحصّل شهادتي فيها. كان أشبه بالزواج على ورق، مثل الزواج لمّا كنا صغاراً، ونلعب، أي مجرد كلام بكلام.

ما عرفتُه من زوجي قبل أن ننتقل إلى بيته لم يكن يتعدى القبلات السريعة، خجلاً من والدي، كما كان يقول في البداية. غير أن الأمر تغير بعض الشيء لما كنت أشدُّه إلى غرفتي. كان يقبِّلني بكثرة ومتعة، ويمضي في مصّ الثدي تلو الآخر.

في بيته، تغيرت الأمور، بل تحسنت. أخبرني بأن عليه أن يعتاد عليّ، وعلى وجودي إلى جانبه، في السرير. معه اعتدتُ على النوم عارية، فيما كان يصرّ على إبقاء بيجامته عليه. كان يتفنَّن في إثارتي بيديه، بلسانه، من دون أن ينزع بيجامته عنه أبداً. كنت أسأله عن سبب ذلك، فيجيبني بأنه يحتاج إلى مزيد من وقت، عدا أنه لا يقوى على مجاراتي جنسياً، هو المتقدم في السن. كان يردِّد على مسامعي: أنتِ عذراء، أنتِ فتية، أنتِ لا تعملين طوال النهار، بل تنتظرينني وحسب، فيما أتعب بين محاضراتي وتنقلاتي.

كان يظن بأنني لم أعرف رجلاً قبله، فيما كانت لي علاقات جنسية خارجية، سطحية، مع أكثر من شاب، سواء مع أحد شبان البناية، أو مع أحدهم في مرقص ليلي، لما اقتادني إلى جهة خلفية منه، وراح «يهرس جسده على جسدي»، مثلما قلتُ لصديقتي التي كانت ترافقني، لما سألتْني عن لذة ما قمتُ به. صديقتي هذه هي التي علمتني ما لأمي أن تعلِّمني إياه، أي كيفية التعامل الجنسي مع الرجل. لم تكن متزوجة، لكنها كانت مجرِّبة. كلُّ ما علمتني إياه لم ينفعني معه. لم أحتج إليه. كانت دروساً نظرية، إذا جاز القول. وهو ما فاجأها لمّا أخبرتها بحاصله، لما دعوتها لزيارتي في بيتي الجديد. ما كانت تصدق حقيقة ما يجري؛ بل سألتْني بصوت غاضب: أما زلتِ عذراء؟ فأجبتها بالإيجاب طبعاً.

أصرَّت صديقتي على البقاء في البيت إلى حين عودته. وهو ما

كان. ثم استأذنته، بعد العشاء، بالخروج سوياً، فلم يعترض، بل رحب بالفكرة، داعياً إياي إلى عدم نسيان مفتاح البيت، وأخذه معي، خشية إيقاظه عند عودتي. هذا ما كان يتكرَّر مرة واحدة على الأقل أسبوعاً بعد أسبوع. كنت أروي لذتي بالحرام، في مكان آخر، في الملهى الراقص، حيث بات لي شاب يعرفني ويراقصني، ويقودني إلى جهة خلفية منه لـ«هرس البطاطا»، كما رحتُ أسميه مع صديقتي، التي كانت تأتي أحياناً مع صديقها. لم يكن زوجي يتضايق أبداً من خروجي الليلي، بل كان يسألني صباح الأحد، عند الفطور: أكنتِ سعيدة في الليلة الماضية؟

إلا أنني انقطعت عن الملهى، وعن صديقتي، لما دعتني إلى فقدان عذريتي مع صديقها؛ لما غضبتُ من طلبها، أجابتني: أنا أفعل ذلك لصالحك.

لم يعد لي صديقة، وما كنت مستعدة لإخبار أمي بما كان يحصل لي، لما أمضيت إلى جانبها في فرانكفورت بضعة أيام في شهر الربيع. إلا أنني عقدت العزم على تدبير أمري مع زوجي، بطريقة فعالة. إذ قررتُ، ذات يوم، شراء عدد من الملابس الداخلية المثيرة، ثم عدت إلى البيت، وانتظرته في غرفتنا، ولما وصل، أجلسته على كنبة، ورحت أنزع ملابسي قطعة قطعة. أثرتُه تماماً، لدرجة أنه نزع معطفه، ثم سترته، ثم ربطة عنقه مع قميصه، داعياً إياي إلى تقبيله في صدره... لكنني لم أقبله طويلاً، ذلك أنني لما جلست في حضنه، لم أشعر بقضيبه منتصباً أبداً. استعدت وقفتي السابقة، عدت إلى الرقص وحدي بشهوانية، مثل الفتيات العاملات في المراقص الليلية.

هذا ما كررتُه في ليلة ثانية، وثالثة، بل راح هو يطالب به، لمّا

يصل إلى البيت مباشرة، ولكن من دون أن يحصل أي التحام بيننا.
إلى أن قررت، ذات ليلة، اقتياده بنفسي إلى الفراش، شادَّة إياه من ربطة عنقه، فامتثل. رحت أنزع ثيابه بنفسي، فيما كان ساكناً تحتي، ممتثلاً أو خاضعاً لما أفعل. وما أن عريته تماماً، رحت أتعرى فوقه بمتعة خالصة، وأتحرك فوق قضيبه بحركة تلقائية متتابعة، ما كان يثيرني ويجعلني أعلو بصوتي الجنسي الذي كان يتفجر وأستمع إليه لأول مرة. ارتميتُ إلى جانبه مغتبطة بما فعلت، بما كان يتمدد في جسدي، لولا أنني انتبهت إلى سكون آلته الجنسية تماماً.
كان زوجي عاجزاً جنسياً... بلى، كان عاجزاً. هذا ما أنكرَه في مرة لاحقة، لما واجهتُه به. هذا ما اعترفَ به بعد وقت...

كانت دانييلا تتحدث، وهي تدير لي ظهرها، فيما كنتُ عارياً على مسافة قليلة منها، لكي تحسن رواية ما تروي من دون أي إرباك مزيد لها. اقتربتُ إذذاك منها، أدرتُ وجهها، بل جسمها صوبي، وقبلتها قبلتين على عينيها، إذ كانتا مغمضتين، باكيتين.
في هذه الليلة نمت معها مثلما ينام زوج مع زوجته بعد طول غياب.

الثلاثاء، 18 فبراير 2014
تأخرنا في الاستيقاظ هذا الصباح، مثل عروسين بعد أول ليلة في شهر العسل.
لم ننفك عن بعضينا طوال الليل، على ما أظن، إذ لم أحسن

تقدير لحظات النوم من لحظات الصحو في ما تبقى من ليل بيننا، ولا لحظة النوم من الحلم كذلك.

لم نقوَ على الالتحاق طبعاً بإفطار الفندق، فكان أن خرجنا إلى مقهى مجاور. لما حاولتُ استعادة قصة دانييلا من حيث توقفت، بعد الانكشاف الفظيع لزوجها، تمنت عليَّ عدم مفاتحتها بهذه السيرة بعد اليوم: أتعلم، لما كنا صغاراً، ونريد إفشاء أسرار فيما بيننا، ممّا لا نحب، أو مما أُجبرنا على القيام به أحياناً، كنا نختبىء تحت اللحاف، ونخبر بعضنا بالسر، أو بالأسرار، على أننا لا نعاود الكلام فيها أبداً، كما لو أنها لم تحصل أساساً؟

كانت دانييلا هادئة، لا تتوانى عن فحص تعابير وجهي. لم تكن مرتبكة مثلما كان يحصل لها في الشارع، على مقربة من الفندق. إلا أنها استعادت توترها لمّا طالبتها بالذهاب إلى الكنيسة القريبة لمعرفة مواعيد فتحها. لما سألتْني عن السبب، أخبرتها بأنني ذهبت مرتين، في اليومين السابقين، إلى الكنيسة من دون أن أنجح في الدخول إليها، لأنها كانت مقفلة. ثم راحت تستجوبني: ما تحتاج من زيارتها؟ فأخبرتها بأن أمي لما عرفت بأنني أسكن قرب كنيسة عريقة طالبتني بجلب ماء مباركة منها لها. كان في ودي واقعاً معرفة السبب الذي يدعو إلى إقفال الكنيسة لكي أتدبر حجة تفسِّر فشلي في جلب الماء المقدّسة منها. ذلك أنني عرفت مواعيد الكنيسة للقداس، بعد أن اطَّلعت عليها في إعلان خاص على بوابتها، لكنني لم أجد أحداً للاستفسار واقعاً. ولما دخلت إلى المستشفى الملاصق لها، لم أجد أحداً ممّن يمكن أن يشرح لي الأمر.

استعادت دانييلا توترها، بقوة أكبر هذه المرة، لما أخبرتها بأنني زرت المستشفى القريب، والذي يخص العجائز على ما

يبدو. . . قامت من مقعدها، وأخبرتني بأنها تطلب الراحة قليلاً في الغرفة، إذ إنها متعبة من ليلة البارحة. وأن هذا ما يفسر توترها.

قمتُ معها، ورافقتها إلى الغرفة، ولما طلبتُ الخروج من جديد، اقتربتُ منها، واستأذنتُها بالتنزّه وحدي، مثلما يستأذن زوجٌ سعيدٌ زوجته بالخروج في يوم عطلة، لكنها نبهتني مثلما تنبه أمٌّ ابنَها يوم العطلة من رفقة أبناء السوء.

مررتُ بالمستشفى من جديد. دخلت إليه، لأول مرة، بخلاف ما طلبت دانييلا مني.

وجدتُ عجوزاً تنتظر في بهو الاستقبال الطولي، وهي على عكازين، إلى أن أتت ابنتها على الأرجح، بعد أن ركنت سيارتها من دون شك، لكي تقلها إلى الطابق العلوي، حيث العيادات وغرف المرضى. عجوز أخرى كانت تجلس في البهو على كرسي ميكانيكية، من دون أن تبالي بشيء، ومن دون أن تبدو عليها تعابير انتظار بدورها. بقيت لاهية عن نفسها، إلى أن أتت راهبتان، بلباس علوي أسود وتنورة بيضاء واسعة: واحدة منهما راحت تدفع العجوز إلى حيث المصعد الكهربائي، والثانية كانت تجر خلفها عربة ميكانيكية صغيرة للتبضع، في المحل التجاري القريب من مستشفى القديسة إليزابيت.

لم يعُد هناك شيء لأرقبه، فوقفت ثم صعدت على الدرج، بدل المصعد الكهربائي، فإذا بي أجد على يميني صفاً طويلاً من الغرف، من عيادات الأطباء على ما قدرت، إذ كان البعض يخرج منها بلباسات بيضاء هي المعروفة لهم، لكن ماذا أفعل هنا؟ ما هذا

الفضول المزيد؟ ألا أكون أطبق طريقة دانييلا نفسها في «الدخول» إلى عالم البشر من خلال شخوص اللوحات؟ أأفعل ذلك لأن دانييلا توترت بمجرد حديثي عن المستشفى فأدخلُ إليه، وأمعنُ في مراقبته، وأدون ما يجري فيه، بل أتخيل ما يجري فيه، كما لو أنني سأجد سراً فيه يندلع أمام ناظري، أو على مسامعي، مثل قصة دانييلا الرهيبة ليلة أمس؟

عند الخروج إلى الشارع، على مقربة من الفندق، وجدت بلاطة رخامية تشير إلى أن لودفيغ فون بيتهوفن قضى نحبه في هذا المبنى.

رحتُ أتنقل من دون وجهة بيِّنة، عدا أنني انتبهت إلى أنني لم أصطحب معي خريطة المترو. كنت أحتاج إلى التمشي، إلى استعادة ما روته ليل أمس، إلى إنزاله في ما سبق لي عيشه معها. ذلك أنني كنت أحتفظ بسيرة مهزوزة عنها، أتنقل فيها من حال إلى حال، كما لو أنها رواية قيد التأليف، من دون أن يقرِّر الروائي مسارات الشخصيات، أو إحداها، تماماً. وجدتُ في ما عاشتْه ما يبرِّر شهوانيتها المتفاقمة أحياناً، وغضبها المفاجىء، من دون سبب ظاهر، أو لأسباب لا تريد الإفصاح عنها. باتت الأسرار تتساقط، من دون أن يختفي توترها، ذلك أنه ملازم، بل مكوِّن، لما عاشته، فلا تقوى فكاكاً منه. يجب أن أكون متفهماً لحالتها، أن أكون أكثر قرباً منها، أكثر شهوانية لكي ألبي جوعها القديم. أأعود إلى الفندق لكي أخفِّف عنها، أم أتمتع بمشاويري مثلما أفعل، وحيداً، في شوارع ستراسبور وأزقتها الضيقة؟ هل أتصل بكريستين، أم بفيرا، أم بفضيلة؟ أهن نسائي فعلاً، وأنا لم أذق قبلة من أيّ واحدة منهن؟ أهنّ «حريمي»، وأنا لستُ بشهريار؟

فوق رصيف المترو تردّدت في اتخاذ الوجهة المقصودة إلى

وسط المدينة، فكان أن سألت إحداهن: أعليَّ انتظار المترو على هذا الرصيف أم على الرصيف المقابل؟ أشارت إليّ السيدة بالوقوف فوق الرصيف الذي تقف عليه، وهو ما فعلت. لكنني انتبهت إلى وجود خريطة على جدران المحطة، فعدت إليها، فاستدركت خطأ وقوفي، فكان من السيدة أن اقتربت مني، وقالت لي: أتعلم؟ النساء يبحثن عن الاتصال في هذه الأحوال، أما الرجال فيتحققون ويتأكدون من صحة الأمر.

هذا ما استعدتُه بعد ركوبي الحافلة، وإذا بي أنتبه إلى أن السيدة كانت تريد معاكستي، بل فتح حوار معي. كنت غافلاً عمّا يجري أمامي، ولي. هل أعجبتُها؟ هل استوقفها لون بشرتي المعتم؟ ماذا لو جرى الأمر بحضور دانييلا، أكانت ستغضب من دون شك؟ أما كانت النمساوية ستقول لي: من تكون هذه السيدة إلى جانبك!؟ لكنني استبعدت هذه الأسئلة كلها، إذ قلت: أما تحدثتْ معي امرأة، إلا ونصبتُ لها شبكة لصيدي؟ أأكون طريدة دوماً، ولِمَ لا أكون صياداً؟

في الحافلة قضبان حديد صغيرة وعالية، ذات لون أرجواني للركاب، تتأرجح مع اهتزاز المترو فوق سككه، من دون أن تمتد إليها يد واحدة للإمساك بأحدها، ذلك أنني كنت وحدي في الحافلة من دون راكب غيري، في ساعة الظهيرة هذه، فيما كانت النمساوية الظريفة قد سلكت وجهة أخرى.

لا يجد الصبي، أو الصبية، أو هذه السيدة، أي حرج في إجابتي عمّا أطلب، وعن الوجهة التي أقصد، على الرغم من أن هذا وهذه اضطرا إلى نزع سماعات الجوال الموسيقي عن أذنيهما... يجيبانني بالإنكليزية، فيما لم تحسن إحدى المسنات الإجابة إلا بالألمانية...

لحسن الحظ أتقن أكثر من لغة، ويتيح لي تجوالي بمفردي اختبارها، في المحادثة عند استيضاح وجهة السير في خارطة المترو أو الناقلات الكهربائية، أو في المقهى وغيرها، ممّا أطلبه عمداً، ولا سيما اختبار الألمانية التي ما أتيح لي تجريبها بعدُ في فيينا.
لحسن حظي، فعلاً، إذ يتاح لي تجريب لغاتي التي درست في الكتب، في الشارع، مع الناس العابرين. وهو ما خبرته في ستراسبور نفسها، حيث إن فرنسيتي نفسها، التي كنت أظنها لغة أهل المدينة أنفسهم بدت لي لغة «ثقافية»، «كتبية» بالأحرى... فكيف إن كان بعض أهل ستراسبور يتكلمون لغة «ألزاسية»، لا تعدو كونها لغة متفرعة، متدرجة، متحولة عن الألمانية نفسها، طالما أن ستراسبور عاشت عهداً مديداً مع مدن وقرى أخرى من منطقة «الألزاس»، التي تندرج فيها إدارياً، في نطاق ألمانيا.
إلا أن ألمانيتي لم تسعفني أكثر في فيينا، إذ تنبهت إلى أن أهلها يستعملون الألمانية مع فروقات في النطق، ومع ألفاظ خاصة بهم ما كنت أحسن فهمها لولا السياق الذي كان يسعفني في التعويض عمّا يفوتني. أما العربية فقد اضطررتُ إلى التلفظ بها مع النادل السوري في المقهى، فيما يقتصر استعمالي لها في فرنسا على العمل المكتبي، إذ باتت لغة أمراء الإرهاب وفقهائه.

الأربعاء 19 فبراير 2014

انفجاران في بئر حسن صباحاً: هذا ما قرأتُ في رسالة هاتفية من والدي، ما أن شغّلتُ هاتفي النقال من جديد، كما وقعت على رسالة صوتية من فيرا تستعلمني فيها عن غيابي. حرائق في وسط

كيف: على شاشة التلفزيون. سألتني دانييلا: أتريد ترجمة للأخبار؟ كانت تظن بأنني لا أعرف الألمانية، وشاشات التلفزيون لا تعرض سوى قنوات بالألمانية. شكرتُها بالطبع، فيما تهربت طبعاً من سماع القناة العربية الوحيدة: «الجزيرة».

من نافذة الغرفة، أتبين غيوماً مطبقة مثل غطاء محكم فوق طنجرة، هي نحن الذين نستعد لمباشرة يوم جديد، من دون أن نرى الشمس إلا قبل ظهيرة أمس ولساعتين.

أما في الباص، فقد وقعنا على رجل ضخم، له كرش سمين، ولحية صهباء طويلة، من دون تشذيب، وعيناه جاحظتان. قلت لدانييلا: لعله خرج للتو من «متحف التاريخ الطبيعي» الذي نتوجه إليه.

تأكدت مرة جديدة من أن دانييلا لم تدرس الفن في صورة نظامية، إذ لا تعنيها، أو لا تحسن الكلام أبداً عن مجموعات الفن القديم المختلفة، فلا تبالي بالفن الفرعوني ومجموعاته العديدة، ولا بالفن الروماني، ولا حتى بالفن الأوروبي القديم أو الحديث. ما يستوقفها هي أعمال بعينها، سبق لها أن رأتها أو درستها، أو تأملتْها مديداً.

لكنني استعنتُ بطريقة دانييلا في متابعة أعمال الفن القديم، وقلت لها: ألا تظنين أن طريقتك تصلح بدورها لرؤية هذه الأعمال بطريقة جديدة، مفاجئة، مدهشة ربما؟ لمّا استفسرتني عمّا أريد قوله، قلت لها: ألا ترين أن هذه الأعمال الفنية خدمت في الطقوس، في الحكم، في العيش، في الملبس، في الزينة البيتية أو الآدمية؟... ألا تظنين أنها تكاد أن تكون مرايا لمن كانوا يحملونها؟ دانييلا لم تجبْ، عدا أنها عادت إلى محادثة محاورها أو

محاوريها على هاتفها الجوال، إذ كانت تتغيب وتخرج من القاعة مخافة إزعاج الزوار، ثم تلتحق بي من جديد. أيعود هذا لكوننا نغادر فيينا يوم غد؟

في المقهى-المطعم، تحت القبة الساحرة، مسنات ومسنون في الغالب، من دون بهرجة أو زينة فاقعة، بخلاف الباريسيات اللواتي يتابعن في المترو زينتهن الصباحية من دون حرج، طالما أنها تُظهرهن في أحلى حلة. غير أن للنمساويات لطفاً لامتناهياً، ما لم أقع عليه في باريس، إذ لا تتأخر النمساوية عن التوقف، تحت حبات المطر، للإجابة عن سؤال أو استفسار.

في العودة إلى قاعات المتحف المتبقية وجدتْ دانييلا بعضاً من حيويتها، إذ أوقفتني عند لوحات بعينها، مثل لوحة الفنان ج. باك، «الابن الضال»، التي تعود إلى العام 1637، التي يَظهر فيها أحدهم، وهو يداعب ثدي إحدى السيدات: أهكذا كان «الابن الضال» في الكتاب الديني القديم؟ ألا يكون الفنان قد صور حبيبته، أو من يشتهي اللعب بثدييها؟ كما توقفتُ عند لوحات بروغل، «رسام الحياة» كما تسميه، وتُظهر لي تصويره لراهبة وراهب وهما ينظران إلى رجل سمين جالس فوق دنٍّ من الشراب: ألا تلاحظ أننا قلما نشاهد لوحات تصور راهبة أو راهبات؟ قلْ لي: من أعطى مَن منديل الرأس، سواء للسيدة العذراء أو للراهبة؟ أم هو لباس النساء القديمات المحتشم انتقل إلى اللوحات، ثم بعد ذلك إلى صورة العذراء وإلى لباس الراهبات في أديرتهن؟

كانت دانييلا تثير فجأة أسئلة عميقة، ممّا لا أحسن متابعته، بل التفكير فيه، إذ استعدتُ صور النساء في قريتي، في أحاديث أمي عن أن والدتها وجدّتها ونساء القرية في تلك العقود البعيدة ما كنَّ ينتقلن

لسماع القداس إلا ورؤوسهن مغطاة تماماً، عدا أنهن كن يرتدين ألبسة تغطي الكُمَّين تماماً...

أما تحفة كلام دانييلا فأتت في حديثها عن الفنان ألبرخ دورر، عن لوحته في الإمبراطور شارلمان، الذي وحَّدَ ألمانيا وغيرها في العام 800، إذ أظهره واضعاً على رأسه تاجاً لم يكن معروفاً قبل القرن العاشر: هذا ما رسمه دورر في القرن السادس عشر، وأراد من هذا التزوير إظهار أنّ حكم أسرة «الهابسبور»، التي حكمت النمسا وغيرها على مدى أكثر من خمسة قرون، له عمق تاريخي أكيد...

عاشرتْ دانييلا اللوحات مديداً، على ما يبدو. عاشرتها في كتاب، أو دليل معرض، أو في صور متفرقة؛ عاشرتها في متاحف وصالات عرض أحياناً. عاشرتها، مثلما تعاشر كتاباً، فتضمه إليها في قعداتها، أو في سريرها، أو عند التنقل في باص أو مترو. صارت المعاشرة تشبه «الدخول» الأليف إلى ما يتوافر في الصورة، كما يتوافر في الكتاب، ولا سيما في الرواية. ففي هذه تنعقد صلات بين القارىء وشخصيات الرواية، بين من يكون منها محبباً أو كريهاً، مما ينجذب إليه القارىء، في النفور منه أو في التقرب إليه.

«تدخل» إلى العمل الفني مثلما تدخل إلى بيت الجدة، أو إلى «التتخيتة»، التي نوضب فيها، كما في بيت جدي لأبي، الأغراض والمتبقيات القديمة من أثاث البيت، أو من ألعاب الطفولة، كما يحدث في حالتي. «تدخل» إليها، تتفقدها، وتتعرّف عمّا أصابها، حتى إنها، من فرط المعاشرة، قد تغضب منها، أو تحنو عليها. إذ إن بين المتلقي والعمل الفني ما يقيم خيوطاً لمودّة، لألفة متجددة.

«تدخل» إليه، إذ صارت تعرف تفاصيله، وما يحتوي عليه. هذا

ما يحرك المخيلة في العمل الفني أكثر من الرواية. المحتويات معدودة، وثابتة، في العمل الفني، فيما هي عديدة ومتحولة في السرد. هذا ما يتيح لها التنقل بين المحتويات، وتقليب النظر فيها، لدرجة أنها، في العمل الفني، تفتقد ما يقع قبله أو بعده، ما دعا إلى جلوس الشخص في هذه الوضعية، أو ما يصيبه قبل الجلوس أو بعده.

هكذا تنتقل دانييلا، مع العمل الفني، إلى فضاءات مادية واجتماعية وفردية، بعضها ممّا وقع فعلاً، أو ممّا يتم التخيل ابتداء منه. هكذا كان لها أن تروي عبر اللوحات، أن تقيم ربطاً بين علامات فيها وسياقات مكانية وزمانية ونفسية. ههكذا تتشكل للوحة، لبعضها، سيرة نسجتها دانييلا بنفسها، ممّا عرفته عن أمها لجدتها، أو ممّا تخيلته عنها. سيرة بالصورة، كما في القرون الوسطى، حيث كانت اللوحة المصورة للمؤمنين، وهم أميون في الغالب، تعوّض عما يقوله الكتاب الديني، ممّا يعتاد عليه أهل الأديرة والكنائس وحدهم من دون غيرهم.

لعل دانييلا أمضت جلسات وجلسات في تتبع أعمال فنية بعينها، ممّا استساغته أو حلا لها أن تسرد أو أن تبني لها سيرة متابعة، حيوية. ذلك أن ما تقوله يصيب اللوحات أكثر من التماثيل، إذ تبدو الأولى أكثر قابلية للسرد، على ما يبدو. ما تقوله فيها ينتسب إلى خيال اللوحة، مثلما ينتسب إلى خيال المتلقية نفسها، إلى ما تخمّنه فيها، أو تتوقعه، أو تتمنى حدوثه، أو تشتهيه. ذلك أن أكثر ما قالته لي لا يشير إلى دراسة فنية أبداً، فلا تتوقف عند لون، أو شكل، أو أسلوب معالجة، وغيرها من «عدة» الفن، التي يتعلمها دارس الفن بالضرورة.

كانت تواعد صور اللوحات مثلما نواعد أشخاصاً، أو ننتقل إلى أمكنة بعينها، لنا فيها مواعيد محتملة. كانت تتخير اللوحات وفقاً لروزنامة الأعياد، وما يمكن أن تجد لها من لوحات تناسبها. تختار اللوحة، أو أكثر من واحدة أحياناً، مثلما نختار، أو نقصد هذا الشخص، أو هذا المكان. تقصده، ثم «تدخل» إليه، بعد أن كانت قد تدبَّرت لها معه سيرة سابقة، أو إثر مواعيد سابقة لها معه. هذا ما كان ينقلها إلى فضاءات تحلق فيها مثل الملائكة التي تعلو أكثر من لوحة؛ تعلو مشدودة إلى سماء أبعد من الأزرق والغيوم والنسائم الطرية.

عاشرت اللوحات، حتى إنها باتت تقيم معها، مثلما نستأجر بيتاً مشتركاً مع غيرنا. بات لها معها علاقة مديدة، فتسألها، وتتحاور معها، وتغضب منها، وتُنيمها إلى جانبها في صمت الوحدة البارد. هكذا كانت تسعى أحياناً لمعرفة مزيدة، عن سيرة الفنان، أو عن صنع اللوحة، أو عمّا توفره الكتب الدينية من أخبار وسير. كانت تمضي أحياناً أبعد من ذلك، إذ ما كانت تتورع عن فتح النافذة المغلقة في اللوحة، أو عن الاجتماع بغيرها في مقصورة، أو حول مائدة...

كانت لها مع اللوحات عِشرة مديدة، متقلبة: لوحات ولوحات، منها ما ينمي روحانيتها المتوقدة، ومنها ما يُنزلها إلى هموم الأرض الفانية نفسها. ما خفَّف من النزاع بين اللوحات، ومن الاختصام حولها، هو أنها راحت تتبين أن فنانين اعتنوا بعملهم أكثر من عنايتهم بموضوعهم الديني أو المدني. كانوا معنيين بزاوية التصوير، أو بالمعالجة نفسها، أو بإيجاد تعاكسات وعلاقات «سرية» لهم مع موضوعات اللوحات نفسها: كيف يمكن فهم هذا العري المتفاقم في

اللوحات الدينية، فيما لم تجد سوى القليل منها مما يكشف عرياً بشرياً؟

بات التصوير، حتى الديني منه، مدنياً بالنسبة إليها. بات زمنياً يعكس أهواء وشهوات ورغبات وحاجات متأتية من زمن المصور، ومن حياته أحياناً، وإن كان هذا كله يتدثر تحت عباءة الدين أو الأسلوب الكلاسيكي، الإغريقي-الروماني.

هكذا أصبحت اللوحة، في حسابها، صنيعة المحترف، قبل أن تكون صنيعة أو مرآة السماء أو الكتاب الديني. باتت تعكس، بشكل خفي، ما يقع حولها، في المحترف، أو في مخيلة الفنان، أو في مكبوتاته نفسها.

باتت للَّوحة طلّة أخرى، مختلفة، بعد أن تكون قد مرَّرتها تحت أشعة نظرها، أو مخيلتها، أو شهواتها كذلك.

الخميس، 20 فبراير 2014

في هذا اليوم، في اليوم الأخير، ظهرت الشمس، كما وعدني «غوغل».

أكتب هذا صباحاً، على الرغم من كوني لا أميز تماماً بين انقضاء ليلة أمس وانبلاج صباح اليوم، إذ قضيت ليلة مؤرقة، تناوبتني فيها صور مزعجة وأخرى حلوة عمّا قرأت. كان لما اطلعتُ عليه، بين أوراق دانييلا الخاصة، أثرٌ أكيد، بل دافعٌ، عما كتبت عن «معاشرة» دانييلا للأعمال الفنية.

مكالمات دانييلا الهاتفية التي بدأت في المتحف يوم أمس، لم تنقطع بعد عودتنا إلى الفندق. لم أقوَ على سماع ما تتحدث عنه، إذ

كانت تخرج من المتحف إلى قاعة خارجية طبقاً لقواعد زيارة المتاحف، كما راحت تخرج من الغرفة كما لو أنها باتت تشكّ في كوني أُحسن الألمانية. كانت تخرج على عجل، من دون أن تكون قد سوت بعد حقيبتها، التي بدت محتوياتها مبعثرة، ومتراكمة على الأرض، وفي الخزانة من دون نظام.

هكذا تبينتُ بين هذه المحتويات «ألبوم» صور. وقعَ نظري بداية على لوحة دورر التي وقعنا عليها في المتحف، فظننت أنها اشترت نسخة منها من محل بيع التذكارات في أسفل المتحف. سحبت الصورة من مكانها، فإذا بي أجد غيرها عالقاً بها، وهو عدد من الصور. تعرفت سلفاً في الملف، في «الألبوم»، على صور لوحات مما شاهدنا في غير متحف، كما وقعت على غيرها مما لا أعرفه أبداً. ما استوقفني فيها هو كونها قديمة، مستعملة، عادت عليها الأصابع واستعملتها أكثر من مرة. ما يظهر في طيات الصور الورقية أحياناً، أو في مزق صغيرة طاولت بعض أطراف الصور أحياناً وغيرها من الإشارات الدالة على أن دانييلا «عاشرت» هذه الصور، قبل أن ترى اللوحات في حدّ ذاتها. هذا ما يظهر أيضاً في كون الصور متفاوتة الأحجام، أي لم تخضع لتصوير منسق وموحد الحجم، بل بان أن دانييلا، أو غيرها، عمل على تمزيق بعض هذه الصور من متونها، من كتبها أو من أدلة المعارض التي كانت جزءاً منها.

لكن وقوعي على الصور حمل معه مفاجأة صاعقة، إذ عثرت في «الألبوم» عينه على رسالة موضوعة في ظرف، ومرسلة إلى عنوان في برلين، من دون أن تكون قد أرسلت فعلاً، إذ بقيت في مظروفها المفتوح: الرسالة بالألمانية، ولدانييلا نفسها، كما يظهر في التوقيع في أسفل الرسالة، وتتوجه فيها إلى أردموته، وتخبرها فيها بأن

انتقالها إلى دير الراهبات في دَرْمشتاد حمل لها بعض الهدوء في طبيعته الساحرة، لكن مشاكلها الليلية تتفاقم. . . ماذا تفعل دانييلا في دير للراهبات؟

لا تحمل الرسالة تاريخاً، ولا يحمل مظروف الرسالة أي ختم بريد، ما يعني أنها كتبت وبقيت في عهدة دانييلا. هل جرَّبت كتابة الرسالة من دون أن ترسلها؟ هل كتبتها، وكانت هذه مسودتها، بدليل ورود تصحيحات في الألفاظ القليلة في الرسالة، ثم أرسلت نسخة منقحة لها؟ مَن أردموته هذه؟

لم أقوَ على إلقاء النظر المديد، والمتمهل، على الصور ولا سيما على الرسالة، إذ بلغني صوت خطوات دانييلا في الممشى، وهي خرجت من دون أن تغلق الباب، ما يناسب حركاتها المضطربة من جديد منذ يوم أمس.

أمضيتُ ليلة مضطربة، متقطعة، ما جعلني أعتذر عن ممارسة الجنس معها، على عادتنا ليلة بعد ليلة، ولأكثر من مرة أحياناً. الغريب هو أنها، هي بدورها، لم تطلب ذلك أو تُشدِّد عليه.

أخيراً وجدت الكنيسة، إلى جانب الفندق، مفتوحة هذا الصباح، ولكن في قسمها الخلفي فقط، فيما ينقفل باب حديدٍ ضخم على قسمها الأساسي والأمامي؛ لكنني أقوى، من خلال فتحاته، على رؤية اللوحة الهائلة التي تعلو المذبح الأساسي: صورة السيدة العذراء، ولكن من دون أن أتبين فقراتها. كانت هناك سيدة واحدة راكعة، ومستغرقة في الصلاة. أكانت دانييلا راهبة؟

ضحكتُ لمجرد ورود الفكرة في رأسي. تركتُها في الفندق ترتب

أغراض حقيبتها، التي بقيت مفتوحة طوال الليل، من دون أن أحسن الاقتراب منها، أو فحص محتوياتها. كانت الحقيبة تقع من جهة نومي في السرير. كانت بمتناولي من دون أن أقترب منها. كانت مثل دانييلا: بمتناولي، بين يدي، من دون أن أتعرف عليها فعلاً.

كان في مقدورنا التجوّل لبعض الوقت في وسط المدينة، في «مجمَّع هوفبورغ»، التاريخي والحكومي اليوم.

كنت قد اشترطت على دانييلا عدم زيارة أي متحف، والاكتفاء بالتنزّه وحده، خصوصاً وأن الشمس كانت تتلألأ فوق وجوه الجالسين المسترخين فوق كراسيهم، أو حتى على هيئة الأحصنة التي كانت تقل ركاباً وسياحاً على الأرجح، ممّن يطلبون العودة فوق عربة الجياد، إلى ليالي فيينا الزاهرة، لياليها الإمبراطورية، التي بلغت حتى المطربة أسمهان في القاهرة، في غنائها عن «ليالي الأنس في فيينا».

نتسكع من جديد في الوسط القديم، مع المشاة الذين زاد عددهم عمّا كانوا عليه في تمشينا السابق. نتوقف أمام كنيسة قيد الترميم، كنيسة القديس بطرس، التي تعلو واجهتها الأمامية صورة كبيرة للثريا التي يتم ترميمها...

على مقعد، قبل الدخول إلى الكنيسة، وقعت على فردة كفّ شتوي موضوعة، مع خريطة سياحية، فوق مقعد خشبي، بعد أن نسيَها أحد السياح من دون شك. لمّا خرجنا من الكنيسة، بعد سماعنا لصوت الأرغن الصادح فيها، وجدت رجلاً مسناً يجلس فوق المقعد عينه؛ ولما ترك مكانه، وجدت الكف ينتظر كفهِ الآخر فوق المقعد.

الفصل الرابع

الترجمان قيد الامتحان

صاحَبَني أنطوان غالان في هذه الرحلة أيضاً، بعد رحلة باريس السابقة. صاحبني في حقيبتي الجلدية، ووصل إلى شقتي في ستراسبور منهكاً مثلي. وصلت أوراقه مطوية، متسخة في بعضها، مثل ثيابي تماماً: الثياب، أغسلُها في مغسلة عمومية، ثم أكويها في مصبغة خاصة، أما الأوراق المستنسخة من «يومياته»، فهي مناسبة للعمل عليها، على الرغم من وسخ القهوة الذي طاول بعض أوراقها، والتشديدات بالقلم الرصاص أحياناً، وبقلم الحبر الناشف أحياناً أخرى، فوق سطورها. الثياب تتهيأ من جديد، أما الأوراق فكأنها تعود من جديد إلى جذورها، فتزهر مرة رابعة وخامسة وتالية، وتبدو ملتفة حول أغصانها، متداخلة وغنية وملتبسة.

قمتُ بـ «الدخول» إلى عالم غالان، من خلال أوراقه وما كُتب عنه. كنت أعتمد «طريقة» دانييلا في العيش الممتد مع شخوصها من حيث لا أدري. إلا أنني خاصمت وصالحت غالان في أكثر من لحظة، في أكثر من مقطع، مثلما حصل لي مع دانييلا نفسها. هذا دليل على تعلقي به، ولكن أهو دليل على تعلقي بها، وقد انكشف عنها ما انكشف؟

ما كنت أعرف عنها غير اسمها الأول، ما جعلني أسارع إلى

تدوين اسمها العائلي بالكامل، كما ظهر على ظهر الرسالة في حقيبتها: دانييلا شوغولا. وهو ما أخبرتني به سابقاً عاملة الفندق في ستراسبور... كما تعمّدت، صباح المغادرة من الفندق، تصويرها أمام بوابة قاعة الاستقبال الخارجية؛ لم تمانع، مثلما حاولت أول مرة، بل أطلقت صوبي ابتسامة قلّما وقعتُ عليها، إذ بانت أسنانها تماماً: صوَّرتُها أكثر من صورة، ولا سيما في لقطات مقربة، كما لو أنني ألتقط لها صورة فوتوغرافية تصلح لبطاقة هوية. ذلك أنني دخلت إلى الفندق معها في هيئة عشيق محتمل، وخرجت منه معها في هيئة محقِّق محتمل.

محاضرتي، اليوم، على الرغم من تعب الأيام الستة في فيينا، تناولتْ، في وقفة أولى، أنطوان غالان نفسه. هذا ما جمعتُه في سؤال أول: هل كان غالان مترجماً؟ هل طلَبَ الترجمة فعلاً؟

كنت قد نجحت في استنساخ المجلد الأول من «جريدته» (كما يسمونها)، من «يومياته» (كما نسميها ونترجمها في العربية)، أثناء إقامته في إستانبول، بين العام 1672 والعام 1673، لما رافق سفير فرنسا إليها، الماركيز دو نوانتيل. وكان المستشرق شارل شِفِر قد أعدّها للنشر، وأرفقها بعدد من الحواشي المفيدة، وأقدم على نشرها في العام 1881. يتبين، ممّا كتب شفر، أن غالان كان الشخص المناسب لمرافقة السفير في مهمته، التي علَّق عليها تجّار مرسيليا وغيرهم أهمية كبيرة، لتجديد «الامتيازات» السابقة التي حصلت عليها فرنسا من السلطنة. فقد كان غالان عارفاً بغير لغة، مثل العربية

والعبرية واليونانية العامية واللاتينية وغيرها، ما يحتاجه أي سفير مرموق في عاصمة السلطنة.

انطلقت الرحلة من تولون في 20 أغسطس من سنة 1670، وكان دور غالان، بعد وصوله، أن يتولى مراسلات السفير الرسمية، خصوصاً باللاتينية واليونانية العامية، طالما أنه يحتاج إلى مراسلات منتظمة مع الفاتيكان، ومع رجال الدين في «الأراضي المقدسة»، ومع أساقفة الكنيسة الشرقية، إذ كان الملك الفرنسي يأمل بالحصول من رؤساء الطوائف الشرقية، أي اليونانية خصوصاً، على «شهادات» في ثبوت إيمانهم القويم.

لم يكن غالان، المولود في العام 1646، مهيئاً تماماً لمثل هذه المهمة، وهو الابن السابع في عائلة نشأت في «البيكاردي»، من دون صلات بمواقع النفوذ في باريس، وقد فقد والده في عمر مبكر. وهذا يصحّ في ما كان يعرفه من لغات، إذ لم يكن ضليعاً في أكثر من لغتين، من دون العربية، غير أن ظروف الحياة ساعدته، ما جعل منه «صياد لغات»، كما أسميه، بل «صياداً ثقافياً»، كما صححتُ تسميته بعد وقت، بعد تعرفي على المزيد من خبراته وأعماله المتعددة في «الشرقيات».

وصلتْ الرحلة إلى إستانبول في 22 أكتوبر، ونتأكد من مجرد وصوله إليها، من مجرد كتاباته الأولى، أنه يقوم بأوسع من الترجمة نفسها. المدينة، بل العاصمة الإمبراطورية، التي حلَّ فيها مترجماً، يسميها مثل غيره من المستشرقين: القسطنطينية، عملاً باسمها القديم، فيما يسميها العثمانيون (ثم الأتراك): إستانبول، ويكتبها الأتراك، والعثمانيون قبلهم، بالأحرف العربية على هذه الشاكلة: إستانبول. لم يكن المترجم عارفاً متمكناً من العربية، بل كان له، في

مدينته الجديدة، أن يتابع بانتظام دروساً كان يتكفل بها المسمى: «خوجا» لعدد من الصبيان، الذين يتم تأهيلهم لغوياً لأعمال الترجمة بعد سنوات.

لنا أن ننتظر سنوات قبل أن يتعرف غالان على بعض الحكايات الشرقية، قبل أن يترجمها. له أن يقوم بأكثر من رحلة إلى الشرق بعد الأولى مع السفير: رحلة ثانية، ثم ثالثة (في العام 1679) يزور فيها جزراً ومدناً عديدة، مثل: قبرص وعكا ويافا واللد والرملة والقدس والبحر الميت ووادي أريحا وعسقلان وغزة وغيرها. في هذه الرحلة الأخيرة، التي يقوم بها لصالح «شركة الهند الشرقية»، يتعلم العربية بقوة (فضلاً عن التركية والفارسية)، بعد أن طلب منه كبير الوزراء الفرنسيين كولبير القيامَ بجمع وشراء الشرقيات «النادرة». هذا ما نجح فيه، وبدأ فيه أساساً، منذ رحلته الأولى، إذ كان يُقدم على شراء مواد شرقية مختلفة، مثل: أحجار صغيرة من المعادن النادرة، مخطوطات مختلفة، أحجار لعبة شطرنج، كتاب **عجائب المخلوقات** للقزويني، وروزنامة وغيرها الكثير.

كان غالان «مستخدَماً ملكياً»، إذا جاز القول، قبل أن يعود إلى فرنسا، إلى «النورماندي الواطئة»، ويشرع في ترجمة ما سيطلق عليه اسم: **ألف ليلة وليلة**، ويباشر بنشر ترجمته ابتداء من العام 1704. لكنه لن يعرف الاعتراف بقيمة علمه إلا في العام 1709، حين سيتم تعيينه أستاذاً للغة العربية في «المعهد الملكي»، قبل أن يموت بعد ذلك بسنوات، في العام 1715، وهو في التاسعة والستين من عمره: «كان حظه في الحياة رديئاً، لكنه ترك وراءه مجداً أكيداً لورثته الشهيرين»، كما كتب عنه شفر.

محاضرتي راقت لطلابي، وراقت لهم سيرة غالان خصوصاً، وانتقدَ البعض تشكيكي بها، وبخياراته: ماذا يعني أنه لم يكن مترجماً منذ بداياته الدراسية والاحترافية؟! كيف لا تكون سيرته جديرة بالاهتمام، وهو بلغ ما لم يبلغه إلا القلة، أي الجلوس على كرسي أستاذية العربية في أعلى معهد علمي في فرنسا، بل في أوروبا؟! كيف لا يكون مترجماً جديراً بالعناية والقيمة، وهو الذي تنبّه قبل غيره، من عرب ومسلمين وأوروبيين، إلى رائعة الحكايات الشرقية؟!

كان لكلامهم أثر أكيد على ما كنت أسوقه، بل لاحظت أنهم أدركوا خفايا موقفي منه، وإن لم أصرح به بوضوح. لكنني رددتُ عليهم بأن ما يستوقفني في كلامهم هو حديثهم عنه كما لو أنه «نجم»، أو «ستار» بلغة اليوم، إذ راقتهم فيه «قصة النجاح»، كما يسميها الأميركيون في بعض سيناريوهاتهم للشاشة الكبيرة.

هذا ما تابعَه معي، في مكتبي، بعض الطلبة ممّن لحقوا بي، مع كريستين طبعاً، لاستكمال النقاش، أو لمتابعة بحوثهم التي أشرفُ عليها أو أتابعها معهم. كان في بعض ما يبحثون فيه، أو يتوصلون إليه، ما يثير فضولي، على الرغم من أنه يتعدّى نطاق الترجمة نفسها، ليبلغ نطاق الأدب نفسه، والثقافة العربية والإسلامية عموماً.

أحد الطلبة، أنطوان بدوره، ممّن لم أنتبه إليه سابقاً في أيٍّ من محاضراتي، استوقفني، بل أفادني كثيراً في ما قال، في ما كتب وعرضه عليّ لإبداء الرأي فيه. استوقفتني جديته البالغة، وكيف أنه عاد إلى مواد قديمة، ودقّقَ فيها، وفي ثنايا ما تقول وتدافع عنه. إذ عرضَ، في تقريره، لكثير من الآراء التي قيلت في «أصل» الحكايات الشرقية، عند باحثين مختلفين، ألمان وفرنسيين، إثر صدور ترجمة

الحكايات بالفرنسية. هذا ما شمل باحثين مثل هامر الألماني، أو كوسان دو برسيفال ولانغليه الفرنسيين وغيرهم، ممن اعتنوا بـ«الأصل»، غير متوقفين عند الترجمة نفسها. وقد عرض أنطوان ما قاله سلفستر دو ساسي خصوصاً، في «مطارحة» قدَّمها لأعضاء «الأكاديمية»، واستعاد فيها طروحات سابقيه من الدارسين، مفنداً إياها، خالصاً منها - حسب التلميذ أنطوان - إلى مجموعة من التأكيدات، التي تلتقي منذ ذلك الوقت مع كثير ممّا نعرفه، اليوم، عن الكتاب الشهير. هذا ما أجملَه في الخلاصات التالية (التي أنقلُها عنه):

- أصل الكتاب، الماثل في ترجمة غالان، لا يعود إلى أبعد من أربعة قرون عن تاريخ الترجمة؛

- يعود أصل الحكايات الأكيد إلى الهند، في صيغة فارسية لها، قبل أن يتم نقلها إلى العربية؛

- يتضح في الحكايات المترجمة كونها تنتسب إلى أصول مختلفة، منها ما لا صلة أكيدة له بأصل الكتاب، مثل رحلات السندباد البحري السبع وغيرها، ومنها ما يعود إلى متون مصرية وعراقية خصوصاً؛

- يتضح أن ما يرد في الكتاب لا يعدو كونه جزءاً قليلاً ممّا كان عليه الكتاب في أصله الأول؛

- تنتسب عربية الكتاب إلى عربية عامية، أو «متدهورة».

دعوت أنطوان إلى طلب موعد آخر معي، لاستكمال مناقشة ما كتبه في «تقريره» البحثي، خصوصاً وأن بعض ما أورده أربكني، ولم يجعلني قادراً على النقاش فيه، فكيف على البتّ فيه. قبل أن يخرج من مكتبي، سألتُه ما إذا كان مستعداً لتعليم إحدى الطالبات، أي ابنة

فضيلة، فاعتذر عن ذلك لانشغاله في عمل إداري في المكتبة البلدية لستراسبور. كريستين رفضت بدورها هذا العمل، لانشغالها، هي الأخرى، بعمل تطوعي في إحدى الجمعيات النسائية.

ذكّرتني كريستين بموعد المحاضرة بعد ثلاثة أيام، عن «الزواج للجميع»؛ وأخبرتني بأنها تضع اللمسات الأخيرة على قائمة محتويات مكتبة البروفسور الراحل. وما أن أدارت ظهرها للخروج من مكتبي، عادت بخطواتها إلى الخلف، وبادرتني: أيعنيكَ العشاء معنا بعد المحاضرة؟ قالتها، وأرفقت كلماتها بابتسامة عذبة، ما جعلني أقول: ألأعرفُ طالبتي حقاً؟

اشتقتُ إلى شقتي.

هذا ما شعرتُ به بمجرد وصولي ليلاً إليها، بعد رحلة القطار الطويلة. إلا أن الوقت كان كافياً لتدبير مواد وأفكار محاضرتي في اليوم التالي. لكنني في الصباح، أمام المرآة، وأنا أهمُّ بحلق ذقني، انتبهت إلى بروز شعرة بيضاء في غرة شعري: أيعقل أن أراها، وأنا تجاوزت الثلاثين بسنتين، ليس إلا! أم أن ما عشتُه في فيينا جلب لي حملاً ثقيلاً، ما زاد من شعوري بالكبر؟

وماذا عن الرجل الذي طلب التدقيق في أوراقي؟ كيف يحدث أنني وقعتُ عليه، على مقربة من العمارة، لما أنرت شقتي، واقتربت من النافذة للتأكد من صحة الحبقة؟ أهو يتعقبني؟ أهو يرصدني؟

قلما كانت دانييلا تفترق عني بعد عودتي. صورُها، العذبة والمربكة، تحتلني مصحوبة، هذه المرة، بأسئلة جديدة، مزيدة، غير السابقة ومعها. هذا ما كنت أبعدُه عني من دون أن يبتعد، خصوصاً

وأن دروس «تربيتي» معها فاقت ما حصَّله فريدريك مع السيدة أرنو، بل فاقت ما عشتُه مع صديقي في شاليه الأرز، قبل سنوات، ومع الأوكرانية خصوصاً، التي لم تكن بالمدرِّسة الصالحة، كما انتهيت إلى التقدير منذ ذلك الوقت.

رفضتُ تكرار التجربة مرة ثانية، في الشاليه الصيفية لأهل صديقي على شاطىء البحر، ما كشف لصديقي كوني لم أرتح للتجربة الأولى، بخلاف ما أبلغتُه به في طريق العودة، بعد إيصال الأوكرانيتين إلى منتجعهما على الشاطىء: كانت ليلة من العمر... ما كنت أتوقف عن ممارسة الجنس، حتى أباشره من جديد... هذا ما قلتُه له، فيما تعثرتْ أموري معها بمجرد دخولنا إلى الشقة الصغيرة، إذ بادرتني فوراً بالمبلغ المالي المستحق. وما أن تسلمتْه، حتى نزعت ثيابها تماماً، واستلقت على الفراش، بعد أن وضعت على المنضدة الصغيرة قرب السرير العلب البلاستيكية لأكثر من واقٍ في العملية الجنسية، كانت تضعها في الجيب الخلفي لبنطلون الجينز. وقبل أن أباشر أي حركة معها، نبهتني إلى أن تقبيل فمها ممنوع، فيما التقبيل الآخر، أينما كان، مسموح، لها ولي.

نظام مدروس، متقن، محسوب، فيما كنت أجرِّب محاولة أولى، جنسية، بالكامل، ما لم يكن صديقي قد عرفه عني. ذلك أنني كنت قد أخبرتُه بأنني عرفت الجنس أكثر من مرة، مع جارة لأهلي: كانت امرأة مشتهاة فعلاً، لكن الأمر لم يتعدَّ واقعاً غير المسايرة والملاطفة، من دون أن يبلغ الممارسة الجنسية نفسها. مع أنها كانت توحي بحركاتها، ببعض أقوالها الملغزة، بأنها مستعدة للذهاب أبعد معي، خصوصاً وأن زوجها المهندس يعمل في قطر، ويحلُّ في بيتهما مرة واحدة في الشهر الواحد لأيام معدودة. هممتُ

أكثر من مرة على الإقدام، على استعجال ما كنت أظن أنه ممكن، محتمل، فيما كنت لا أجرؤ على ذلك واقعاً.

كانت الأوكرانية شهية أكثر من جارتي، لكنها كانت مثل المومسات اللواتي يجلسن في منصة للعرض، في بعض شوارع بلجيكا: خبيرة، مجربة، لكن باردة، وتجيد بلوغ النتيجة على عجل. هذا ما حصل لي معها بمجرد مجامعتها لأول مرة، إذ رحت أستمع إلى فحيحها، الذي بدا اصطناعياً تماماً. إلا أنني قلت العكس عمّا يجري بيني وبينها لصديقي، لما التقينا على مائدة العشاء سوياً في مطعم الفندق، بينما كان صديقي قد طلبَ عشاء للأوكرانيتين في شقتينا من دوننا.

فضيلة ظهرت على طاولتي في المطعم الجامعي، ما أن وضعتُ صينية الأكل عليها. سألتني، من دون مقدمات: ماذا فعلت بمدرِّسة مساعدة لابنتي؟ اعتذرتُ منها، لأنني لم أنجح، قبل يوم، في إيجاد طالبة أو طالب مناسبَين لهذا العمل. ثم أكملتْ كلامها: أرجوكَ... ماذا أفعل؟ قالتْها بشيء من الحرج الممتزج بألم بدا على ملامحها المشدودة. ولما لم أحسن إيجاد عبارة أو جملة لاستكمال كلامها معي، توجّهت صوبي بجملة غلب فيها الضياع على الألم: أرجوكَ... لا أريد أن أخسر ابنتي... لا أريد لها مصيراً مثل غيرها من فتيات العائلات المهاجرة، أي العائلات الأمية. فكان أن وقفتُ، وطالبتُها برقم هاتفها، على أن أتصل بها صباح الغد، صباح الأحد، في أبعد تقدير.

كنت مشغولاً في هذا اليوم، وهو يوم عطلة، وبعد غياب ما

يقرب من الأسبوع عن شقتي، بغسل ثيابي في مغسلة عمومية، وبشراء حاجياتي من المساحة التجارية الكبيرة، فضلاً عن الجلوس الهادىء للتأمل في ما عايشت في فيينا، وفي جسدي خصوصاً مع دانييلا. كنت أحتاج إلى بعض الوقت أيضاً للتفكير في ما كنت قد توصلت إليه، وهو قبولي بتدريس ابنتها لعدد من الساعات.

كنت منساقاً عملياً لقبول عرضها، وهي كانت، في نوع من التجرؤ اللطيف، قد طالبتني به في حديثها السابق معي: عدة ساعات، وينقضي الأمر، أليس كذلك؟ هذا ما قلته وردَّدته، في ما يشبه عملية إقناع ضمنية. وهو ما لن يخرب إيقاع حياتي أبداً، لكنه كان يزعجني في أكثر من أمر. منها، كيف يحصل أن أستاذاً جامعياً يعلِّم فتاة صغيرة، ابنة أم مهاجرة ومطلقة من تونس؟! هل سأتقاضى منها راتباً على هذا العمل، وهي لا تُحصِّل من دون شك مبلغاً يساوي الألف يورو، الحد الأدني للأجور؟ أأكون، إن رفضتُ أي مكافأة، عاملاً في جمعية مدنية لمساعدة بنات العائلات المهاجرة؟

هذا ما رحتُ أستعيده، وأنا في الباص، أو بعد عودتي بحاجياتي المختلفة، ثم في الشقة، لما رحت أتذكر الدقائق القليلة التي اقتصرت عليها زيارتها مع ابنتها لشقتي، بل ظهرت أسئلة أخرى أكثر إزعاجاً: هل أكون عامل خير، أو ناشطاً، من دون علمي، أو من دون انتسابي إلى أي جمعية؟ كيف أتردد دوماً في أكثر من مرة ولا ألبث أن أنقاد إليه؟ كيف أرفض اللقاء بدانييلا، أو دعوتها واستضافتها لي لستة أيام في فيينا، ثم أنقاد وراء ذلك مثل طفل مطيع أو مراهق مكبوت؟

ذلك أن غير أمر في حياتي، لا أختاره بنفسي، لا أقرره، بل أنساق إليه، من دون علمي، مثل من تقوده أمه أو والده إلى حيث

يشاء هذه أو تلك. أيعود هذا إلى تربيتي العائلية أم يعود إلى كوني مترجِماً؟ بل يمكن أن أسأل السؤال، أو أن أطرحه في صيغة أخرى: ألا أكون اخترت الترجمة إلا لكونها توافق هذا النوع من التربية أم أن هذه التربية هي التي قادتني إلى الترجمة؟

أهذا ما يفسر حذري الدائم؟ أهذا ما يجعلني أشبه بشرطي على الحدود: يدقق في كل ما يبلغه؟ أهذا ما يجعل عيني يقظة؟

أسئلة كثيرة، مربكة، لكنني أطرحها لأول مرة. ألا يعني هذا أن الإقامة الجديدة، بعيداً عن أهلي، وحدي، هي التي تمكّنني من دون شك من طرح هذه الاحتمالات، وربما من معايشتها؟

كانت فضيلة تسكن مع ابنتها في شقة متواضعة، في حي فرنسي الملامح، لا يشبه أبداً أحياء مختلفة في المدينة، أو في ضواحيها القريبة، مثل «نيهوف» التي تكدست فيها مجموعات المهاجرين. إذ إنني فضلت الانتقال إلى بيتها مشياً، في مسعى آخر للتعرف على المدينة. وهي منظمة بجسورها وجاداتها وشوارعها، على ما أتحقق مشية تلو مشية، ولها بنايات مرقمة، ما يسهل على الماشي اتباعها، ولكنه إن ضاع فإنه لن يجد مَن يساعده في مسعاه، إذ قد أجابني أحدهم، بعد أيام قليلة على وصولي إلى المدينة: هل تظن أنني عامل في الشرطة البلدية؟ فيما نهرني أحدهم في باريس، لما سألته عن الوقت، بالقول: أتظنني ساعة بيغ بن!

كانت عينا فضيلة تشعان بضوء غريب، متلألىء، لمّا وجدتني أقف أمام عتبة شقتها في الطابق الثاني. تعثرتْ في كلامها أكثر من مرة، مثلما ارتبكتْ في أين لي أن أجلس، وأين لها أن تجلس، فيما

كانت ابنتها، التي التحقت بنا إلى الصالون، واقفة ممسكة بكتاب ودفتر. ما أن جلستُ قبالتها، أنا على كنبة وهي على كرسي مفردة، بدت مسحة من جمال على وجه فضيلة وملبسها. هي لا تشبه بأيّ حال العاملة في المطبخ الجامعي، خصوصاً وأن سمرة وجهها الحادة خفت بفعل مساحيق التجميل من دون شك. كان يمكن أن أقول عنها إنها أفريقية، لسمرتها الحادة، لانتفاخ شفتيها، لولا أنها كانت نحيلة الجسم، وذات حياء أو كبت ربما لا أجده في سلوكات الأفريقيات، لما ألتقيهن في المساحات التجارية الكبرى.

ما أن دعوت الصبية إلى الجلوس على الكنبة بجانبي، أوقفتني فضيلة وسألتني عن المتوجب عليها لقاء هذا الدرس، ولكل درس لاحق. فابتسمتُ من دون أن أجيب، طالباً من ابنتها فتح كتابها الفرنسي. إلا أنّ فضيلة أوقفتني، واقتربت مني، واتّخذ وجهها جدية حازمة ما كنت أخالها تصدر عنها: أرجوك، يا أستاذ، أنا لا أطلب إحساناً، أو شفقة على حالي... ما كنت أحسن جواباً على كلامها، ربما لأنني كنت أقوم بعملي هذا إشفاقاً على حالها وتقديراً لما تقوم به. ولما تعثرتُ في جوابي، عادت وأكدت على ما كانت تقول، وهي واقفة أمامي، كما لو أنها مستعدة لإيقاف عملي مع ابنتها قبل مباشرته، وفي أي لحظة. اتفقنا على إنهاء الأمر فور انتهائي من التدريس. إلا أنها طلبت مني أن أباشر الدرس فور انتهائها من إعداد الشاي. وهكذا كان.

كانت فضيلة على كرسيها، تتابع شرحي لابنتها. كانت مصغية، لا تريد تعلم ما أقول بالضرورة، إلا أنها كانت تستسيغ الاستماع إلى فرنسية أخرى غير التي تتكلمها، أي اللغة الموسيقية، كما وصفتْها في حديثي معها عند تناول الشاي: هذه اللغة الفرنسية أحبها، أريد

تعلمها... جاك بريل، المطرب، هو وحده حبَّبَني باللغة الفرنسية... هل تعرف أنه وحده يحسن الغناء بالفرنسية، إذ يلفظها جيداً ويجيد نطقها بحيث نتعرف على كل حرف فيها، كما أنه يغنيها بإحساس شديد؟ أما غيره من مطربي اليوم، ألا ترى معي أنهم يلفظونها بعد أن وضعوا في أفواههم ساندويش «همبرغر»؟

كانت فضيلة تكبرني بسنوات قليلة، على ما رجحت. هذا ما بان في زيارتي، فيما كانت تبدو أكبر من ذلك بكثير لما أراها في المطعم الجامعي. كان في ودّي مفاتحتها في غير أمر في حياتها، في شخصها، في عائلتها، لكنها كانت متحفظة، لا تحيد عمّا تريده تماماً؛ وهي قد حصلت عليه: أستاذ جامعي لتدريس ابنتها الصغيرة!

انتهينا من الدرس في أقل من ساعة، من دون أن أحسن الجواب عن طلب الصبية، وهو إمكان أن تعرض عليّ المادة التوثيقية قبل أن تسلمها لأستاذها: طلبوا منها التعريف بالشاعر شارل بودلير، فكان أن شرحتُ لها سبل البحث عنه عبر «الإنترنت». اقترحت فضيلة إيصال المادة إليّ في المطعم الجامعي بعد يومين؛ ثم استدركت بأنّ هذا لن يكون ممكناً لها. لما استوضحتُها الأمر، شرحتْ لي بأن زميلة لها في المطبخ، وربما أكثر، رحن يتبادلن أخباراً سيئة عنها.

دعت فضيلة ابنتها للذهاب إلى غرفتها، لكي تتدبر الأمر معي. وما أن عادت، وأقفلت باب الصالون وراء ابنتها، جلست إلى كرسيها وشرعت في بكاء صامت.

ما كنت أعرف ما أقول، وما أفعل. فجأة تذكرتُ أمي، على الرغم من أنها متعلمة، حصَّلت شهادة جامعية، فيما تقف فضيلة بعيدة عن عتبة ابنتها إذ تريد الارتقاء في التعليم. وقفتُ، واقتربت

منها، من دون أن ألمسها. مددتُ لها منديلي لكفكفة دموعها، فلم تتناوله، بل سحبت ورقة من المحارم الورقية على المنضدة ونشفت دموعها. ثم دعتني إلى العودة إلى مكاني، معتذرة ممّا حصل لها معي، بل أمامي.

كانت أكثر من مفاجأة، لما وجدتُ فيرا تتصدر صفوف الحاضرين للمحاضرة حول «الزواج للجميع». هي لم تنتبه لوجودي، إذ بلغتُ الاجتماع بعد انطلاقته بقليل، في السادسة مساء، إلا أن كريستين لاحظت التحاقي بهم، ودَعَتني إلى الجلوس في مقعد أمامي خال، إلا أنني امتنعت، وفضلت الجلوس في مقعد خلفي.

كانوا بضع عشرات، بين نساء ورجال، فيما كان يغلب عليهم العنصر النسائي، ممّن يكبرن كريستين، ما جعلني أزيد في سؤالي عن سبب وجودها، بل حماسها لهذه المحاضرة. لم تكن محاضرة بالمعنى الجامعي للكلمة، وإنما كانت مناقشة عمومية لما آلت إليه حال القانون، وقد حلّ حيز التنفيذ، بعد أن أقره البرلمان الفرنسي قبل سنة وأكثر.

بلغتني عن هذا القانون أخبار التظاهرات الهائلة التي نظّمها اليمين الفرنسي لمعارضة إقراره، من دون أن أعلم أو أن أستعلم عن مواده لكي يثير مثل هذا الغبار الشديد. فكان أن عرفت، أثناء المحاضرة، أنني أشارك في جلسة عمومية ليست لي، ولا تناسبني أبداً. إذ يعني القانون السماح للمثليين والمثليات بالزواج بطريقة شرعية يقرها القانون. ماذا أفعل في هذا الاجتماع؟ ماذا يعني إن علمتُ أن قلة قليلة من البلديات الفرنسية، لا يزال القيمون عليها

يمتنعون عن إجراء عمليات الزواج لطالبيها أو لطالباتها؟ أتكون فيرا مثلية؟ أتكون كريستين، هي الأخرى، مثلية؟

كان النقاش هادئاً في العموم، لا يشبه الحماس الذي ألقاه في بعض المقاهي، أو على شاشات التلفزيون، بين ممثلي الأكثرية والمعارضة. لم يكن الغرض من الاجتماع، على ما بدا لي، لإقناع هذا أو تلك، إذ ما تعدّت أسئلتهم أو أفكارهم، بعد العرض التمهيدي، الاستفسارات أو المقترحات لاستمرار الضغط على البلديات «المتمنعة» عن تنفيذ القانون. كانوا مؤيدين سلفاً للمشروع، ما جعلني أضجر... كدتُ أن أخرج من الصالة، لولا أنني وجدت فيرا تربت على كتفي، إذ كانت قد خرجت من القاعة ثم عادت إليها، واقتربت مني باشة: يجب أن نلتقي بعد الاجتماع.

لم يكن العشاء بأفضل من الاجتماع نفسه، بعد أن أقلتني فيرا بسيارتها إليه، إذ عاودن، وكلهن نساء حول الطاولة الكبيرة في المطعم، النقاش من حيث انتهى في القاعة: معلومات، أسماء، ترتيبات... وأنا الذكر الوحيد على الطاولة، ما كان يجعل البعض منهن ما أن يقع نظرهن عليّ حتى يبتسمن ابتسامة سريعة، متسائلات من دون شك عن سبب وجودي بينهن، وأنا لا أشارك في شيء.

ماذا كان لفضيلة أن تقول لو دعيت إلى حضور اجتماع كهذا؟ ماذا كانت لتقول لو شاهدتني بينهن؟ ماذا كان لها أن تقول لو علمت بموضوع الاجتماع؟ هل بلغتها أخبار هذا القانون؟ أما كان لها أن تكون في مثل حالي؟ أكانت دانييلا لتحضر مثل هذا الاجتماع؟ تبدو عليّ مشاعر الانزعاج ممّا أوقعتُ نفسي فيه. أهذا ما دعا فيرا إلى الاستفسار عن سبب وجودي بينهن؟ قبل أن أجيب، تنبهتُ إلى وجود صلة غير معروفة منها بيني وبين كريستين... فكان أن دعوتها

إلى الجلوس إلى جانبنا: ها هي الطالبة التي تعمل على إحصاء وأرشفة مكتبة والدك في الجامعة، وهي ستنتهي من ذلك خلال أيام.

عند الخروج من المطعم، دعتني فيرا إلى مرافقتها مشياً إلى حيث ركنت سيارتها. كانت ترافقنا إحدى المشاركات، من دون أن أعرف سبب وجودها معنا: هل ستقلنا فيرا إلى بيتَينا؟

كانت فرحة على غير عادتها، في الطريق، إذ راحت تدندن أغنية خافتة، من دون أن تبادلني أي عبارة، لا معي ولا مع رفيقتها. وما أن وصلت على مقربة من شقتي، أوقفتْ السيارة، ونظرت إلى وجهي بتلك العينين العميقتين، وقالت: لا، لم يكن والدي قاتلاً، بل كان روائياً، على ما يبدو.

بات في مقدوري البقاء في مكتبي من دون خشية شرطي أو محقق قضائي، وقد انتهى النزاع بين فيرا والدائرة إلى حلٍّ رضائي، كما أخبرني صباح اليوم مدير الدائرة. هنأني على قيمة الجهد الذي بذلته، وسرعة الطالبة في ما قامت به. هذا ما تمثَّل في احتفال بسيط تمّت الدعوة إليه على عجل، بحضور فيرا بطبيعة الحال، وعدد من أساتذة الدائرة، في مكتب المدير جاك دورمييه، حيث تمَّ رفع الأنخاب، وقام قبلها المدير بتثبيت بلاطة رخامية على مدخل المكتب، تشير إلى أنّ المكتبة باتت في عداد ملكية الدائرة، بفضل التبرع السخي لفيرا، المذكورة اسماً، وارثة البروفسور.

كانت فيرا فرحة، متألقة، تكاد أن تُقبِّل الجميع بعينيها، متعرفة على الحاضرين واحداً واحداً، طالبة منهم إبقاء الاتصال بها، ولا سيما ممّن عرفوا والدها، إذ كانوا، كما قالت لي، «هم عائلتها

بمعنى من المعاني»، العائلة التي افتقدتْها من جهة أبيها. وكان لها التفاتة خاصة بي، إذ قالت لي بأنها ستخطىء في التعبير، لو قالت لي بأنني عاملتها مثل أخيها الصغير الحنون، طالما أنني سهرت واعتنيت بميراث والدها أكثر منها. ثم مدَّت صوبي بمغلف صغير، ودعتني إلى اللقاء بها، بعد أن أكون قد اطلعتُ على ما وضعتْ في المظروف.

كريستين بدورها كانت فرحة، مثل الفراشة تنطّ من أستاذ إلى آخر، فيما تبادلت مع فيرا رقم الهاتف والبريد الإلكتروني. بعض نجاح هذه «النهاية السعيدة» كان يعود إلى جِدّها ومواظبتها وإيجادها الحلول السريعة في التدوين والحفظ. وهو ما قلته لها، على أنني أخبرتها بأنني سأوجه إليها رسالة رسمية أعبِّر فيها عن تقديري لما قامت به.

أجواء الفرحة انتقلت إلى مكتبي، إذ وجدت عدداً من الطلاب ينتظرونني، وفي أوراقهم أكثر من جواب وأكثر من سؤال عمّا شرعوا في بحثه، ولا سيما عن **«ألف ليلة وليلة»**. دعوتهم إلى البقاء مجتمعين لكي نتبادل ما توصلوا إليه، ما يجعلهم فريق عمل بحثي، يكمل الواحد منهم عمل الآخر، أو يخفف عنه مصاعب الوصول إلى هذه النقطة أو تلك.

كان المدير دورمييه قد التحق بنا... لما أوقفتُ عروض الطلاب، دعاني إلى استكمالها في حضوره، وهو ما جرى، إذ بدوتُ مثل القيِّم على بعثة تنقيب في ثنايا الكتب، بل اللغات والآداب. الطالب بيارِ عاد إلى «الأصول» العربية لـ**«ألف ليلة وليلة»**، التي ترجم عنها أنطوان غالان، والتي أعاد درسها وطبعها الدكتور محسن مهدي قبل عقود قليلة. وخلص من عمله إلى أن

المترجم هو «مؤلف» الكتاب بالمعنى المادي للكلمة، إذ هو الذي أطلق عليه اسمه، فيما ورد في كتاب المسعودي القديم تحت اسم: «ألف ليلة»، بل أتْبعه غالان باسم فرعي: «حكايات عربية»، ما لا وجود له في الأصل العربي الذي نقل عنه. كما تنبَّه بيار إلى كون غالان استعان بأحد الحلبيين الذي أمدَّه بحكايات أخرى أضيفت إلى الكتاب في حينه. أما الطالبة الإيرانية، صِدِّيقة، فلم تجد ما يفيد عن النسخة الفارسية التي انتقلت إليها الحكايات قبل صيغتها العربية المتأخرة، سوى أن الأسماء فيها تحيل على أسماء وصيغ اسمية فارسية، مثل: شهرزاد، وشهريار، وغيرها. أما الطالب الجزائري عبد العزيز، فسألني ما إذا كنت عارفاً باسم باحث لبناني، أستاذ في جامعة البلمند في لبنان: شربل داغر. لما أنكرت ذلك، أخبرني بأنه يبحث عن دراسة له منشورة في مجلة محكَّمة في لبنان، وتتعرض إلى الصلات بين الشفوي والكتابي في الكتاب الشهير.

قبل أن يغادر المدير دورمييه مكتبي، سألني: ماذا ستفعل في السنة القادمة؟ هل ستبقى معنا أم ستعود من جديد إلى جامعتك في لبنان؟

لا يتبادلان سوى عبارات، بل ألفاظ قليلة. احتفظَ منها بلفظ وحيد: «كوزومبري»، ما يعني أنها لا تفهم ما يقول بفرنسيته. كانت تجلس على مبعدة منه، على تلة صغيرة، لكي تقوى على مراقبة القطيع، مخافة أن يشرد أحد منه، أو يعلق بين صخرتين. كان يجلس إزاء صخرة عالية، يتأمل في ما يراه ماثلاً لعينيه، في نقوشها، من دون أن يحسن قراءته. كان يقوم برسم ما كان يستوقفه من نقوش: أهي حروف؟ في أي لغة؟ ما تعني؟ يرسم في انتظار أن

يعرف ما إذا كانت النقوش قديمة، أم تعود إلى عمل الرعاة أو المزارعين. يرسم في انتظار أن يجلب، في مهمة آثارية أخرى، آلات يمكن بواسطتها معرفة ما إذا كانت النقوش قديمة أم لا.

كانا جارين بشكل أكيد، على مقربة بالمعنى الجغرافي للكلمة: هي على تلتها، وهو أمام صخرته، من دون أن يقتربا إلا في النادر. كانت تخشاه، على ما يبدو، على الرغم من أنها تطلق صوبه ابتسامات طالما أنه بعيد عنها، وتختلف الحال ما أن يقترب منها لداعٍ ما، إذ يراها تتأهب للوقوف، وربما للهرب. كانت جارته من دونٍ أن يبادلها سوى كلمات قليلة: حتى العربية التي تعلَّمها من دون معلم، لضرورات عاجلة، ما كانت تحسنها، ولا تفهمها؛ وهو ما كان يحصل له إذ تطلق صوبه بعض العبارات بالعربية. كانت جارته من دون كلام، من دون أن يتقاسما زيارة أو طبق أكل.

ما أن كان يحل صباحاً، حتى يجدها قد سبقته إلى التلة، وما أن كان يضع عدته أمام الصخرة، كان يتحقق من أنها شرعت في توجيه القطيع صوب مكانه: أهي تنام في المحلة؟ كانت لها لغة خاصة يفهمها القطيع، وإن لم يفهم؛ كانت ترشقه ببعض الأحجار لردعه أو لتنبيهه، فيما كانت صلتهما أقل من ذلك بكثير.

كان مشغولاً بما يعمل عليه، وإن لا يقوى على فهم هذا الولع في خربشات الماضي. كانت هناك، وكان هنا، لدرجة أنه نسي وجودها بعد عدة أيام. باتت أقل حضوراً من حفائر الصخرة، لولا أنه كان يعاود التواصل معها، إذ كان يتحقق من أنها لا تفارقه بنظرها: ما أن ينظر إليها، يراها تحدق به، بل لم تتأخر أحياناً عن إطلاق ابتسامة صوبه.

كانت صامتة أكثر من النقوش نفسها. علمُه في الحفائر كان

أقوى من سبر معاني عينيها. لكنها كانت مضيئة، بل يبلغ نورها عتمة الخيمة التي اعتاد على النوم فيها على مبعدة مئات الأمتار، قرب مدخل الغابة، بعيداً عن هذا المكان المرتفع. كانت تختفي مثلما تظهر، بشكل مفاجئ، على الرغم من قطيعها الذي يتعدى الخمسين عنزة. كانت تظهر من جديد ما أن يسمع صوت جرس كان يتدلى من عنق من كان أشبه بدليل القطيع. ما كان يعلم حتى مواعيد أكلها، إذ رفضت مرتين أو ثلاثة مشاركته الأكل، لمّا دعاها إليه.

كان يهجس بقدومها إليه، ذات مساء، بعد الغروب الساهر، إذ يجلس ليتأمل أشعة الشمس الأخيرة، وهي تتباعد بين أغصان الغابة الكثيفة.

وجدتُ في ورقة أخرى كتابات غيرها:

نبَّهني رئيس الدير إلى أن ما أقوله لا يعدو كونه حديثاً من الخرافات، بل زاد في قوله: كيف يُعقل أن عالماً مثلك يصدق هذه الأقاويل؟! كنت قد جلبت معي شواهد ممّا كتبه أرنست رينان في كتابه: «بعثة في فينيقيا»، وما ذكره من أنه التقى بدوره برئيس الدير، للغرض نفسه، ولكن قبل مئة سنة تقريباً.

الراهب هو الذي طلب مقابلتي، بل استدعاني بالأحرى، بعد أن سلَّمني مبعوثه، أحد الرهبان الشبان، طبقَي الأكل وفواكه لبقية نهاري، وكما في كلّ يوم، منذ ثلاثة أيام حللت فيها قرب الغابة. كان أشبه بوليّ أمري في هذه القرى النائية. دعاني إلى حضور القداس في اليوم التالي لوصولي، وأراد إخبار المؤمنين بحلولي بينهم. هذا ما فعله في عظة القداس، وهو ما فسره لي بعد وقت. هذا ما شعرتُ به بدوري إذ وجدت المشاركين ينظرون إلي، ما أن

حللنا في ساحة الدير، بعد القداس، نظرات مختلفة، فيها ألفة مبتسمة.

بعد ساعة على ذلك، وبعد استماعي لتنبيهات رئيس الدير، قررت التجول بين بيوت المزارعين في القرية نفسها، طمعاً بسؤال بعضهم عن الكنوز. وجدت بعض المسنين ممّن كانوا قد ابتسموا لي في الدير. اقتربَ مني أحدهم محيياً، ودعاني إلى شرب فنجان قهوة... ولكن من دون معلومة واحدة مساعدة في مهمتي الشاقة.

لم يكلفني أحد بها. أنا وحدي مَن وضع الخطة، بعد أن وجدتُ في كتاب رينان، وفي مقالات قرأتها في مجلة «المشرق» لأحد الآباء اليسوعيين ما يشير إلى وجود كنوز في هذه القرى الشاهقة.

وجدتُ ورقة ثالثة، ورابعة وخامسة، كانت تستعيد بعض ما كتب أعلاه بصيغ كلامية مختلفة: أحياناً بلغة المتكلم المفرد، وأحياناً بلغة من يتحدث عن غيره، أقرب إلى الراوي في الروايات. هذا ما جعل فيرا من دون شك تتحدث عن أن والدها كاتب، بل روائي، إذ وجدتْ فيها ما يدل على تمارين سردية.

ما أثاره عدد من طلابي عن الكتاب الشهير، زاد من حماسي، أي من شغفي بالبحث الذي أعمل عليه. لست في معرض درس «أصول» الكتاب، وله أكثر من أصل واحد، على ما يبدو. لا تعنيني كثيراً الصلات الأكيدة، أو الملتبسة أو المتشعبة، بين الهندي والفارسي والعربي من الأصول، ولا التمييز بالضرورة بين «متبقّيات» عراقية، وأخرى مصرية في الكتاب. ما يعنيني، يتوقف على مدى

صلاحية ما سقتُه عن غالان، وهو أنه كان مؤلِّفاً أكثر منه مترجماً. أوردُ هذا مثل فرضية، بعد أن استوقفتني عبارات مختلفة ممّا كتب وممّا ترجم. وهي فرضية لا أتوانى عن عرضها واختبارها والدفاع عنها هنا وهناك، وهي توافق تماماً نظرتي إلى الترجمة في صورة عامة، بل هي التعبير الجلي عن نقد الترجمة عندي.

بان لي أنه عاد إلى مخطوطات مختلفة في الترجمة من دون أن تبقى محفوظة كلها، بل عاد أحياناً إلى منقولات شفوية ليس إلا، من دون أن نكون أكيدين من كونها جزءاً ملازماً للكتاب، بل متأتية من متن حكائي «محلي»، أي عربي وإسلامي في الغالب. ما بقي من هذه المخطوطات مخطوط يحمل الرقم (n* 3609-3611) في «المكتبة الوطنية الفرنسية»، ويشتمل على 281 حكاية فقط، ويتوقف عند حكاية «قمر الزمان». كما بان لأحد الدارسين، على ما قرأت، أن إجراء مقارنة بين المخطوط المحفوظ، المتبقي، مع مجموع ترجمة غالان يُظهر وجود «فروقات مطردة (بينها)، ما يشير إلى خيارات أجراها المترجم، وقابلة للتحليل». وما يعجز عنه التحليل هو معرفة ما جرى لغالان، بعد نشر المجلد الثامن من الكتاب، في العام 1708، إذ لم يعد في حوزته سوى حكاية واحدة متبقية. ولا نحسن كذلك معرفة ما جرى بينه وبين المدعو حنا، السوري، الذي أخذ منه حكايات متأتية على الأرجح من مصادر أخرى، وما لبث أن ترجمها، بعد أن سمعها شفاهاً منه، وباتت بالتالي، بعد إدراجها في ترجمته، جزءاً ملازماً للكتاب.

هذا ما ترد بعض أخباره في يوميات غالان، بين 6 مايو و2 يونيو من سنة 1709، بعد أن التقى بالحكواتي السوري في بيت المسافر المستشرق الفرنسي بول لوكاس. فهو يذكر أحياناً عدداً من

الحكايات المزيدة، ويلخصها، مثل حكاية علي بابا، أو حكاية علاء الدين، أو مغامرات الخليفة هارون الرشيد. . . هذه الحكايات يباشر غالان بترجمتها بعد ثمانية عشر شهراً على ذكرها في اليوميات، أي في نوفمبر من سنة 1710، ويُنزلها على شفاه شهرزاد نفسها، بل أمكن الانتباه إلى أنّ أجزاء ممّا قرأ في الكتاب الموسوعي، المكتبة الشرقية (1697)، وممّا عاشه ووردت أخباره وأوصافه أثناء إقامته في إستانبول، على مدى أربعة عشر عاماً، ولا سيما في الرحلة الأولى، «توطن» في ما ترجم: إن إجراء مجرد مقارنة بين ما يرد في «يومياته»، بين العام 1672 والعام 1673، وما يرد في بعض الحكايات يُظهر تشابهاً بينهما، ولا سيما في بعض الأوصاف التي ينصرف إلى عرضها، ولا سيما في بعض الاحتفالات. ذلك أن ما استمع إليه غالان شفاهاً من حنا، تحول بقوة قلمه وخبرته وخياله، إلى مادة سردية نهلت ممّا كَتب سابقاً، أو ممّا قرأه في كتب غيره.

يكفي لهذا الغرض الوقوف عند وصفه المتأني للاحتفال في قصر السلطان، إذ ينتبه الدارس المدقق إلى أن كاتباً لا يقوى على ملاحظة كل تفاصيل القصر، ولا على تحديد المواد، وأسمائها، والتعريف التفصيلي بها، خاصة وأن هذا الكاتب كان يقف، في هذا الاحتفال، في نقطة بعينها، ثابتة على الأرجح، فكيف له أن يتابع المشهد برمته، ومن زوايا متعددة، إذ يكون في ذلك أقرب إلى عمل الكاميرات المتعددة في زمن «النقل المباشر» اليوم.

حدَّثتُ أمي ضاحكاً هذا الصباح عن الشعرة البيضاء في رأسي، فكان أن نبهتني إلى خطر تساقط الشعر؛ ولما استعلمتُ منها عن

سبب حديثها هذا، أجابتني بحزمها المعتاد: لا تحب النساء الرجال الصلع. ضحكت بدوري من جديد، من دون أن أبدي السبب، إذ إنها كانت تعاتب والدي، واقعاً، لكونه لا يتنبه منذ ما يزيد على العشرين سنة إلى تساقط شعره...

لا يزال هذا الهاتف الدوري المنتظم بيني وبينهما يعمل من دون انقطاع، إلا عند الضرورة. وهو الموعد التلقائي، الطبيعي، الذي لا أحتاج إلى تدوينه في حافظة هاتفي النقال. هذا ما يجعلني مرتبطاً بخيط بعيد، واصل بيني وبينهم، من دون أن يقوم خيط آخر يصلني بغيرهم. هذا ما أزعجني للوهلة الأولى، لكنني ما لبثت، وأنا أراجع الأمر في «مقهى بروغلي» بعد غياب طويل عنه، أن وجدت أن علاقاتي المستجدة، وإن يجري تدوينها في حافظة الهاتف، هي ممّا يخصني، وليست ممّا تفرضه عليّ واجبات أو تقاليد.

أعيش وحدي من دون أن يقرع بابي أحد. ولا يرن هاتفي إلا في النادر؛ وإن رنَّ فهذا يعود إلى أشخاص يتصلون بي، صدفة أو لغرض بعينه. فيما لا أجد هاتفي يرن استجابة لصلة أنا قمت بها، أو بادرت إليها: دانييلا، أو فضيلة، أو فيرا، أو البروفسور هيبوليت، أو مدير الدائرة، أو فيرا نفسها، أو طلابي، هم الذين يبادرونني، فيما أتلقى.

مع هذا، بتُّ أتكفل بأموري، ما لن تقوى والدتي على تصوره، فكيف على تقبله. فهي لا تتوانى عن ترداد أسئلة عن أكلي وغسيلي وترتيب فراشي، فيما يضحك والدي من هذا كله، ويقول لي، بعد أن أخذ الهاتف منها: ما يثيرني في أمك، هو أنها كانت متعلمة جامعية، ومتفوقة، فيما تتصرف اليوم مثل والدتي التي لم تتعلم سوى سنتين أو ثلاث في «مدرسة الراهبات» في القرية!

غالان يشغلني في صورة مزيدة، ما يجعلني أتقدم في بحثي، على الرغم من بعض التقطع والحاجة المزيدة إلى التفكير في مواده وتفسيرها. كما تنامت فيَّ الرغبة في إعداد أطباق الأكل، حتى إنني اشتريت أكثر من كتاب لتعلمها، فيما أتابع بشيء من الانتظام برنامج «توب شيف» التلفزيوني على القناة الفرنسية السادسة.

لقد وجدت في ما طرحته على فضيلة «الحل» المناسب: لها ولي. هي تعلِّمني الطبخ، وأنا أعلم ابنتها الدروس الفرنسية. ألفاظ وجمل واستعارات مقابل بندورة وبصل وبطاطا. ولقد اتفقتُ معها على الالتقاء في بيتي كل يوم سبت بعد الظهر، ما يناسب مواد الأكل التي أكون قد اشتريتها، وما يخفف عنها أي حرج اجتماعي، خصوصاً في حيّها.

إلا أنني تفاجأت كثيراً، لما طلبت فضيلة مني، في أول درس، بعد ظهر هذا اليوم، تقطيع ثلاثة رؤوس بندورة وبصلة واحدة. فنظرت إليها متسائلاً عن سبب ذلك: كيف نتعلم قراءة الأبجدية؟ هكذا نبدأ بالأحرف الأولى في كتاب الطبخ. زاد من دهشتي تماماً لمّا فشلتُ في التقطيع، وبدت يداي معطلتين أو عاجزتين تماماً... فكان أن حدثتني فضيلة عن العلاقة الواجبة بين اليد والثمرة، وأنها علاقة تحتاج إلى معرفة، إلى ألفة. أوقفت فضيلة عن متابعة حديثها، إذ لاحظت أنها تتكلم بلغة المثقفين عن الطبخ، ما يعني أنه ليس من عندياتها. فمن أين أتت به؟

كانت فضيلة تتنقل في المطبخ، بين علبه ومواده المختلفة، براحة بيِّنة، بل دعتني، بعد فشل درسي الأول في الطبخ، إلى انتظارها في الصالون أثناء إعدادها للشاي، ما جعلني أفكر في أمي من جديد: أنا ووالدي في الصالون في مناقشات حول الحرب، بل

«الحروب فوق أرض لبنان» (كما يسميها)، التي عاشها منذ سنواتها الأولى، أو في أحاديث متفرقة عن السياسة، أو عن ابن الرومي، الذي وضع فيه رسالة جامعية عند تخرجه، في العام 1977، من «كلية التربية» في الجامعة اللبنانية... فيما تكون أمي، في مطبخها، بعد أن تهاوت سريعاً مواد تعليمها كلها، بل تحللت في ماء الغسيل الوسخ، سواء لأطباق الأكل أو لثيابنا. وبالخفة نفسها التي لأمي، عادت فضيلة حاملة صينية الشاي، وكاساتها المناسبة، فيما عرضتْ على ابنتها، الجالسة على الطاولة، كوباً من العصير.

لما سألتُ فضيلة عن كلامها الأخير عن الأكل، وعن مواده، وعن حروف الأبجدية، نظرتْ إلي نظرة استغراب، ممزوجة بشيء من الانزعاج، من دون أن تجيب. لما عاودتُ السؤال، قالت لي: الطبخ فن وعلم أيضاً، ألا تظن ذلك؟ هل تعرف وجود مدارس لذلك في إيطاليا؟ لم أجبْ. كنت أنتظر مزيداً منها، فاستكملت كلامها: الطابخ، أو الطابخة، يفكر بيديه، ويلعب بيديه، ويفكر ويلعب بعقله ومعارفه أيضاً... ألا ترى الليونة في أصابع العازف، أو في خطوات الراقص ويديه؟ إنها تشبه تماماً الليونة التي يحتاجها الطابخ أو الطابخة عند إعداد أطباق الأكل؟

كان حديثها مدهشاً. كان في ودّي أن تستمر، لولا أنها توقفتْ، متنبهة، من دون شك، إلى آثار حديثها على وجهي. لكنني بقيتُ صامتاً، ناظراً إليها، طامعاً في المزيد منها: أقرأتِ هذا، يا سيدة فضيلة، في كتاب، في كتب؟ فأجابت: لا، هذا ما تعلمتُه في دروس تطبيقية...

احتاجَ حديثها، بل ما روته واقعاً، إلى كاسات شاي أخرى، وإلى تشغيل التسجيل في هاتفي النقال، من دون علمها، لمّا بدأت تكشف عن سيرتها. هذا ما استعدتُه عن لسان فضيلة، وكتبته بنفسي:

هذا ما حفظتُه من أستاذي الإيطالي، ماريو، بل تعلمتُه، ومارسته بنفسي، في مطبخه... كان ماريو قد حلّ مع زوجته وأصدقاء مختلفين من روما، حيث كانوا يعيشون، في مدينتنا الصغيرة: تطاوين، على مقربة من الحدود الليبية. كان مدير الفندق في مدينتنا يستدعينا، أنا وعدد من رجالات ونساء المدينة، لمساعدته مع موظفي الفندق الثابتين في أعمال النزل الذي يديره، ولا سيما عند استقبال أعداد كبيرة من السياح. كانت قد سبقت زيارة ماريو وأصدقائه لتطاوين أخبار عديدة سرت في المدينة عن قرب وصول أحد كبار رجال السياسة في إيطاليا، مع حاشيته، إلى تونس، وإلى مدينتنا. كانت تصلنا أخبارهم بين فترة وأخرى، عن أنهم قادمون، أو أنهم اشتروا دوراً جميلة، في جزيرة جربا، أو في سوسة، أو سيدي بوسعيد، وغيرها من المناطق الفاخرة في تونس... تصلنا أخبارهم من دون أن نراهم، هنا، في هذه المناطق الصخرية والصحراوية... كانت تصلنا أخبار رئيس الوزراء الإيطالي بيتينو كراكسي، أو قريب فرانسوا ميتران، فرِدْريك ميتران، الذي أصبح وزيراً بعد وقت في حكومة نيكولا ساركوزي، لما كنا قد انتقلنا إلى فرنسا...

غير أنّ زيارة مدير الفندق، حمَّادي، ذات مساء، إلى بيت أهلي، بدت جديةً هذه المرة. أخبرنا عن قدوم ماريو ورفاقه؛ ولمّا سأله والدي عن منصب ماريو السياسي، أبدى مصطفى دهشته لصدور مثل هذه الإشاعة، فنفاها، فيما راح والدي يتحسَّر على حظ

تطاوين وأهلها، إذ لا يصل إليها خطّ رحلة السياسيين الإيطاليين والفرنسيين، ولا حتى خط المسافرين اليهود، الذين يأتون إلى جربا وحدها...

لم يكن والدي يتضايق من عملي المؤقت في الفندق، في المطبخ، إذ كانت طباعه الصحراوية، المتشددة، و«الناشفة»، كما كانت تتحدث عنها والدتي، ابنة الساحل التونسي، لا تتضايق من الأمر، لكون حمّادي قريب والدي، عدا أن زوجي، أو المرشح المتفق عليه للزواج بي، كان يعمل معنا في هذه الأيام السعيدة.

كانت سعيدة فعلاً، وسرت في المدينة نسائم وأخبار جمعتْها مع بعضها البعض أوراق اليورو. وهو ما جعل الفندق محط أنظار الجميع، حتى لمن كان لا يعمل معنا فيه. كانوا يأتون، عند الغروب خصوصاً، ويدورون حول الفندق، طمعاً برؤية أحدهم ممّن حلوا فيه، كما فوق صحون طائرة.

عملتُ هذه المرة، كما في أربع مرات سابقة، في المطبخ، في إعداد مجموعة من أطباق الأكل، التي اختارها المدير بنفسه. إلا أنه استدعاني، صباح اليوم التالي على وصولهم، إلى مكتبه، وحدثني عن أنّ أحد الإيطاليين طلب التعرف عليّ، مستدركاً مباشرة: لقد أعجب بأطباق الأكل، وطلب التعرّف على طابختها. وهكذا كان: لم أكن أتقن أي كلمة إيطالية، وأتعثّر في نطق عدد من الكلمات أو الجمل الفرنسية ممّا بقي من سنوات دراستي المعدودة. كان ماريو في الخمسين من عمره، واصطحب معه إلى اللقاء زوجته، التي بدت في عمره تقريباً... لم أحسن فهم الكثير ممّا تحادثوا به، هم الثلاثة، فيما كنت أقف، غير مدركة ما إذا كان مجيئي إلى الاجتماع هو لعرض قامتي أم لشيء آخر. قبل أن أفهم أي شيء آخر، طلب

مني حمّادي العودة إلى المطبخ، فيما اقتربت زوجة ماريو مني، وربتت على كتفي، وهي تقول: برافيسّيمو، برافيسّيمو...

في مساء اليوم التالي، وصلتُ إلى بيتنا، فإذا بوالدي ينتظرني، مع حمّادي: ألا ترغبين بالهجرة إلى إيطاليا، إلى روما؟ وقفتُ مثل البلهاء، وأنا أستمع إلى جملة والدي، التي كرّرها، ثم استعادها مدير النزل وكررها هي هي. ثم أضاف، بعد أن دعاني إلى الجلوس: ماريو وزوجته يديران مطعماً مشهوراً في روما، وأعجبا بطبخك، وهما يقترحان عليك اللحاق بهما إلى روما، بعد تدبير أوراق الإقامة والعمل، والعمل معهما في المطبخ بمرتَّب لائق. كان أكثر من خبر، كان أشبه بالصاعقة التي حلّت عليَّ، لدرجة أنني بقيت مصعوقة مثل سيدنا موسى لما ظهر عليه نور الله. ولما استعاد والدي الكلام، وسألني بلهجة حازمة: ماذا تقولين؟ اكتفيت بالقول: كما تريد، يا والدي. فكان أن طلب من أخي الصغير مناداة خطيبي، مصطفى.

جرت الأمور بسرعة غريبة، لم تعرفها أبداً أيامنا البطيئة في بيتنا، أو في تطاوين نفسها: تمَّ تجهيز جواز سفر لي... وتمَّ قبل ذلك كله زواجي من مصطفى... ثم جرى إرسال أوراقنا الثبوتية الجديدة إلى ماريو لإجراء اللازم، ولانتقالنا إلى روما.

أكنتُ أميناً في ما نقلتُ عن فضيلة؟ أكنتُ أميناً مثل غالان نفسه مع حنا السوري؟

تنبهت، إثر خروج فضيلة وابنتها، من أن هاتفي سجل ثلاث محاولات اتصال من دانييلا. ثلاث محاولات متتابعة، بالإلحاح نفسه الذي عرفته عنها. ماذا تريد؟ لماذا هذا الإصرار؟ أتريد أن

تخترع حكاية جديدة لسيرتها؟ ألا تكون مثل شهرزاد تخترع قصصاً لتسليتي، لإبقائي معها؟ أأكون، أنا بدوري، مثل غالان، إذ أستعيد ما قالته دانييلا عن زواجها المتعثر؟ ألا أكون، مثله، وقد وجدت حيلة لحفظ حكاية فضيلة وتدوينها؟

كنت متردداً في الاتصال بدانييلا، بل متضايقاً من مجرد استعادة الصلة بها. كيف أستعيدها، وقد تبين لي أنها كاذبة، في أكثر من واقعة؟! لكنها حسمت تردّدي، كالعادة، ووجدتني أتباسط معها الحديث، لما عاودت الاتصال، بل وجدتني أتدبر أسباباً لغيابي، لصمتي، متحدثاً عن مرض مفاجيء، وعن انشغالات متراكمة... ولما توقفتُ عن ذكر هذا السبب وذاك، قالت: هذا لا يهم... أنا مشتاقة إليك. أأزورك في ستراسبور؟ هل تستقبلني في شقتك أم أقيم في فندقي السابق، حيث التقينا لأول مرة، ونمضي فيه أياماً سعيدة، ممتعة، تبدد عنك ذكرى اللقاء الأول؟

وعدتُ دانييلا بتدبير موعد قريب، ولكن ليس قبل أسبوعين، إذ كان علي، على ما زعمتُ، السفر إلى بيروت للقاء العائلة. لماذا أنا ملزم بالكذب؟ لماذا لا أواجهها بحقيقة كوني لا أحتمل كذبها المتمادي؟ لماذا لا أعترف لها بأنني لم أعرف سوى لحظات قليلة من الغبطة الجنسية معها، إذ كنت أبقى معها، وهي عارية وأنا عار، مثل موقوف في نظارة، مثل مشتبه به، أو مثل طالب أمام فحص الامتحان. ما كان يفارقني الخوف معها، مثلما رافقني لما مشيت وحدي مع الأوكرانية الأمتار القليلة التي كانت تفصل بين المصعد وغرفتنا. أو لمّا حرت في ما أفعله لما دخلنا إلى الغرفة، وأصبحنا وحيدَين... ماذا أفعل؟ كيف أتصرف كرجل متمرس، وأنا لا أعرف شيئاً من هذا؟

مشاعر الخوف هذه عادت بي إلى صور أبعد، إلى لحظات منقوشة مثل أخاديد في صخر؛ وهي مشاهد والدي ووالدتي يقفان إلى جانبي، كل واحد من جهة، عند لعبة المنزلق الصغير الخاص بالأطفال: كان يمسك والدي بيد، وأمي باليد الأخرى، من جهتَي المنزلق، فيما يعلو صراخي من خطورة المنزلق الذي يدفعانني إليه، وهو لا يتعدى الأمتار الثلاثة، فيما لا يدعان جسمي ينزلق وحده، بل يمسكان بي، وينزلانني برفق فوقه، والذي كنت أخاله يفضي إلى هوة سحيقة، هوة الخروج من العالم المحيط بي.

مشاعر الخوف المستعادة أعادت دانييلا إلى عالمي من جديد. أعادتها خصوصاً إلى شقتي، إلى الثواني أو الدقائق التي تسبق انزلاقي في عالم النوم: أستعيدها في عدد من الصور، في عدد من الوضعيات، بل أستعيدها مثل حكاية مؤجلة، تنتظرني واقعاً من ليلة إلى أخرى، لكي أتابعها من حيث توقفت، أو من حيث تقودني شهرزاد مجهولة، خفية، إلى حيث لم أتوقع ولا أعرف. غير أن ما لم أعرفه معها، أو ما لم أسمعه منها، باتت تردده على مسامعي شهرزاد خفية، ويصبح جزءاً من حكاية دانييلا، بل يحدث لي أحياناً أن أخلط بين ما قالته دانييلا عن سيرتها وما حدث لها فعلاً، وبين ما رَوَته شهرزاد هذه وما حصل لي معها.

إذا كنت أتملص واقعاً من دانييلا، المرأة الشهوانية التي تلاحقني، فإنني بتُّ متعلقاً بدانييلا في سيرتها، التي باتت جزءاً من شواغلي، حيث بتُّ أقرب إلى المؤلف الروائي مني إلى العشيق أو الترجمان. وهو ما اجتمع في سؤال بات يؤرق أيامي فضلاً عن لياليَّ: لِمَ لا أذهب إلى ألمانيا، إلى دَرْمشتاد، وأتحقق من حقيقة ما تخيلته ابتداء من الرسالة التي وقعت عليها يوم مغادرتنا للفندق في فيينا؟

ذلك أن الحديث الذي يكرره الكثيرون، فوق صفحات الكتب، أو على مدارج الجامعات، نقلاً عن مثل إيطالي، من أن «الترجمة خيانة»، وقعت على حالة مشابهة له في حياتي نفسها، مع دانييلا وغيرها. هذا ما وقعت عليه أساساً في زمن غالان نفسه، إذ كان البعض يتحدث عن لزوم الخيانة في الترجمة طلباً لترجمة جميلة. فقد قرأتُ لكاتب فرنسي، بيرّو دابلنكور، من القرن السابع عشر: «إن المترجمين الحريصين (على الأمانة في الترجمة) قد يحيلون جسماً حياً إلى هيكل عظمي، ويجعلون من الأعجوبة (الكتابية الأصلية) مسخاً». أأكون أتبع خطى غالان من حيث لا أعلم؟

يقرُّ، على سبيل المثال، بأنه تخلى أحياناً عن تقطيع «الليالي» الموجود في المخطوط الذي عمل عليه، أو أنه حذف الأثواب السبعة لابنة الوزير في «حكاية نور الدين علي». وهو ما فعله في «حكاية الصياد» أيضاً إذ أسقط عدداً من التفاصيل السردية، لكي يتجنب ذكر زواج ابنة الصياد من السلطان وغيرها. لماذا أجرى هذه التعديلات كلها؟ أهي موجبات عمل الترجمان فعلاً؟

هذا ما بدأتُ بتلمس بعض علاماته، ودلالاته، إثر زيارتي لباريس، ومتابعتي المتأنية لـ«يوميات» غالان. ففي غير مقطع فيها، أتبين أنه ينشغل بتدوين أمور لا علاقة لها بالسفير، ولا بواجباته في خدمته، بل تتصل بالطقس على سبيل المثال، أو بغيره من شؤون يومه أو علاقاته. وهو ما كتبه شِفِر عن «اليوميات» إذ قال فيها إنها أتت «حميمية وشخصية للغاية»، فما تقيد غالان فيها دوماً بضبط حركات وسكنات السفير، بل كانت له أحياناً التفاتات إلى عمله الخاص، مع بعض الإشارات الدالة عليه شخصياً، بل أمكنني الانتباه إلى أن غالان مرَّنَ، من حيث قصد ولم يقصد، مهاراته

الكتابية المختلفة، بما فيها السردية، في هذه «اليوميات». هذا ما استوقفني خصوصاً، لما شرع في وصف يكاد يصلح لرواية، لما عايشه في قصر السلطان وشاهده، لا ليوميات.

هذا ما وجدت تفسيراً مقنعاً له في «التنبيه»، الذي يتصدر المجلد الأول لترجمته، وهو اعترافه بفعلته، إذ يقول فيها صراحة إنه لجأ إلى تعديلات في ما ترجم: «ما ابتعدنا عن النص إلا لما اقتضت ذلك اللياقةُ بلزوم عدم التقيد به. إن المترجم يتفاخر بأن الأشخاص الذين يعرفون العرب، والذين يرغبون في مقارنة الأصل بالنسخة (المترجمة)، سيقرون بأنه عملَ بحذر ولباقة على إظهار العرب للفرنسيين، أي ما تطلبه لطائف لغتنا وزماننا». أي كلام أوضح من هذا؟ أي اعتراف أصرح من هذا؟

كان غالان مدركاً، واعياً، لما يقوم به، لما يحتاجه ويقتضيه، من جهتيه: من جهة العربية، ومن جهة الفرنسية والفرنسيين. وما يدركه، هو ما يبنيه مثل خيار، مثل سياسة له، في عمله. إنه يراقب المشهد الواصل من جهتيه، وهو في ذلك صاحب قرار، يحسن فيه النقل، ويحسن خصوصاً إيصال الحمولة بحسب مقتضيات: الفرنسية، والفرنسيين، واللياقات، والزمن الفرنسي نفسه. أهي واجبات مهنية للترجمان، لازمة لمهنته، أم هي خيارات يطلبها الترجمان بوصفها ما يناسب، لا الأصل، بل سياق الاتصال نفسه؟ وهو إذ يكون كذلك، يكون في موقع المؤلف العارف بعادات الكتابة، وسياقاتها، وشروطها، من جهة اللغة والذوق وحسن الاستقبال، أليس كذلك؟

تملكني شعور غريب، نادر، ما أن استيقظتُ في الرابعة والنصف فجراً - وهو ما لم أفعله مرة واحدة في حياتي، على ما أظن -، وحملتُ حقيبتي الصغيرة، وخرجتُ من شقتي بعزم وتصميم، وبلغت محطة القطار، قبل موعد انطلاقه من ستراسبور إلى أوفنبورغ، ومن هذه، بعد تبديل بسيط فيها، إلى فرانكفورت. رحتُ أتمشى فوق رصيف المحطة بقوة ما كنت قد عرفتها فيَّ. كنت أنظر إلى وجوه المسافرين القليلين في هذه الساعة الباكرة من يوم السبت، بثقة ما كان يعرفها المهاجر، أي أنا، على الرغم من إقامتي القانونية في ستراسبور، وقدرتي على التنقل الحر فيها، وفي أكثر من بلد أوروبي، ولا سيما في ألمانيا القريبة، بفضل «اتفاقية شنغن»، وتأشيرة السفر الملازمة لها.

عصام، زميل الدراسة الجامعية، في سنوات الإجازة، هلَّل لمّا بلغه خبر قدومي إلى منطقته، ما دعاه إلى دعوتي للإقامة معه في شقته في هايدلبرغ. ما كانت تبعد مدينته عن دَرْمشتاد سوى عشرات الكيلومترات، ما لا يتعدى الساعة الواحدة في السيارة، فيما كانت تبعد دَرْمشتاد عن فرانكفورت دقائق قليلة، أقل من أربع عشرة دقيقة، في القطار السريع الواصل بينهما. وهو ما قررتُه، بعد مجموعة من القرارات السريعة والحاسمة: نجحت في تدبير رقم هاتف دير الراهبات في دَرْمشتاد، وقستُ المسافات بالقطار أو بالسيارة، بين مدن مختلفة، ثم أرسلت رسالة إلكترونية لعصام أعلمته فيها برغبتي في زيارته خلال عطلة نهاية الأسبوع، إذ أصل صباح السبت وأغادر مساء الأحد.

في القطار، رحت أتخيل ما كانت تفعله دانييلا فيه، لما أتت، قبل عيد الميلاد لزيارتي، ولما عادت فيه في طريق العودة، إلى

حيث تقيم جدتها لأمها. هذا ما قالته لي، من دون أن أعلم ما إذا كان صحيحاً أم كذباً. ذلك أنني ما عدت مقتنعاً بأي كلمة قالتها لي... حتى ليالي الأنس في فيينا رحت أشكّك فيها، مثلما شككت سابقاً في أوقات المجامعة مع المومس الأوكرانية في «شاليه» غابة الأرز، طالما أنني كنت، هنا وهناك، في «تمرينات» ليس إلا... «تمرينات» مؤكدة، طالما أن لا عاطفة تُذكر تسبق المجامعة، أو تتخللها، أو تتبعها. أتكون المجامعة شيئاً يقع خارج الحب، خارج العاطفة؟

كانت الساعة بلغت التاسعة صباحاً وعدة دقائق، لما توقف قطاري في محطة فرانكفورت: أنا في مدينتها، من دون علمها. لن تراني بأي حال، إذ لن ينقضي سوى ثلاثين دقيقة قبل أن أستقل قطاري إلى دَرْمشتاد. بانتظار ذلك، جلستُ في مقهى «بيسترو» المواجه لأرصفة القطارات، خلف الواجهة الزجاجية، ما يتيح لي رؤية العابرين أو المتوجهين أو الآتين من القطارات، ورؤية حقائبهم الكراجة خصوصاً. ألا تكون دانييلا قد حطت في هذا المقهى أكثر من مرة: عند عودتها من دَرْمشتاد إلى فرانكفورت، أو بالعكس؟ هل يحقّ لراهبة التجول والتنقل بين مدينتين من دون رقيب، وحين يحلو لها؟ هل يمكن أن تخرج من ديرها من دون راهبة ملازمة لها؟ يصعب قبول هذا، عدا أنه يصعب جلوس راهبة في مقهى، أليس كذلك؟

القطار (EC 113)، أي «يورو سيتي»، قطار دولي يتوقف، أولاً، في دَرْمشتاد، ثم في هايدلبرغ وميونيخ وغيرها خارج ألمانيا. كنت أدقق في هذه الأمور لأنني لم أركب سابقاً في أي قطار دولي.

جلستُ إلى جانب النافذة، فيما كان يتوافد إلى المقصورة

ركاب من أعمار وأحوال مختلفة. اثنان أمامي: واحد أقرب إلى الصلع، وهو يتعامل مع حاسوبه، والثاني له ملامح أفريقية، ويتعامل مع حاسوبه بدوره.

يوزع علينا موظف القطار «دليل الرحلة»، من دون أن يدقق في كوني راكباً محلياً، مثل الذين يستقلون قطارات الضاحية في باريس. في «الدليل» دعاية تُظهر سيدة تشبه دانييلا، لكنها ضاحكة في الصورة، تعلو بيديها فوق رأسها راسمة قلباً، فيما تقول: باريس تستيقظ، وأنا موجودة فيها. جلستُ إلى جانب الباب المفضي إلى ممرّ الدخول أو الخروج من القطار، فيما ربط أحد المسافرين دراجته الهوائية في الجهة المقابلة لمقعدي.

ممرٌّ ضيق بين الأشجار للمشاة وراكبي الدراجات الهوائية، يؤدي إلى مدخل: دارة «كنعان»، بالأحرف اللاتينية الكبيرة، على جهتي البوابة. بضع سيارات أمام البوابة من الجهة الخارجية، فيما تقف راهبة في بيت صغير للاستقبال. لا شيء يوحي بأننا في دير للراهبات، كما أعرفها في لبنان، ولا سيما في قرية مجاورة لقريتي. البوابة الخارجية مفتوحة، وتشبه المنتجعات السياحية بالأحرى. إذ ما أن أضع خطواتي الأولى فيها، وقبل أن أحادث الراهبة الواقفة وراء نافذتها المفتوحة، أتبين مساحات خضراء واسعة أمامي، فيما يرتفع صليب فوق أحد الأبنية.

استقبلتني الراهبة المسنّة بلباسها ذي اللون السكري، وبكنزة فوقه من اللون نفسه، فيما تعلو ذلك قبعة بيضاء، تُظهر قسماً أمامياً من الشعر، وهي قبعة مربوطة بخيط رفيع تحت الذقن، ومشدودة

بملاقط صغيرة إلى رأسها. استقبلتني بابتسامة ضافية، فيما سألتها بالإنكليزية، لا بالإلمانية، ما إذا كان في إمكاني مقابلة رئيسة الجمعية لأمر طارىء. ولما تشددتْ الراهبة في معرفة سبب المقابلة، شهرت من حقيبتي الجلدية الصغيرة صورة دانييلا، صورتها يوم مغادرة الفندق في فيينا: أتعرفين هذه الراهبة؟

تفرَّستْ الراهبة في الوجه الماثل في الصورة، ثم في وجهي، بعد أن بدا على وجهها شيء من التساؤل الداخلي، الذي ما فقهتُ مغزاه طبعاً. ثم دفعتُ في اتجاهها صورة أخرى، من زاوية أخرى لوجه دانييلا، من دون أن تصدر عن الراهبة المسنة أي ردّة فعل. ثم سألتْني: ماذا تريد منها؟ فأجبتها: أريد أن أعرف ما إن كانت تعرف دانييلا شوغولا؟ لما كررتُ سؤالي، أنكرت الراهبة معرفتها بالماثلة في الصورة. ولما عاودت إثارة أسئلة مماثلة، رفعتْ سماعة الهاتف، وطلبتْ رقماً داخلياً على ما أظنّ: فهمت من مكالمتها بالألمانية أنها تحادث الرئيسة، فأخبرتْها بأنني قادم من لبنان، وأثير أسئلة ابتداء من صورة: دانييلا شوغولا . . .

انتقلتُ من غرفة الاستقبال إلى داخل الدارة الواسعة، بعد أن وجّهتني الراهبة صوب أختها الراهبة التي تنتظرني في مبنى آخر، ملاصق للكنيسة التي عرفتها من صليبها المرتفع فوق قرميدها المعتم اللون. التقيتُ في الطريق المسفلتة برجل في لباس عمل، وبعد محادثة بسيطة عرفت منه كونه كاهناً إيطالياً يقيم في جهة مقابلة من البيوت، مخصصة للرجال، وهم أقل من عشرة، ويؤدون مهاماً إلى جانب الراهبات.

لم يكن لقائي بالراهبة التي كانت تنتظرني بابتسامتها، وبمجموعة من الكتيبات، بأفضل من لقائي السابق. أنكرت الراهبة

معرفتها بالوجه النسائي، جازمة: لا وجود لهذه الراهبة في عداد راهباتنا... ثم تابعت بلغة جازمة: نحن لسنا ملزمات بإظهار سجلاتنا لأحد، عدا أنك لا تمثل جهة رسمية... إلا أنني أؤكد لك، بل أجزم، بأنها ليست من راهباتنا... ثم أتبعت جملها المتلاحقة بجملة، أشبه باعتراف: لعلها تنتسب إلى رهبانية أخرى.

ماذا لو كان مفتاح البروفسور الذي وجدته كريستين بين محفوظاته في مكتبه يعود إلى مفتاح حفظ الحقائب والودائع في محطة للقطارات، مثلما جرى لي، قبل الانطلاق إلى دير الراهبات، إذ أودعتُ في محطة دَرْمشتاد حقيبتي الجلدية الصغيرة، ما يساعدني في التنقل الحر إلى الدير. ولكن، أيعقل أن البروفسور أبقاها في محفوظات المحطة كل هذه السنوات؟ وفي أي محطة قطار؟ في ستراسبور أم في غيرها؟ وماذا لو كان أودع محفوظاته في علبة خاصة في مصرف؟ في أي مصرف؟

طرحتُ هذه الأسئلة وغيرها على نفسي، لما تحسستُ المفتاح في جيبي، إثر خروجي من الدير، وسلوكي للممر الضيق. هذا ما خفف قليلاً من تصاعد نقمة خافية راحت تستبد بحركاتي، بوجهي، وبنفسي. ماذا أتيتُ أفعل في هذه المدينة، في هذا الدير؟ أأصبحتُ محققاً؟ في أي قضية؟ مَن كلفني بها؟ ماذا لو كانت دانييلا راهبة أو لم تكن؟ ماذا ستغير معرفة هويتها من علاقتي بها؟ أأطلب هذا كله لأنني أريد رسم صورتها في صورة وافية؟ لماذا أطلب هذا؟ أأريد كتابة رواية عنها، أو تضمينها في رواية؟

ركبتُ الباص عينه، في محطة «كاتيرينا شتراسي»، وهو الباص

رقم واحد، وعدت فيه إلى حيث انطلقت، في وجهة معاكسة، صوب محطة القطار في دَرْمشتاد. يكاد يخلو الباص من ركابه في ساعة الظهر هذه، واليوم سبت. لم يكن عليَّ أن أحصي عدد المحطات، لكي أحسن التوقف في المحطة رقم 12، كما فعلتُ في طريق الذهاب، إذ كنتُ سأتعرف على نقطة وصولي، في طريق العودة، بسهولة، طالما أن المحطة تقع على تقاطع مجموعة باصات، وأمام بوابة المحطة أساساً في المدينة.

ما كانت تتوقف مشاعر التبرم من نفسي، وقد ارتكبت حماقة أكيدة. هل يُعقل لو كانت دانييلا راهبة فعلاً في هذا الدير، في السابق، أن يجيب جمهور الدير عن أسئلتي الفجة والمباشرة؟ أما كان يجدر بي التحاور، والتخابث قليلاً معهن؟ أما كان يجدر بي إيجاد «حيلة» مناسبة لاستدراجهن في مكاشفة؟ أكان يتوجب إظهار صورتها الفوتوغرافية، وهي حاسرة الرأس أساساً؟ أما كان يتوجب طرح أسئلة عن جزء من اسمها، أو فحص وجوه بعض الراهبات، وقد وجدت بعضهن في أكثر من صورة معلقة على جدران غرفة الاستقبال؟

تضايقت الراهبة الأولى، ثم الثانية خصوصاً، من أسئلتي، لكنها لم تمانع تجوالي في أرجاء الدير الفسيحة، بل حمَّلتني مجموعة من الكتب والكتيبات عن الرهبانية. ذلك أن الراهبة الثانية، التي تضع خاتم الزواج من السيد المسيح في يدها اليسرى، على ما لاحظت، استعادت ابتسامتها، ما أن توقفت عن طرح أسئلة عن دانييلا، بل دعتني إلى رؤية فيلم قصير عن الرهبانية في غرفة مجاورة. وهو ما قبلْتُ به، واستغرق عرض الفيلم ما يزيد على 12 دقيقة.

عناني من متابعة الفيلم إمكان رؤية وجه دانييلا بينهن، في احتفالاتهن وطقوسهن، ولكن من دون جدوى. هل كنت سأتعرف عليها فعلاً، لو كانت بينهن، ومرتدية لباسهن، الذي يصعب الكشف فيه عن هوية الشخص تماماً؟ أكانت ستدعوني الراهبة إلى رؤية الفيلم، لو كانت تريد إخفاء صورة دانييلا، بل وجودها عني؟

كانت الراهبة قد استعادت هدوءها، لما خرجت من غرفة العرض، بل صادف خروجي من غرفة الاستقبال دخول كاهن إنكليزي، كان في صدد إعداد فيلم عن الجمعية. ما الذي يشغل بال هؤلاء الراهبات ويجدنه في «أرض كنعان»؟ ألا تقع بلادي في أرض كنعان هذه؟

لم أكن أتوقع نهاية زيارتي بهذه السرعة، خاصة وأنني بدأت بها من حيث كان لي أن أنتهي، أي التوصل إلى كشف أسرار دانييلا. كان في مقدوري التجول في أرجاء الدير، خصوصاً وأن موعد لحاق عصام بي قرب المحطة الرئيسة لا يزال بعيداً. ما كانت لهن أي خشية من شيء، من أي طارىء: لعلّ هناك خطأ فعلاً بين ما وجدت فوق رسالة دانييلا وهذا الدير. ماذا لو أقامت دانييلا لبعض الوقت فقط في الدير؟ ماذا لو لم تكن من منتسبات هذه الجمعية، بل من غيرها، وحلت في هذا الدير لوقت بعينه، ولسبب ما؟ إذ إن استعادة ما قالته الراهبة الأولى، أو الثانية، لا يعاكس أبداً أسئلتي أو هذه الاحتمالات؟ أليس كذلك؟

كانت المساحة التي تشغلها الرهبانية واسعة كفاية، بحيث إنها كانت تشبه المنتجعات السياحية الكبيرة، عدا أن تجوّل شاغليها فيها يبدو مريحاً لهم، إذ وقعت على راهبة وراء مقود سيارتها، وهي تحادث أحد الرجال، ممن قد يقوم بإجراء أعمال في جهة ما من

الدير. ثم وقعت على راهبة أخرى، كانت تقود دراجتها الهوائية في الطريق المسفلتة الداخلية. ولكن ماذا عن كنعان؟ فقد وقعت، في تجوالي بين المساحات الخضراء الداخلية، على حائط آخر من القرميد كتبت عليه بخط نافر حروف اسم: كنعان.

وجدت بطاً يعوم في بركة، كما وقعت على بقايا أوتاد أو أحجار مغروزة في الأرض، وتصلح من دون شك لإقامة أخشاب عليها، ولإجراء احتفالات علنية. كما وجدت على يافطات متتالية جملاً بعينها، ما دعاني إلى تصويرها بهاتفي النقال، على أمل قراءتها بعد وقت.

كان الدير يقع في ضاحية دَرْمشتاد، إلى جنب دور راقية وفخمة، على ما تبيَّنت في الباص في طريق العودة، إذ بات في مقدوري رؤية ما يحيط بي، والتخفيف عن نفسي ما كان يشغلها ويُغضبني واقعاً. ثم انتقل الباص بعد ذلك إلى المدينة نفسها، وبدت معالم كالحة في بنايات جديدة البناء، ما ذكَّرني بما كتبه عصام، لما كاتبتُه عن زيارتي للمدينة: ماذا تريد أن تفعل فيها؟ لا شيء فيها يستحق الاهتمام؟ المدينة جرى تدميرها في الحرب، وبُنيت من جديد... فيها متحف متواضع للفنون الحديثة يستحق الزيارة ربما، إن قررتَ فعلاً الإبقاء على زيارتك لها.

كان الوقت مديداً، في انتظار وصول عصام في الرابعة بعد الظهر، لكي أنصرف إلى زيارات مختلفة قرب المحطة بعد وصولي إليها. أول ما توقفتُ عنده، مقابل مكان توقف الباص، كان مقهى: «أرابيسك». من أين أتى المقهى بهذا الاسم ذي الأصل العربي

الأكيد؟ ماذا تفعل «العربسة» (كما ترجمها بعض النقاد العرب، بدل «الزخرفة» أو «الرقش»)، في هذه المدينة، وإلى جانب بوابة الدخول والخروج من المحطة الأساسية؟

غير أن المقهى طردني ما أن حللتُ فيه، إذ كان يضيق برائحة كريهة، ما تحملتُها، وعند سؤالي لنادل المقهى، أجابني: إنها رائحة النارجيلة. . . لعلها مختلطة من دون شك بمقادير عالية من الرطوبة المتفاقمة. وإذا بي أنتبه إلى وجود نارجيلة موضوعة على حافة البار، الذي يتوسط المقهى بين مشغِّليه وزبائنه: نارجيلة مثل إعلان، أو تمثال لعبدتها الأكيدين.

أما في فسحات الانتظار والجلوس في بهو فندق «أنتر سيتي»، الذي يبعد أقل من عشرة أمتار عن هذا المقهى، وفي جهته من الشارع، فقد كان في إمكاني الجلوس، بل قعدتُ وحدي واقعاً من دون أي زبون آخر. كان عليَّ أن أنادي موظف الاستقبال في الفندق، لكي أتمكن من طلب فنجان قهوة.

كان في متناولي عدد من الكتب والكتيبات لكي أطالعها على عجل، وأتعرف فيها على شيء من سيرة هذه الرهبانية. ومنها خصوصاً سيرة الأم المؤسِّسة، الألمانية: «مفتاح السماء - قصة حياة» للأم باسيليا شلينك، التي أقدمت على تأسيس رهبانية «أخوات مريم الإنجيليات»، مع رفيقة شبابها الأم المؤسِّسة الأخرى مَراتيريا مادايوس في العام 1947.

كان لي الوقت الكافي، في هذا الفندق، ثم في مطعم «ماكدونالد» المواجه، لكي أطالع على عجل بعض أخبار الرهبانية، التي جرى تأسيسها في دَرْمشتاد، ثم انتشرت في أنحاء العالم، بما فيها مركز تابع لها، «بيت إبراهيم»، في القدس. كتبُ صلاة، حيث

لكل يوم صلاته الخاصة، بأكثر من لغة، بعد أن اقتنيت واحداً بالفرنسية. وكتاب مزين بالصور يستعيد، في الذكرى الخمسين لقيامها، تاريخ نشأتها ومبادئها وأعمالها.

نشأت الرهبانية بعد الحرب العالمية الثانية، بناء على مبادرة انطلقت من دَرْمشتاد نفسها، وقام مبدأ اجتماعها على التأمل والصلاة. وما هو جديد بشأنها هو أنها ذات منطلق بروتستانتي، ما هو نادر في أوساطهم، بخلاف المذهب الكاثوليكي الذي يعرف أكثر من رهبانية عالمية، بما فيها فروع لها في لبنان نفسه. إلا أن مبدأ اجتماع هذه الرهبانية قام على الروح «المسكونية»، أي على التحاور بين الديانات. وهو ما جعل اسم: «كنعان» يتصدر مقر إقامتهم.

هذا يعنيني كلبناني، إذ إن تسمية الفينيقيين، على ما درست، هي التي أطلقها الإغريق على الكنعانيين، فيما قرأت أيضاً أن التسمية تعود إلى المصريين، ومنها تفرَّع اسم: «أرض الكنانة». . . أتكون دانييلا بالتالي كنعانية، وفينيقية الهوى بالتالي؟ هل كانت تخرج من المحطة لتشرب قهوة في هذا الفندق، لا في «أرابيسك»، من دون شك، لأنها مثلي لا تطيق التدخين؟

كنت أهجسُ، على الرغم من خيبتي، وربما بسببها، بدانييلا. هكذا انتقلت إلى المحطة نفسها، أتجول في ممرها المشتمل على محلات ومقاه، ويلبي خدمات مختلفة للمسافرين والمسافرات مثلها.

مراحيض: الدخول إليها بنصف يورو.

محل لبيع الجرائد والمجلات، بما فيها التي تعرض على أغلفتها صور فاتنات.

محل للتصوير الفوتوغرافي السريع: «فوتو فيكس ديجيتال».

محل لقص الشعر، للنساء كما للرجال، أو لتلوينه. . .
أقامت دانييلا مثلي بهذه الحركات، ضجراً أو انتظاراً؟

لم أنجح في التعرف على عصام لما سمعتُ أحدهم ينادي: جهاد، جهاد، أنا هنا. . . كان في سيارته ينتظرني على مبعدة قليلة من بوابة المحطة، فيما وجدته يبادرني: ما تغيرتَ أبداً، يا عزيزي. تبادلنا الكلام سريعاً حول وضعَينا: يُدرِّس عصام في الجامعة التي درس فيها، في هايدلبرغ، كما يقيم في المدينة، من دون أن يكون قد عاد إلى لبنان منذ أكثر من خمس سنوات: كيف لي أن أعود؟! أين سأجد نفسي بين أهلي، بين المسلمين عموماً، وكل شيء بات يُبعدني عنهم. . . أتعرف أنني بدلت حتى اسمي الأول والعائلي. هذا أحسن. . . وإن كان الواحد منا لا يتخلص تماماً ممّا كان عليه.

منذ أيام الجامعة في بيروت، بدا عصام مختلفاً عنا، وعمّن ينتمي إليهم طائفياً. كان يعنيه اللقاء بالمسيحيات وبالمسيحيين من الطلاب، «لأنني لم أعرفهم أبداً في الحي، وبين العائلات، التي أتحدر منها وأقيم معها»، كما اعترفَ لي ذات يوم، إثر عملنا المشترك في فريق ترجمة في الصف، وإعداده في بيوتنا. عند الخروج من قاعة المحاضرات، لما قرر أستاذنا جمعَنا في فريق عمل واحد، سألني عصام ما إذا كان في إمكانه المجيء إلى بيتنا للعمل معاً. . . لما التقينا، في بيتنا، شرع في إثارة أسئلة عديدة، لا عن الترجمة، أو عن مشروعات المستقبل، وإنما عن والدي ووالدتي: كيف تزوجا؟ ماذا تعلما؟ أين تعلما؟ بل استوقفَه كون والدي مولعاً بابن الرومي، وكيف أنه أعدّ عنه رسالة الدراسات العليا، وبدا عليه

الضيق، لما أجابه والدي عن سؤاله: لا، لم أدرس ابن الرومي لأنه من أصل رومي، مسيحي، وإنما لأنه أجمل شاعر عربي قديم، وأكثرهم إنسانية... ولما فاتحتُه، ذات يوم، عن مشروعات الدراسة أو العمل بعد تخرجنا، أجابني بأنه سينتقل للدرس في ألمانيا، وفي هايدلبرغ تحديداً.

هذا ما ذكَّرتُ عصام به، لما رحنا، في السيارة، نتقاسم على عجل أخباراً سريعة، مقتضبة، عما كنا وعمّا أصبحنا عليه. مثل صديقين، مثل زميلَي دراسة، إذ يلتقيان من جديد في «كافيتيريا» الكلية بعد انقضاء عطلة الصيف: ما كنتَ تريده، يا عصام، فعلتَه بحذافيره... يا للنجاح! شكرني على ما قلت، على أنه يرجىء الإجابة عنه إلى ما بعد وصولنا، لأن هذا يحتاج إلى شيء من الإفاضة والتفكير والمراجعة، مضيفاً: لا يمكن تلخيص حياتي، وأنا على طريق المرور السريع!

بطبيعة الحال، على الرغم من أنني كنت قد ظننت، في العام 2005، عام تخرجنا، بأن عصام قد يعدل من خطته المحكمة، بعد أن وجد في «انتفاضة الاستقلال» حلمه المنشود. يومها التحق عصام بمجموعة من طلبة الكلية، وأقام معهم في خيمة، فيما كان يزورهم ويتناقش معهم أحد أساتذة الكلية: سمير قصير، وهو أحد شهداء هذه «الانتفاضة» بعد شهور على انطلاقتها. يومها ما كان يمانع والدي إن التحقتُ بهم، متذكراً من دون شك أيام نضاله، أيام «الاعتصام» أمام وزارة التربية والفنون الجميلة، على مقربة من كليته، «كلية التربية»، في الجامعة اللبنانية، في مطالع سبعينيات القرن الماضي.

أمضيتُ مع عصام ورفاقنا ليلة واحدة، من دون أن ننام واقعاً.

بقينا ساهرين، نتناقش ونتسامر، فيما يقوم بعضنا بالانتقال إلى خيم أخرى لتبادل المعلومات والاتفاق على خطوات التحرك المقبلة. في الصباح الباكر، وجدنا سيدة «بالشانيل» تصل إلينا مع مجموعة أخرى من سيدات «الشانيل» أيضاً، وقد أتين في علب موضبة بكميات هائلة من الكنافة بالجبن و«الكرواسان»، من دون منقوشة زعتر واحدة. يومها أضحكنا عصام، إذ بادرنا مازحاً: ألا ترون بأن زوجات السياسيين أتين بأزيائهن من محل أزياء الماركة الفرنسية الفاخرة القريب، «كوكو شانيل»، وأتين أيضاً بإفطارنا من المحل نفسه على ما يبدو...

أمضى عصام ليلتين إضافيتين في الخيمة، ثم عاد من جديد إلى متابعة مشروع سفره القديم. أما أنا فما نزلت بعد ذلك إلى «ساحة الشهداء»، لأنني لم أكن مولعاً أبداً بمثل هذه التجمعات. أنا بقيت في بيروت، وهو انتقل من «ساحة الشهداء» إلى هايدلبرغ.

كان عصام فخوراً، بل مزهواً بالمدينة التي يقيم فيها. قادني، ما أن نجح أخيراً في إيجاد موقف لسيارته، إلى الجسر الجميل الذي يشق المدينة إلى نصفين: من جهة الجامعة والقصر وبيته فيها، ومن الجهة الأخرى، «طريق الفلاسفة». يكفي أن تقف فوق الجسر، وأن تستمع لشروحاته، لكي تدرك بأنه قرأ المدينة في كتاب، في كتب، قبل أن يعيشها: لن تجد مدينة غيرها في ألمانيا سَلِمَتْ من التدمير في الحرب العالمية الثانية، بعد أن أجرى القادة النازيون مع قادة بريطانيا اتفاقية سرية قضت بتجنيبها الدمار مقابل تجنيب أوكسفورد، الجامعة العريقة، المصير الأسود.

لا يزال عصام، على الرغم من السنوات والسنوات، يتحدث عنها كما لو أنه يتعرف عليها. يتحدث عن إقامته، بل عن توطنه

فيها، فيما لا يزال ينظر إليها بعين خارجية، أجنبية، غير منتمية إليها واقعاً، وإنّما معجبة بها، وبكونه ينتسب إلى عيشها، بل إلى تاريخها، منذ أن انتظم في التعليم الجامعي فيها، وحصوله على الجنسية الألمانية.

اكتفينا بجولة مشي بسيطة في أحياء المدينة، فيما كان يدلّني على مواقع مختلفة منها، مثل الجامعة، أو المكتبة، أو مطعم «صحارى» اللبناني وغيرها. ذلك أننا كنا متعبين، ما جعلني أقترح عليه الالتحاق ببيته، والاكتفاء بذلك، على أن نخصِّص يوم غد، الأحد، للتنزه.

قرر عصام، على عادته، بسرعة: اتصل بصديقته وأخبرها بأننا لن نلتقي في المطعم، وإنما في شقته في الثامنة مساء، ثم انتقلنا سوياً إلى مطعم قريب من بيته، واشترى منه مجموعة من الأطباق المعدة، فيما كان ينتقل بخفّة بين هذا المكان وذاك، سعيداً من دون شك بهذا اللقاء غير المتوقع.

كانت شقته تشبهه. ما كنت لأتوقع هيئة بعينها لها، لكنني ما أن دخلتُ إليها معه، ورحت أتبين محتوياتها المختلفة، وانتظامها في ما بينها، حتى خلصت إلى رأيي: شقة عصام تشبه عصام. هذا ما سارعت إلى قوله له، وهو، في المطبخ، يعد ترتيبات العشاء الجاهز. لما عاد والتحق بي في الصالون، حاملاً معه كأس نبيذ أحمر، حدَّق بي قائلاً: رأيك يهمني... لماذا قلتَ عن الشقة إنها تشبهني؟ وجدتني أرتبك في جوابي، إذ بدا عليه كما لو أنه يشكك في ما قلته عنه وعن شقته. هذا ما بدا في تعثري في الإجابة، إذ

رحت أقول له بأنه إحساس فقط، ولا يسعني شرحه. ولما راح يستبين خفايا إجابتي، أو يتبين احتمالاتها معي، وجدتني أقول له بأن محتويات الشقة تعود له في أسلوبها، ولم ينقلها عن كتاب، أو عن دليل في معرض، أو من واجهة محل، ما يعني أنه اختار أسلوب شقته بنفسه... مثل شخصيته أساساً، التي بناها بنفسه، خارجاً على كثير من التقاليد.

شكرني عصام على ما قلته، واجداً في قولي ما يدعو إلى الاعتزاز، على الرغم من أنه ليس أكيداً تماماً من صحة تقديري له. فكان أن فاتحته بسؤال كنت أود أن أطرحه عليه منذ سنوات بعيدة، من دون أن أتبين ضرورته الملحة وقتها: لماذا ألمانيا؟ طرحتُه عليه، وقد وجدتني، بعده بسنوات، أسعى بدوري إلى العمل خارج لبنان: لطالما استوقفني كلام والدي، منذ الصغر، عن «جودة» الصناعة الألمانية، التي أدت به إلى شراء امتياز بيع عدة سيارات ألمانية، ما جلب له النجاح والثروة بعد سنوات، لكن هذا لم يقدني إلى ألمانيا، إذ إن ميل والدي الدراسي كان فرانكوفونياً صريحاً... ثم أضاف عصام ضاحكاً: لا علاقة لإعجابي بمايكل شوماخر في سباقات «الفورمولا وان» بتوجهي إلى ألمانيا... كنت أريد ترك لبنان فقط. كنت أنتهز أي فرصة لتركه. كنت أتحدث عن ألمانيا معكم، ولكن من دون أن تكون لي معرفة ما، أو دافع دراسي بعينه... أحد أساتذتنا أخبرني، ذات يوم، عن إمكان حصولي على منحة للدراسة في ألمانيا، بعد أن كان يظن أن ولعي المعلن بألمانيا مبني على معرفة أو صلات أكيدة. وهكذا كان...

لم تكن دراسة عصام بالهينة، إذ تطلَّب الأمر منه تمضية عام كامل في تعلم اللغة، قبل أن ينصرف إلى إعداد شهادة الدكتوراة، بل

كان عليه، إلى جانب ذلك، إعداد شهادات فرعية في الأدب الألماني، والأدب الكلاسيكي، مع التمسك الشديد بدراسة اللغات السامية: عليكَ أن تعرف أن كل شيء في ألمانيا يتحول إلى صنيع ألماني بالضرورة، بما فيه شهادة الدكتوراة في الأدب العربي، أو في الترجمة وغيرها.

كان في ود عصام التباسط المزيد معي في خياراته، في ما فعل، خصوصاً وأنني عرفته في سنوات الشباب والطموح، وهو ما لا يتاح له إجراؤه مع أحد، إذ إن مَن يعيش معهم ويعرفهم هم «أشبه براكبي قطار يتوقف لدقائق معدودة، فإذا بأناس مثلي يلتحقون به. . . يلتحقون به مقطوعي الصلة بماضيهم. . . وإن كان لهم أن يستعيدوا هذا الماضي، فهم يستعيدونه وحدهم، في صمتهم، من دون أن تكون المراجعة سعيدة بالضرورة».

كان في كلامه بعض الألم، بعض الأسى، إلا أنه كان ملزماً بإيقاف حديثنا، إثر التحاق صديقته بنا. في الصالون، أو على مائدة الطعام، جرى الحديث بالألمانية، ما أراح صديقته للغاية. تبيَّنت، من خلال الحديث، كونها تعمل في مكتبة الجامعة، وأنها مطلقة، ولها ابنة وحيدة، ترعاها طالبة أثناء غيابها هذا المساء لقاء بدل مادي. أخبرتها عن عملي على عدد من المخطوطات، ولا سيما في «المكتبة الوطنية الفرنسية»، ثم حادثتْني عن التحسينات الجديدة التي أدخلت على عملها، ما جعل الأساتذة، مثل عصام، يستفيدون منها. وهو ما عرضه بنفسه: لا نشتري كتباً في الغالب. نجد ما نريد فيها، وإن لم نجده نطلبه، فيوفّرونه لنا. . . إذا كان الكتاب قديماً، موجوداً في خزائن مكتبة أخرى، فإن المكتبة تعمل على استجلابه واستعارته من خارج ألمانيا مقابل: 2 يورو للطلب الواحد، خلال

شهرين في أبعد تقدير. أما الكتب القديمة، فيسمح لنا بتصويرها على آلة عجيبة تجعل الكتاب بمتناولنا خلال دقائق...

لم يكن في مقدور كلارا، صديقته، البقاء معنا أكثر من العاشرة والنصف ليلاً، على أن تصل إلى شقتها قبل الحادية عشرة ليلاً، وهو الوقت المتفق عليه بينها وبين الطالبة التي ترعى نوم ابنتها الوحيدة. وقبل أن تخرج، مدّتني ببطاقتها المهنية، وأبلغتني استعدادها لمساعدتي في أي عمل تنقيبي بين الكتب والمخطوطات، ولا سيما القديمة بالطبع: قد أجد لك ما يفيدك من دون شك عن **«ألف ليلة وليلة»**... ففي خزائننا ما قد يعزز معرفتك بهذا العمل الأدبي الرائع.

كان عصام متشوقاً لمعرفة أخباري، ولا سيما بحثي في كتاب الحكايات، إلا أنني، كما في أيام الدراسة، كنت أميل إلى نقاشات أخرى. عندها تلقف عصام النقاش من جديد، وقال لي: أعتقد أنك تملك صورة مثالية، خاطئة بعض الشيء، عني... ثم استفاض في حديث طويل عمّا عايشه في ألمانيا بعد حلوله فيها، وعما واجهه فيها من صعوبات: ما كنت أعلم كم كنت مختلفاً عنهم... كنت أظنني لبنانياً مختلفاً، فإذا بي أتحقق، في عيشي معهم، من كوني لبنانياً قحاً، ومن دون علمي. كان عليّ أكثر من مرة أن أتحقق من لزوم النظام، من قيمة التربية، من شدة المنافسة، في كلّ ما يفعلون. هذا شعب بنته النساء بعد الحرب العالمية الثانية، وقد سقط منهم فيها ما يزيد على عشرين مليوناً... أتعرف أن الأمهات، مثل جدة كلارا، كانت تحتسي الحساء حتى نقطته الأخيرة، وهو ما كانت تطالب كلارا، وابنتها اليوم، به: بعد الحرب، كان الحساء وجبتَنا الوحيدة، طوال النهار.

إلا أن في كلام عصام بعض الألم، بعض الأسى، أليس كذلك؟ أجابني: هذا صحيح. الفتى الطموح الذي كنت تعرفه اختلف عمّا كان عليه. تحققت سنة بعد سنة من أنّ التربية مهمة للغاية في بناء الإنسان، وهو ما نفتقده في لبنان وفي العالم العربي، بل هو ينبوع مشاكلنا في السياسة وغيرها. تحققت أثناء دراستي، ثم في تدريسي، من أنني تحولت إلى كائن آخر، بالمعنى الثقافي والتعليمي... لم أعد عاملاً في الثقافة العربية، وإنما أصبحت معلِّقاً عليها، عارضاً وشارحاً لها. هذا أفقدني فضيلة التموقع السابقة...
إلا أنني قاطعتُه بالقول: هذا يناسب وضعية المترجم، أليس كذلك؟ ثم نظر عصام في وجهي ساهماً، وقال: لعلنا درسنا الترجمة، وعملنا فيها، من دون أن ندرك بالضرورة أنها تفتح شهواتنا ومداركنا على كل ما يحيط باللغة، ليس نقلاً وحسب، وإنما تأليفاً لها أيضاً؟

الفصل الخامس

أكواز صنوبر للبروفسور

بلغ اسمي ستراسبور قبل وصولي إليها بسنوات.

بلغَها من دون صورتي. بلغَها محرَّفاً، ما لا قدرة لي على تصحيحه، كتابياً على الأقل.

روزالين، سكرتيرة الدائرة، كتبته في يومي الأول في الجامعة: (DJIHAD)، ما يمكن كتابته بالعربية كما يلي: دجِهاد.

موظف المكتب العقاري، لما وقَّعتُ معه عقد إيجار الشقة، كتبه مثلها؛ ولما استدركتُه بالتصحيح، أجابني: لكن جريدة أخبار الألزاس الأخيرة تكتبه على هذه الشاكلة!

هذا ما سمعتُه في فيلم فرنسي عن حرب الجزائر، إذ وجدت الضابط يحادث جنوده عن: «الدجبل»، أي: «الجبل».

ما سمعته في الفيلم عن حرف الجيم أزعجني قليلاً لما كنت أستمع إليه عند مناداة بعضهم لي، إلا أنهم أساتذة وطلاب عارفون في العربية، ما دعاهم إلى تصحيح النطق على عجل؛ عدا أن الاستماع للاسم قد لا يُظهر نطقه المختلف، إلا إن أصخنا السمع لعمليات التلفظ. أما أن تقرأ اسمك بصورة مختلفة، و«ثبوتية» إذا جاز القول، في جريدة أو مستند، فهذا ما لا يمكنني تحمله.

ما قاله الموظف وجدتُه في جريدة لو موند، إذ تتحدث عن

«الجهاد» عند المسلمين، فتكتبه مثل روزالين، أو تكتبه روازلين مثل الجريدة. أو في حديث الجريدة كذلك عن «الجهاد الإسلامي» وغيرها من ملحقات هذا الاسم، الذي بات يضايق والدي نفسه. فكيف أنا؟!

كان والدي فخوراً باسمي. اختاره قبل ميلادي، بل حتى قبل زواجه. اختاره، لا لدلالاته النضالية وحسب في أيام التظاهرات الطالبية، وإنما لكونه اسماً عربياً خالصاً، ويصلح لجميع الطوائف من دون انتماء بعينه. هذا ما كان صالحاً ربما في زمنه، لا اليوم.

أنا الذي بتُّ مرتبكاً في اسمي، أقرأ في «يوميات» فرانز كافكا: «من دون أسلاف، من دون زواج، من دون أولاد، مع رغبة عنيفة في (أن يكون لي) أسلاف، وزواج، وأولاد. كلهم، الأسلاف، الزواج، الأولاد، يمدُّون يدهم صوبي، إلا أنها بعيدة عني».

ثم يتابع: «هناك لكل الأشياء، للأسلاف، والزواج، والأولاد، تعويض اصطناعي ومثير للشفقة. إننا نَخلق هذا التعويض وسط مغص من الألم، ولنتصورْ أن عنف هذا المغص لم يدمرنا، فإننا سنشهد (المصير) نفسه من جراء الفقر المفجِع لهذا التعويض».

فيما قرأت لكافكا في مكان آخر: «هذا التدفق الحميمي الخفيف، الجدير بأن يكون اسمه: الحب، لا يبلغ كلَّ من يتوجه صوبه، بحثاً عنه، فلا يصدر عنه سوى ضوء عابر».

تستيقظ ستراسبور من نومها ببطء، بتكاسل، في هذا اليوم الربيعي.

استيقظتُ قبلها، من دون جرس إنذار هاتفي النقال. خرجتُ من شقتي من دون موعد، حتى إنني ما وقعت على عمال التنظيفات، ولا على موزعي البريد. كانت المدينة متاحة لي: متاحة لمقابض

يديَّ على حجارتها، ولا سيما عند عبور الجسر؛ لخطواتي فوق بلاطاتها المعتمة والقديمة والمصقولة بفعل من تنقل فوقها بين عربات وأحصنة وأحذية وجنود.

خرجتُ إليها، مثلما أستيقظ أو أنام، أو أعدُّ طبق أكل، في شقتي نفسها. كما لو أنني أفتح باب المطبخ، أو أتلمس الحبقة التي تعلو مكتبي قبل مغادرة الشقة. كما لو أنني أتقدم إلى الحمام ليلاً، من دون أن أضغط على زر الكهرباء.

باتت بمتناولي، حتى إنني أقوى على التمشي فيها «عالعمياني»، كما نقول في لبنان... حتى إنه بات في مقدوري الحديث عن مدينة لي فيها، إذ قلَّما أنتقل من هذه المدينة إلى خارجها، حيث تقيم فضيلة وابنتها، أو إلى «البرلمان الأوروبي»، أو إلى حيث نقلتني فيرا في حديثها عن بيت والدها في الضاحية القريبة. مدينتي لها سبل ومسارب غير الجادات والشوارع وإشارات السير وخط الترامواي. أتنقل بخفة فيها، وما لا أستطيعه بخطواتي أنتقل إليه عبر بصري، وما لا أقوى عليه بصراً أنتقل إليه خيالاً، أو عبر ما قرأت عن تاريخ المدينة المضطرب والحافل.

هي تصلح لأحوالي المختلفة، وتلبيني، أو هي تفتح شهيتي على الأكل ظهراً في مطعم «تقليدي» في المبنى التجاري الكبير، أو هي تستدعيني إلى ممري، الذي بات يحمل اسمي، لا اسم الفيلسوف، والتر بنيامين: فيه أتوزع بين شجرتين، بين الأولى التي أسميتها: «الثابتة»، والأخرى: «العابرة»، إذ إنني أُشبه هاتين الشجرتين. وإن وجدت نفسي في هيئة إحداهما، فإنني لا ألبث أن أتبين كوني واقعاً بينهما، في أرجوحة ممدودة بين أغصانهما.

بعد «سوق الكتب»، أتى دور «سوق المنتِجين»: غذاء المعدة بعد غذاء العقل. البروفسور هيبوليت قادني إلى السوق الأول، بعد أسابيع قليلة على عملي في المكتب المجاور له. كان ذلك يوم سبت، على الرغم من وجود يومين آخرين، الثلاثاء والأربعاء، للتبضع الكتبي. لم يكن يبعد السوق كثيراً عن «مقهى بروغلي»، بل انتقلنا إليه مشياً، ما دعا هيبوليت إلى شرح الترابط بين اسم الساحة واسم السوق، إذ إن غوتنبرغ وضع أول مطبعة في التاريخ في ستراسبور نفسها، بين العام 1443 والعام 1445.

أما السوق الثاني، غير البعيد عن السوق الأول، فقد قادتني إليه فضيلة. «سوق الكتب» زرتُه مرة واحدة، أشبه بالزائر السياحي، فيما زرت الثاني مرتين وحدي، ثم في المرة الثالثة، مع فضيلة نفسها، التي قبلت بالخروج معي إلى السوق، وقد لاحظت، أثناء تلقِيّ «الدروس الطبخية» معها، أنني لا أحسن اختيار البقول والخضراوات. كان ينتظم السوق يوم السبت، قبل الظهر، بين الساعة السابعة صباحاً والساعة الواحدة بعد الظهر، ما يكفي لأعداد الزوار لشراء ما يحتاجونه للأسبوع، مختارين ما يطلبونه من المنتجين أنفسهم، من أصحاب المزارع المجاورة: الطبخ الممتاز يبدأ مع اختيار مواده... أيّ طبق جميل هو ممتع بجودة مواده أولاً. هذا ما قالتْه فضيلة، ورددتْه على مسامعي، في مرتين سابقتين بعد أن دعتني إلى التخلي عن شراء المواد من المساحة التجارية الكبيرة. ثم نبهتني، بعد ذلك، إلى وجوب حسن اختيار المواد قبل شرائها: يحتاج الشاري إلى فحص المواد، إلى لمسها، وإن غضبَ البائع... هناك مواد تحتاج إلى أن تكون ناضجة، فيما يطلب في غيرها أن تكون فجة، أو صلبة...

وافقت فضيلة على مرافقتي بعد طول تردد: ماذا لو وقعنا على أحد معارفنا!؟ هل نعيش مع بعضنا لكي نقوم بشراء مواد الطبخ معاً؟ إلا أن فضيلة كانت تثير هذه الأسئلة وغيرها مثل من يستعد فعلاً لتمضية سهرة راقصة، أو لتناول عشاء، مع عشيقه المحتمل. استوقفني لما بلغنا السوق أنها، ما أن كنا نستعد للخروج من الباص، وضعت منديلها على رأسها، دعتني للمشي أمامها، على مسافة دائمة منها: تستعد للهرب في أول لحظة، أو للتملص من كونها ترافقني.

كان الدرس فاشلاً، إذ لم يكن ممكناً لها أن تقف إلى جانبي دوماً، ولا أن تشرح لي براحة أن اختيار الخضار يتم عبر العينين أولاً؛ عدا أن أحد المنتجين لم يقبل بما فعلتُه، لما أمسكت برأس بندورة ورحت أتحسسه أمام أنظار فضيلة، إذ غضب فيما يقول: أتظنك تلعب بثدي صديقتك؟

تركتْ فضيلة منصة البيع من دون ردة فعل، حتى إنها ما سمعتْ ما قلته للبائع. كانت تمشي بخطى متلاحقة، ما جعلني ألحق بها من دون أن أتفوه بكلمة. ولما بتنا على مسافة أمتار من منصة آخر العارضين، دعوتها إلى احتساء فنجان قهوة في مقهى قريب، فلم تعترض.

ما أن جلسنا في المقهى، نظرتُ إلى وجه فضيلة، فلم أجد فيه ما ينذر ببكاء. ولما اعتذرتُ منها عن فعلة البائع، ردتْ بالقول: ما كان لنا أن نأتي سوياً إلى السوق... هذا مدعاة لأكثر من تفسير، بل لتفسير واحد، لكنْ فضيلة أبقت جملتها الأخيرة فارغة من اللفظ الضروري لها: التفسير الوحيد الممكن لوجودنا معاً هو أننا زوجان أو عشيقان.

فضيلة صديقتي!؟ فضيلة عشيقتي!؟ البائع رأى، بخبرته الإنسانية الواسعة، ما لم أره سابقاً. قال ذلك مثلما كنا نقول، في أيام المراهقة، لبعضنا البعض: أراك مغرماً بسامية أو نادية... طبعاً أنت لا تعرف ذلك، أو تنكره... الآخرون وحدهم هم الذين يلاحظون وقوع أحدهم في الغرام، لا المغروم نفسه... والغريب هو أن البائع لم يجد غرابة في أن أكون صديق فضيلة أو حبيبها... أأكون مناسباً لها في العمر، وهي تكبرني بسنوات، وإن كانت قليلة على ما أظن؟ ألم يجد البائع فرقاً بين كوني أستاذاً وكونها موظفة في مطبخ الطلبة؟ هل وجد أن ميلان سحنتي إلى السمرة يشبه سمرتها، وأننا من بلد واحد؟ ألم يلاحظ أن شفتيها تميلان إلى الانتفاخ مثل الشفاه الأفريقية؟

لم تعترض فضيلة على مرافقتي إلى شقتي لإيداع الأغراض التي اشتريناها، ولإجراء تمارين الطبخ. كانت تجلس إلى جانبي في الباص، حتى إن بعض جسمها كان يلامس جانبياً جسمي، ولا سيما في الانعطافات والاستدارات، بل تعمدتُ عند توقف الباص بشيء من السرعة إلى رمي جسمي عليها أكثر من الاندفاعة نفسها، فضحكتْ فيما كنت أعتذر منها، ثم ضحكتُ بدوري. ولما سألتْني عن سبب ضحكي، أخبرتها بأن هذا يذكرني بمشهد في رواية أحبها: «التربية العاطفية». ولما استفسرت في صورة مزيدة، شرحتُ لها حكاية غرام فريديريك الصعبة بمدام أرنو، وكيف أن جلوسه معها في مركبة الجياد، مع ابنتها، التي كان تصل وتفصل بين جسديهما، كان الصلة الأولى الجنسية بينهما.

توقفتُ عن الكلام، من دون أن أجرؤ على رفع رأسي، على استبيان تعابير وجه فضيلة، التي كانت قد نسيت وضع المنديل على

رأسها، بعد المقهى ثم في الباص. صمت ثقيل، نكون فيه جالسين، جامدين، نكاد ألا نتنفس، فيما نعدو سريعين في طرق متشعبة، متداخلة، فلا نعرف ما إن كنا سنقع على باب خروج، أم أننا سنقع على باب مسدود.

هناك ما قبل «سوق المنتِجين»، وهناك ما بعده، بيني وبين فضيلة. هذا ما أظنه، إذ ما أن دخلنا إلى الشقة، وجدتُها تتجه مباشرة إلى المطبخ. بعد أن سوَّت الأغراض في أمكنتها المناسبة، في البراد أو إلى جانبه في السلة المناسبة، دعتني إلى الجلوس على الطاولة، لمباشرة درس جديد.

ما كانت تحدثني به، كنت أفهمه، لكنني لم أكن موفقاً في الدروس التطبيقية: الطباخ لا يحتاج إلى غسل يديه، إذ إن يديه مبللتان دوماً... لهذا تكون يداه طريتين دوماً. أما أنت فتحتاج إلى تمارين كثيرة، وأن تكون ليديك نعومة وطراوة وليونة... لا يمكن أن تُقبِل على حبة خضار مثلما تُقبِل على وضع مسمار في حائط، أو على تقطيع الخشب بالفأس... ولما استغربتُ أمثلتها، أجابت: هذا ما علَّمني إياه البروفسور ماريو في مطبخه العجيب.

لما أخبرتُها عن رغبتي في استكمال حكايتها، نظرتْ في وجهي مبتسمة: ألا تكون مثل شهريار تطلب من شهرزاد استكمال الحكاية التي توقفت عندها في الليلة الفائتة؟ عندها أمسكتُ فضيلة بيدها، وقدتُها إلى الصالون، وأجلستها على الكنبة، فيما جلستُ على الجهة الأخرى منها، وقلت لها: أتعلمين أنني أتيت إلى ستراسبور، إلى فرنسا، من أجل شهرزاد؟

لكن فضيلة ما لبثتْ أن تجهَّمت، وأمسكتْ عن الكلام. ولما استفسرتُها عن سكوتها، نظرت في وجهي مباشرة، فيما كانت غيمة

من بكاء تلوح في بياض عينيها: هذه قصة حياتي، يا أستاذ، وهي ليست حكاية كمثل الحكايات.

هاتفتني فيرا في هذا الصباح المشمس، وأخبرتني أنها تريد عنواني البريدي، لأنها تريد إرسال بعض الأوراق والصور الفوتوغرافية لوالدها، بعد أن وجدتها في كتاب بعثة في فينيقيا لأرنست رينان: أتذكر؟ لقد ذكر اسم هذا الكتاب في إحدى القصاصات التي عثرت عليها في السابق... عدت إليه في مكتبة والدي في بيته، ووجدتُ فيه رسالة طويلة وقصاصات، وعدداً من الصور الفوتوغرافية... الصور مرتبطة بذلك الوقت، على ما أظن، إذ إنها صور قصيرة المقاسات، وبالأبيض الأسود، عدا أنها قد توضح بعض ما ورد في القصاصات السابقة. لما أنهينا المكالمة، سألتني: أستمضي عيد الفصح في ستراسبور؟ ولما أجبتُها إيجاباً، أخبرتني عن مفاجأة أخرى سترسلها عبر البريد أيضاً، لأنها مشغولة جداً في تحضيرات العيد.

كانت أكثر من مفاجأة. كانت مفاجأة صاعقة: تدعوني فيرا إلى الاحتفال بزواجها من صديقة لها، في بلدية واقعة خارج ستراسبور، صباح السبت الواقع فيه 19 أبريل، على أن نمضي سهرة العرس معهما، ومع المدعوين، في فندق-مطعم: «الأيِّل»، الواقع في ضاحية ستراسبور؛ كما تشمل الدعوة تمضية ليلة السبت-الأحد في الفندق. أرفقتْ فيرا، مع الدعوة، خريطتين تفصيليتين للبلدية وللفندق، كما كتبت على ورقة مستقلة جملتها التالية: أشدد على حضورك، إنك الأقرب إلى عائلتي... أنتَ أعدت إليَّ والدي

المفقود، ولو بعد وفاته. ثم وضعتْ في هامش إشارة تفيدني بأن كريستين نفسها، مساعدتي الإدارية، يمكن لها أن تتكفل بإيصالي إلى المكانين في اليوم الموعود. فيرا مثلية جنسية، إذاً! أتُنفِّذ - أخيراً - ما بات يتيحه لها «الزواج للجميع»؟ أتكون كريستين بدورها مثلية جنسية؟

دانييلا هاتفتني صباح اليوم التالي، فما أجبتُ. كررت المحاولة بعد أقل من دقيقة، ثم مرة ثالثة ورابعة، قبل أن تعاود ذلك بعد أقل من نصف ساعة. لما أجبتُ، علتْ بصوتها في وجهي، ثم تكلمت بنبرة أقل شدة، ما أن استنكرتُ لهجتها. عاودت طرح السؤال الأول بحدة خفيفة: لماذا لا تتصل بي؟ أجبتها بما لا أقوى حتى الآن على تخيل حدوثه من دون تخطيط مسبق: لماذا أتصل بكاذبة!؟ ساد صمت مرعب، مني ومنها، بعد تلفظي لهذه الجملة المفاجئة، كما لو أن ما حدث جعل الكون يفرغ تماماً، إثر انفجاره المدوي، ما أبقى وقتاً للناجين يتفقدون فيه آثار الانفجار المدمرة. أبقى وقتاً لي لكي أتفكر في سبب صدور هذه الجملة مني، وكيف أنها علت، بل دفعت هدوئي الاعتيادي إلى هوة الانفجار. وأبقى وقتاً لها، لكي تنفجر في بكاء متصل، ما جعلني أنهي المكالمة، وأضع هاتفي في وضعية صامتة.

استعدت يوميات غالان، من دون أن أحسن قراءة أي حرف فيها، فيما لا أتوانى عن النظر إلى شاشة هاتفي، من دون أن تلمع صورته أبداً، وتنذر بقدوم مكالمة هاتفية. أكانت طريقة مناسبة لقطع علاقتي بدانييلا؟ ألا أكون ظلمتُها، بدليل أنها بكت وحسب من دون أن ترد على تهمتي؟

أمضيت وقتاً، للتخفيف من غضبي المباغت، في تفحص الصور

الفوتوغرافية: كانت ذات قياسات لم أعتد عليها أبداً، إلا لمّا عرض عليّ والدي صوراً قليلة له مع أخواته في القرية: مَن تراه واقفاً بين أغصان شجرة التفاح، هو أنا... هذه عمتك أليدا... كانت أياماً هانئة، أرافق أخوتي الكبار، فأساعدهم في حمل مواد الأكل، أو آلة التسجيل وبكراتها... كان من الصعب عليّ التعرف على وجوه كثيرين ممن وقعت عليهم في الصور، بمن فيهم أخوته أنفسهم.

كان الأمر أصعب مع صور البروفسور، إذ كانت تجمعه، في واحدة منها، مع أشخاص لا أتبين وجوههم تحت عريشة عنب؛ وأخرى مع رهبان وعدد من المزارعين ما يَظهر في ثيابهم الوسخة وفي أدوات عملهم، ولا سيما المعاول. أو معهم أو مع غيرهم في ظلال سنديانة كبيرة... بتُّ أليفاً مع هيئة البروفسور في الصور المختلفة. أضحكتني إحداها، وكان يمثل فيها أمام صخرة عالية، واضعاً قبعة لافتة فوق رأسه، هي من النوع الذي يعتمره علماء الآثار في حفرياتهم. أكان عالم آثار، فضلاً عن دراساته اللغوية والأدبية؟ هذا ما قادتني إلى طرحه رسائله الأخرى، التي يتحدث فيها عن نقوش، عن حفائر... أو عن بعثة في فينيقيا، ما انتبهتْ إليه فيرا بدورها. إلا أنّ ما استوقفني أكثر من غيره في هذه الصور، التي بلغت أكثر من عشر صور، هو وجود صورتين تُظهران صبية في لقطة مقربة، جالسة فوق حجر كبير، وهي تضع منديلاً على رأسها، وتمسك بيدها اليمنى عصا طويلة. أما الصورة الثانية فكانت تُظهر الصبية عينها ولكن في صورة مهزوزة، على ما يبدو. ألا تكون هذه هي الراعية مع قطيعها، كما وصفها في رسالة اطلعتُ عليها سابقاً؟

يبدو أن كتاب رينان هذا يمثل حلقة، أو رابطاً شديداً، بين صور البروفسور المختلفة، أو بينها وبين عمله في تلك السنة بعينها.

أدارت هذه في مرتفعات جبل لبنان، أم في فلسطين المحتلة؟ ذلك أن رينان زارهما، في عداد البعثة العسكرية التي أرسلها نابليون الثالث لاستتباب الأمن بعد المعارك الطائفية في جبل لبنان بين الدروز والمسيحيين. وما قرأته عن «البعثة» يفيد أن رينان كان يتوخى، من وراء ذلك كله، التعرف على البيئة الطبيعية والإنسانية التي ولد فيها السيد المسيح، وهو ما أفاد منه طبعاً في كتابه الشهير: **حياة يسوع**، الذي أظهرَ فيه، لأول مرة عند باحث، الوجه الإنساني من حياة السيد المسيح، ما يعدّ نقلة كبيرة في التعامل مع النسق الديني، لكن العالِم الفرنسي خلّف وراءه، في عمشيت الساحلية، قبر أخته التي رافقته في الرحلة، وعاد منها بمادة كتابه الذي لم يكن محسوباً تماماً، وهو: **بعثة في فينيقيا**. أعاد البروفسور بدوره إلى المواد الأثرية المختلفة التي ذكرها رينان، ونقل بعض صورها؟ أهو يستكمل أو يدقق في بعض ما درسه رينان؟

أما القصاصات التي عثرتْ عليها فيرا فأكثر من واحدة: إحداها ترسم بالقلم الرصاص ما يبدو أشبه بنقش فوق الصخور، وحروفه هي أقرب إلى اللاتينية. وقصاصة أخرى تُظهر ما يبدو أشبه بالموقع الذي رسم فيه النقش، ويتبين أنه صخرة كبيرة وعالية، فوق أرض ترابية.

وجدتُ بين القصاصات رسالة، في حالة مزرية، سواء في خطها المتعجل، على ما يبدو، أو في ما أصابها من تلف طيّر بعض كلماتها أو حروفها، بفعل الاهتراء على الأرجح:

.

لليلة الثانية والثالثة على التوالي تبلغني في خيمتي هذه الأصوات المنكرة. خلتُ أنها أصوات حيوانات متوقعة، تتنقل في

الليل خارج الغابة. لكنني ما لبثت أن انتبهت إلى أنها غير بعيدة عن خيمتي، وهي ثابتة البعد عنها، ما يشير إلى أن مصادر الأصوات واقفة، جامدة. لكنني، هذه الليلة، سمعت صوت إطلاق رصاص بعيد بعض الشيء: ثلاث رصاصات متتابعة... ما مصدرها؟ أجَرَى إطلاق الرصاص على أحد هذه الحيوانات المتربصة؟

أصابت الدهشة رئيس الدير لما فاتحته في اليوم التالي بما جرى: الحيوانات موجودة، أكيدة، غير أنه يصعب ظهورها في الربيع، في الغالب، أما صوت الرصاص فلا أرى مبرراً أو سبباً له. هذا ما جعل الراهب يشدِّد على بقائي في الدير لهذه الليلة....

لما صعدت من جديد، في اليوم التالي، إلى الغابة، وجدت خيمتي في حالة صعبة، إذ عبث البعض في محتوياتها. أهي الحيوانات أم مطلقو الرصاص؟

أليس وصلتْ مع والدها، اليوم، من دون القطيع. ما أن وقع نظرهما عليَّ اقتربا مني، ودعاني والدها إلى تمضية السهرة عندهم في القرية؛ وهو ما قبلتُ به شاكراً. انتبهت، عند محادثتنا، إلى أن أليس - وقد عرفتُ اسمها أخيراً - لا تتوقف عن النظر بدهشة إلى وجهي، من دون أن تفارقه أبداً.

كان والدها تاجر غنم، ويحسن التكلم بشيء من الفرنسية، ما جعله مترجماً لكلامي في السهرة. كنتُ فيها أشبه بالدب الذي تأتي به فرقة جوالة من المهرجين إلى مدينة صغيرة، فيتجمع الفضوليون وغير الفضوليين أمام غرفته الحديد المحمولة... كاد أحدهم أن يلمس يدي ليتأكد ربما من أنها من لحم ودم وعضل، مثل يده. كانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث لا تصلني، وإن وصلني بعض

رذاذها، فما كنت أفهمها في لغتهم «البلدية»، كما أحب تسميتها.
وصلتُ في السادسة مساء إلى بيتهم، نازلاً من الدير، الذي يقع في أعلى القرية، ويشرف عليها. استقبلتني والدة أليس أمام البيت، وجلسنا تحت العريشة، فيما راح البعض يتقاطر إلى جلستنا، ما أن انتشر، على الأرجح، خبر وصولي إلى البيت.

كان في ودي الدخول إلى البيت. كان في ودي الاقتراب أكثر من أليس. لكنها ما أن كانت تظهر حتى تختفي، إذ كانت تساعد أمها في إعداد أطباق الأكل، وكاسات شرب «العرق». ما أن تظهر كانت تُطلق صوبي ابتسامتها الساحرة، ثم تدير تنورتها دورة، أي تجعلها تتموج فوق ساقيها، لتلتف وتعود من جديد إلى حيث تعمل: تنانير «الكلوش» الجميلة، هل وصلت إلى قرية أليس من باريس؟ ومن أين أتت باسمها، هي الفلاحة وأهلها؟

لم أكن مرتاحاً في السهرة. كنتُ موضوع اجتماعهم الغريب. يسألوني عن سبب مجيئي إلى قريتهم. عمّا أبحث فيها؟ ماذا عن علاقتي برئيس الدير؟ ما هي الأدوات التي أنقلها معي إلى حيث الصخرة الكبيرة؟ لماذا أنام في خيمة على مقربة (...)؟ ماذا عن الخريطة التي (...)؟ ماذا (...) الرسوم التي فيها؟ أهي تشير إلى كنوز مطمورة (...)؟ ماذا عن النقوش؟ في أي لغة (...)؟ ماذا تعني؟ أتشير إلى خريطة الكنز؟ هل تحب الجنرال ديغول؟ هل تعرف أن جون كينيدي، الرئيس الجديد، هو كاثوليكي مثلنا؟

الأخبار تصل، مع ذلك، على الرغم من أن الفلاحين ينتقلون فوق دوابهم لبلوغ الغابة، أو للانتقال إلى قرى أخرى قبل ركوب السيارات والنزول إلى جبيل. الأخبار وصلتهم، على ما يبدو، بدليل معرفتهم بانتخاب كينيدي قبل شهور قليلة... لكن أخبار يوري

غاغارين لم تصلهم عن دورانه حول الكرة الأرضية، ولم يصلهم خصوصاً خبر اجتماع كينيدي بديغول قبل مغادرتي باريس بأيام. . .

في قصاصة أخرى وجدت التالي:

بلغني، اليوم، من رئيس الدير، خبر انحراف قطار متجه من باريس إلى ستراسبور عن سكته، في 17 من هذا الشهر، ووقوع قتلى وأعداد كبيرة من الجرحى. لا يسعني الاتصال هاتفياً من الدير بماريا للاطمئنان على صحتها، إذ إن الأمر يحتاج إلى عملية اتصال معقدة بين الدير ومركز الاتصالات الدولية في الوزارة ببيروت، عدا أنني سأكون محرجاً في الكلام معها أمامه من دون شك. أما الاتصال من هاتف دكان القرية، فهو مدعاة للتسلية، لا للتخابر، طالما أن والد أليس أخبرني بأنهم لا ينجحون في الاتصال بطبيب قريب في دوما، التي لا تبعد أكثر من عدة كيلومترات عنها، فكيف بستراسبور!

لم ينفع إنكار دانييلا لكذبها المتمادي معي. لم أدعها تقبّلني، لما فتحتُ باب شقتي ووجدتُها تقف أمام عتبته. ذلك أن أسئلتي لها تتالت، خصوصاً عن كونها راهبة. لكنها وقفتْ بعد هذا الجدل المضني، ورفعت صوتها: ماذا لو كنتُ راهبة؟ أفي الأمر ما يزعجك؟ هل تظن أنني، لو كنت راهبة فعلاً وتركت الدير فعلاً، فسأعترف بذلك بسهولة؟

أتت دانييلا إلى شقتي، كما لو أنها جارتي. وصلت من المحطة القريبة من دون حقيبة، ممسكة وحسب بحقيبة صغيرة من قماش، مما يوضع على الظهر، ولا سيما لدى الشبان، ممّن ليسوا في

عمرها، وليست لهم عاداتها. لكنني لم أكن مستعداً لمجاراتها في أي أمر، وللحديث في أي شيء كان، قبل أن تقرّ بكونها راهبة سابقة، وتسرد لي سيرتها الخفية هذه. لكنها ما أن أذعنت للأمر، اقتربت من وجهي، وأسرَّت في أذني اليمنى: تحت اللحاف، كما في فيينا.

ما أن انتقلتُ معها إلى غرفتي، إلى تختي، وتمددت فوق السرير، حتى وجدتها تنزع عنها ثيابها الخفيفة. وهو ما فعلتُه بدوري، متذكراً طريقتها القديمة في الاعتراف:

أنا ابنة كاهن، كما تعلم. كنت ابنتهما الوحيدة، من دون أن ينجباً طفلاً آخر غيري، بعد أن استبدت بهما الخلافات، وقبل أن يقررا الانفصال، ثم الطلاق. كنت أعيش معه، وأتابع دروسي بكل نجاح، مضيفة إليها ما أخذته منه، من تعلقه الزائد بالفن الديني. كنت أنتقل معه أحياناً إلى بعض الرعايا، في واجباته الدينية، كما لو أنني مساعدته في أداء القداس... دخلت إلى كنائس البروتستانت، وإلى كنائس الكاثوليك، كما اعتدت معه على زيارة بعض أديرة رهبانية، مثل دير «أخوات مريم الإنجيليات» القريب من فرانكفورت. هذا جعلني ابنة الكنيسة التلقائية. هذا ما ظهر سريعاً في سلوكي المثابر والمحافظ، بخلاف بنات دراستي. هذا ما ظهر في لباسي ذي اللون الواحد، المعتم في الغالب، ما جعل الشبان يسخرون مني أحياناً في الثانوية. هذا ما ظهر في قراءاتي، حيث انصرفت إلى قراءة سِيَر كبار الراهبات القديسات اللواتي أقدمن على إنشاء رهبانيات. هذا ما جعلني أختار القديسة تيريزا دافيلا مثالاً لي، وقد وجدتُ في كونها فقدت أمها وهي في الثانية عشرة من عمرها شبهاً

لحالتي، عدا أنه شكل حافزاً لي لمتابعة طريقها: من لم يحظَ بعائلة صغيرة، سيفوز بعائلة كبيرة من دون طلاق أو فراق.

لما فاتحني والدي بإمكان تخصصي في الرعاية الاجتماعية، رفضت، وسألته ما إن كان في مقدوري الانتساب إلى رهبانية كاثوليكية للراهبات الكرمليات، وإلى ديرها في شمالي برلين. وافق والدي سلفاً على قراري، من دون أن يزعجه كوني سأختار المذهب الكاثوليكي... يومها ضحك والدي، وهو يقول: أتعرفين، حتى الراهبات الكاثوليكيات في ألمانيا الغربية هن ألمانيات قبل أي شيء آخر. ولما استعدت كلامه، طالبة فهم ما يقول، أجابني بأن هذا ما قاله أحد الكهنة الفرنسيين لما التقاه في أحد المؤتمرات الدراسية عن: فن الأيقونة.

عمَّ تتحدث دانييلا؟! لم يقنعني كلامها. لم أجد فيه ما يدل فعلاً على أنها صادقة، على أنها تروي سيرتها فعلاً. دعوتها للتوقف، وأخرجتُ رأسي من تحت اللحاف. لكنها أعادته إلى حيث كان، وهي تُسرُّ في أذني:

تمهل... هناك جرح كبير... لا يزال ينزف... أكثر من جرح تيريزا دافيلا.

زرتُ الدير المنشود مع والدي. أعجبتني جوانبه الفنية العديدة، التي تظهر أينما كان فيه: في المدخل، في الباحة الخارجية، في الكنيسة، إذ كانت كلها تستلهم الفن الحديث، لا الفن الكلاسيكي، كما في الكنائس والأديرة عادة.

انتسبتُ، إذاً، إلى الرهبانية. بعد فترة تمرس أولى، لازمة

للتأكد من صحة «الدعوة»، أعلنت نذوري الرهبانية. باتت لي أخوات كثيرات، أنا التي لم أعرف أختاً أو أخاً لي في الحياة المدنية. حتى أمي، التي انقطعت أخبارها عنا تماماً، وجدتها في كثيرات من الراهبات المتقدمات في السن، ممن كن ينصحنني ويوجهنني في حياتي الروحية. حياة منتظمة، لا يعكر صفوها سوى قرع الأجراس الجميلة في أوقات بعينها، ما بات أشبه بمواعيد أضربها مع نفسي. كان يُسمح لوالدي بزيارتي بالطبع من دون أي شخص آخر. كنت أرى الغير عن بعد. كنت أراهم، وأنا حانية الرأس عند الخروج من الكنيسة الكبيرة، أو عند الدخول إليها، يوم الأحد، إذ يلتحق بنا أعداد من المؤمنين للاحتفال بالقداس معنا.

كنت أمضي أيامي في الصلاة، في التأمل، في القراءة، ولا سيما في كتب الفن: جمعت كتيبات وشروحات وفّرتها لي رئيسة الدير عن الفنانين الذين ساعدوا في زينة الدير، الخارجية أو الداخلية. فالدير قام بين العام 1960 والعام 1963، بوصفه ديراً لتجديد ذكرى الشهداء الكاثوليكيين ممن سقطوا شهداء في الحرب العالمية الثانية، من جراء العنف النازي وقمعه لحرية الرأي الديني.

أين هربتْ دانييلا؟ أهي هربت من جديد؟ من سريري هذه المرة. ألا تكون قد هربت لكي تلتحق بالراهبة الإيطالية التي شاركت مؤخراً في برنامج «الصوت» الغنائي، في نسخته الإيطالية؟ ذلك أنني استيقظت في ساعة باكرة من الصباح، فوجدتني عارياً في سريري، من دون الراهبة المفترضة. لم تستبد بي الأسئلة الكثيرة والمتشعبة، إذ وجدت فوق منضدة الصالون الكبيرة ورقة منها:

عفواً، وجدت شهريار يغط في النوم، وأنا أقص عليه حكايتي وما فيها من كلام غير مباح...

لهذا خرجتُ من الحكاية، من سريره، قبل انبلاج الصباح.

بلى، أيها الأستاذ المدقق، كنت راهبة، ونزعت الثوب الرهباني عني قبل سنة وعدة شهور.

أعيش حالياً في منزل جدتي لأمي، في فرانكفورت. أهلاً بك إن طلبت معرفة بقية الحكاية.

لم أسرق شيئاً من البيت... تفاحة واحدة من البراد، بعد أن وجدت أنك لم تذقها، مخافة ارتكاب المعصية ربما.

بلى، يا عزيزي الكاثوليكي، أنا أعيش في المعصية منذ شهور وشهور. فكيف تظن أن في إمكاني الكشف عن هويتي؟!

جرحي ينزف كل يوم، خاصة حين أكون بعيدة عنك.

كانت نبرة كلامها صادقة. لم تكن مضطرة إلى قول ما كتبت، وقد تركتني أغط في نومي. بلى، هي صادقة، وقد أتت من فرانكفورت لمحادثتي، لإدامة الصلة بيننا. كانت تريد ترتيب سيرتها معي، من دون شك، لا مجامعتي. إلا أنها كانت مستعجلة، على ما يبدو. ألا تكون قد أتت إلى ستراسبور لأمر ما، وحلت عندي لساعات فقط؟ كيف تعرف، بالمقابل، عن اشتغالي على ألف ليلة وليلة؟ هل حادثتُها عنها؟ هل قرأتْها؟ أتصبح هي شهرزاد بدورها؟ ألا تتمنع فضيلة بدورها عن أن تكون شهرزاد أخرى؟

هن ينقلنني إلى شخصية شهرزاد، فيما لا يعبأ بها أيّ من طلابي. أنا بدوري لا أعتني بها. من يشغلني فيها هو مترجمها،

مؤلفها، وليس ما تقوله الحكايات نفسها. التقيتُ أحدهم، اليوم، في مكتبي من دون أن أسمع صوته سابقاً، أو أن أتبين وجهاً له في محاضراتي الدورية. إنه سامي فائق، من مصر، كما قدَّم نفسه. ولقد طلب مناقشتي في كون هذا العمل الأدبي منسجماً مع تقاليد الأدب العربي القديم؛ أي أنه يشكك في كون الحكايات هندية، أو فارسية. هذا ما قرأه مؤخراً في أحد الكتب التونسية، التي يشير باحثها، إلى أن الحكايات تنتسب إلى أنواع أدبية، سردية، معروفة، في الأدب العربي القديم. ثم راح يعدد وينسب هذه الحكاية أو تلك إلى هذا النوع الأدبي أو ذاك...

كان شديد الاندفاع والدفاع عما يقول، عمّا يدفعه أمامي، كما لو أنه يصحح ظلماً لاحقاً بشخصه، بشرفه، بكرامته، كما قلتُ له. فأنا لم أجد عند غيره مثل هذه الحماسة... المتأخرة، كما قلتُ له أيضاً. ما أثار انتباهي في كلامه، هو تنبيهه إلى أن المسعودي تحدث في كتابه عن **ألف ليلة**، وليس عن **ألف ليلة وليلة**: ألا يكون غالان نفسه هو الذي أطلق هذه التسمية؟ ثم توسعَ سامي في كلامه: كيف يحدث أن هذا الكتاب، الموجود في الهند ثم في بلاد فارس، قبل أن يظهر في نسخته العربية، لم يذكره المؤلفون العرب القدامى؟ كيف يحدث أن كُتاباً وكتاباً قدامى لم يقلدوا هذا الكتاب، من ناحية بنائه العام، أي توليد الحكايات بعضها من بعض، أو من ناحية حكاياته نفسها؟ كيف يحدث أن «المقامات» لا تشبه أبداً بناء الحكاية في الكتاب، بل تستند أكثر إلى المسامرة، وإلى الحيلة، وغيرها من أساليب القص العربي-الإسلامي، بما فيها الإسناد اللازم إلى متحدث، كما في الأحاديث النبوية؟

دعوت سامي، بعد أن شكرته وأثنيت على ما فعل، إلى إعداد

ورقة لعرضها في الصف، في محاضرة قادمة بعد عطلة الفصح، لكي نجعل من ملاحظاته فرصة متجددة للنقاش. كنت مستعجلاً إنهاء المحاورة، على قيمتها، إذ إنني، اليوم، على موعد في «البرلمان الأوروبي»، قبل يوم على انتهاء دورته الحالية: اليوم، أو لا زيارة، إذ إن يوم غد هو يوم الجمعة الحزينة، وهو آخر أيام الدورة الحالية للبرلمان... وإلا فسيكون عليَّ انتظار دورته التالية في يوليو المقبل، لمّا أكون في لبنان.

كنت قد وضعت زيارة المؤسسة الأوروبية الجامعة في أعلى خطتي، قبل القدوم إلى ستراسبور، لكنني ما لبثت أن دفعتها إلى أيام لاحقة، خصوصاً وأنني ما كنت عالماً بلزوم الزيارة أثناء انعقاد إحدى دورات البرلمان...

كان في ودي التعرف على عمل المترجمين فيه، ولا سيما في الترجمة الفورية، إذ ينشطون في ترجمة لغات ولغات مطلوبة في التخاطب والمراسلة بين دول «الاتحاد الأوروبي»، ما يشمل عملهم في البرلمان نفسه، أو في «المفوضية» أو في «المجلس»: هذا ما شرحتْه لي رئيسة دائرة الترجمة بين باب وباب، كما تقول العبارة الفرنسية، إذ إنه كان عليها الخروج من باب للدخول في غيره في هذا اليوم العصيب، حيث لم تتورع عن القول: أتعرف أنه اليوم الأخير لوجود دانييل كوهين-بنديت في البرلمان؟... ستكون كلمته مؤثرة ومفاجئة من دون شك... لن أفوتها بأي حال.

كان في إمكاني الاطلاع على عمل البرلمان، من دون المجيء إلى مبناه الزجاجي، ولا التمشي في ممراته حيث أخال نفسي في شارع مكتظ قبل يوم العيد، من دون أن أنجح طبعاً في معرفة وجهتي، أو مقصدي بين مكاتبه وقاعاته. كان في إمكاني البقاء في

مكتبي واستكمال المناقشات المثيرة مع سامي، أو الطلب من مديرية الترجمة إرسال الكتيبات، التي مدتني بها المديرة اليوم، بعد انتهاء لقائنا المقتضب. كان في إمكاني الاطلاع على عمل المترجمين الكتابيين والفوريين بين 23 لغة رسمية معتمدة في «الاتحاد الأوروبي»، أو التفكر مطولاً في الصيغ اللسانية، التي تزيد على 506 صيغة، بين هذه اللغات، حيث إن المترجم يبدو مثل مهندس في الاتصالات، يرسم خريطة التواصل، بما تحتاجه من قنوات، ولا سيما من صيغ مختصرة بينها.

كان في إمكاني معرفة أنني لا أحتاج إلى المجيء إلى المقر الرسمي، لكي أدرك أن هناك لغات ثلاث، هي: الألمانية، والإنكليزية والفرنسية، تمثل «جسراً» لغيرها في الترجمة. كان عليّ الانتباه إلى ما نفتقده في تدريس الترجمة، ويتوافر في مؤسسات البرلمان، أي البرامج والمعطيات الإلكترونية العديدة المخزَّنة، والجاهزة للتوظيف عند استعصاء ترجمة لفظ أو أكثر، أو صيغة من الجمل، التي عاد إليها المترجمون في السابق، في «وثائق» معتمدة. كما وجدت أنهم «يُخزِّنون» أيضاً معلومات واسعة، عن وقائع وأحداث، قد يعودون إليها، للبناء عليها في سياق وثائق لاحقة.

غير أن متابعة تصفح هذه الكتيبات في مقهى «البرلمان» قادتني إلى إظهار ما كنت أخفيه على نفسي، وهو الحلم في العمل في مؤسسة دولية، مثل مؤسسات «الاتحاد الأوروبي» أو منظمات «الأمم المتحدة» في جنيف القريبة، أو ربما في نيويورك، بل قادتني إلى إنكار ما كان يدغدغني سراً: لا، لا يسعني العمل في البرلمان الزجاجي، ولن يكونَ عملي مناسباً لميولي، التي أتبينها كتابية، إذ أتحقق في ستراسبور من إقبالي على الترجمة الأدبية والكتابية. فمهام

المترجم في المؤسسة الدولية تقتضي ثلاث صفات على ما قرأت: الكمية، النوعية والسرعة، وهي صفات لا أطيقها، ولا سيما الكمية والسرعة منها. كما أتحقق من أكثر من ذلك، وهو ولعي بالحكايات وسير الأشخاص، ما يجعلني شهرزاد في هيئة رجل: هي، لا نعلم مصادر حكاياتها، أما أنا، فأسعى، بخلافها، وراء الحكاية، أعمل على تفكيك اللغز، بل أتحرى عن الأسرار، مثلما فعلت في رحلتي المفاجئة إلى دَرْمشتاد.

فضيلة كانت على عتبة الباب. اعتذرتْ عن مجيئها المفاجىء، بعد انتهاء وجبة عملها في المطعم الجامعي. أرادت التأكد من سبب اعتذاري عن استقبالهما، هي وابنتها، يوم غد. خافت من أن يكون هناك سبب خفي وراء الاعتذار.

شرحتُ لفضيلة كوني مضطراً لمغادرة ستراسبور صباح اليوم التالي للمشاركة في احتفال زواج. كانت واقفة تستمع إلى ما أقول، فيما كانت الكنبة مشغولة ببناطيل وسترات وقمصان. لما انتبهت إلى الأمر، اعتذرتُ منها، ورحت أنقل ثيابي إلى سريري. لما أنهيتُ ترتيب الكنبة، وجدتها تبتسم: تحتار في اختيار ما تلبس، أليس كذلك؟

انتقلت فضيلة إلى غرفتي، وراحت توزع الثياب، وتبعدها وتجمعها. ولما انتهت إلى خيارها، طلبت مني الوقوف أمامها، وراحت تقيس الثياب، ولا سيما قميصي: اللون الأزرق يناسبك... لسحنتك السمراء. كدت أقبِّلها، لولا أنها تراجعت لما تحققتْ من قصدي. ثم أمسكتْ بيدي بنعومة، وأخذتني إلى الكنبة من جديد،

وجهاً لوجه: أكنُّ لك مشاعر أكيدة... هذا لا يخفاك. حتى رفيقاتي في العمل نبهنني إلى ذلك، لكنني أنكرته. حتى ابنتي سألتني: أستاذ جهاد ألطف من أبي، أليس كذلك؟ ... لكنني لست في وارد إقامة أي علاقة جنسية، حتى معك... صدقني، هذا لا يعني أنني لست منجذبة إليك، لكن أنا في عالم آخر. عالم صعب... عالم عائلتي، الذي لا تعرفه.

وضعتْ رأسها على كتفي، ولما مددتُ يدي اليمنى صوبها، ووضعتُها على خدها الأيمن، لم تمانع، لكنها، بإشارة من صوتها، دعتني إلى السكوت. كدتُ أسمع دقات قلبها المتلاحقة. كدت أراها تتمدد في مسامي، وتلتحم بجلدي، إذ كان صدرها يرتفع ويهبط خلف صداريتها المشدودة على ثدييها المنتصبين، تحت قميصها الرمادي، على ثديها الأيسر الذي كان يلامس قميصي ملامسة ناعمة، كما لو أنه يبادلني سلامات التعارف واللقاء. ثم مدتْ يديها حول جذعي، وعانقتني بشدة، تاركة رأسها على كتفي، من دون أن ترفعه أبداً صوب وجهي، الذي كان ينتظرها بشفتيه المتأهبتين.

تعيش فضيلة مع ابنتها، من دون زوجها الذي بقي في روما، وفي عمل آخر غير المطعم. تعيش منفصلة، إذ يمتنع زوجها عن تطليقها، فضلاً عن أن هذا الأمر يزعج أهلها، وتقاليدهم في تطاوين: أنا بعيدة عنه، لكنني لا أتحكم بحياتي... يتحكم بها، خاصة وأن أخاً له يعيش في مدينة قريبة من هنا... أخشى من أن يقيم ضدي دعوى لاسترداد ابنتنا، لو ظهر مني ما يسيء لها، لأخلاقها، حسبما يحدد ذلك الشرع الإسلامي... هذا ما أخطأتُ به، لما جرى زواجي على عجل. جعلوا العصمة في متناوله، على الرغم من أن قانون الزواج في تونس يتيح للمرأة الطلاق بنفسها...

إلا أن فضيلة أوقفت أخبارها، طارحة عليَّ هذا السؤال المفاجيء: ألديك موسيقى راقصة؟ خلت أنها تتحدث عن الموسيقى الشرقية، التي تصلح لـ«هز البطن»، وإذا بها، أمام ترددي وحيرتي، تمسك بجهاز الترانزستور الموضوع على الحافة الداخلية للنافذة، وتديره بحثاً عن إذاعة «فرنسا الموسيقية». ثم تقدمت مني، ودعتني للرقص. وقفتُ أمامها من دون أن أعرف ماذا يحدث لي، عدا أنني كنت حائراً في ما عليَّ القيام به، إذ ما كنت أحسن أي رقص كلاسيكي؛ أما ما كنت أعرفه فما كان يتعدى بعض الحركات الخفيفة في رقص «الروك».

لم يكن الوصول إلى بلدية مارلنهايم بالصعب. كنتُ قد وضعت بين يديَّ الخريطة التي تدبرتها لي فيرا، فيما كانت كريستين تتابع فوق شاشة حاسوبها الموضوع فوق مقود السيارة الخريطة المتابعة، بل خيارات الانتقال من ستراسبور إليها. في الطريق بلغني صوت أمي على الهاتف، على عادتنا المقررة منذ شهور، لكنني اعتذرت منها لكوني أدخل إلى مقر البلدية لحضور زواج. ولما اندفعتْ أمي وراء أسئلتها، بدل أن تخفف منها، تصرفتُ كما لو أنني لا أسمع صوتها، ما دعاني بعد ثوان قليلة إلى إيقاف المكالمة، فيما كانت تردد: بلى، أنا معك، أنا أسمعك جيداً...

ابتسامة خفيفة على شفاه كريستين، لما التفتُّ إليها معتذراً، فإذا بها تباغتني بالتأكيد: إنها أمك، أليس كذلك؟ كانت طالبتي، اليوم، صبية في عمر الزواج، في ما كانت ترتدي، وفي تعابير وجهها ونظراتها خصوصاً. كانت غير كريستين التي اعتدتُ على وجودها

الأليف والفعال. إذ ما أن أقلتني من أمام العمارة التي حددتُها لها في الثالثة تماماً بعد الظهر، بادرتني بالقول: أما كان من الأفضل أن تسكن حيث لا يسكن من ستعتاد على رؤيتهم ومعاشرتهم كل يوم في الجامعة، بين أساتذة وإداريين؟! لم أردّ على ما قالت، بل لم تتأخر، في غير أمر، من أن تطلق آراءها، أو أن تبادر إلى طرح هذا السؤال أو ذاك عليّ.

كانت الطريق بسيطة، لا تعدو عدة كيلومترات، بين وسط ستراسبور ووسط مدينة مارلنهايم. كان علينا أن نمرّ لدقائق إلى الفندق لوضع حقائبنا، في غرفنا المحجوزة سلفاً. وننتقل بعد ذلك إلى المشاركة في مراسم الزواج في الرابعة تماماً.

في الطريق إلى الفندق، وفي الطريق منه إلى دار البلدية، لم تتوقف كريستين عن الكلام: عن جمال المنطقة، عن كون المدينة الصغيرة هي «بوابة طريق النبيذ» في منطقة الألزاس، وعن أن الفندق قديم، جرى استخدامه قديماً كمحطة توقف واستراحة لراكبي العربات الناقلة للبريد فوق جيادها، قبل أن يتحول إلى فندق، وتديره عائلة هوسير منذ عقود وعقود... ميشال هوسير يدير الفندق اليوم، مع ابنتيه كلارا وميلينا، وهو يفوز سنة بعد سنة بـ«النجمة»: النجمة التي يطلقها «دليل ميشلان» على مطاعم الذوق الرفيع في فرنسا. ولما سألتها عمّا إذا قرأت هذا كله عبر «الإنترنت»، أجابتني بأنها اعتادت منذ سنوات على المجيء مع أهلها للتمرن على ركوب الخيل في نادٍ قريب... ثم أفاضت في الحديث عن أن الفندق يحترم «التدابير» التي دعا إليها «حزب الخضر» في فرنسا: أتعرف أن الفندق يعيد تأهيل الجرائد والمجلات والكتيبات السياحية التي يستعملها زواره، ويرمونها في سلال المهملات؟ أتعلم أنهم يجمعون

المساحيق ومواد تنظيف الغسيل وغيرها من مستحضرات الحمام لكي يستعملها موظفو الفندق من جديد؟ أتعلم أنهم يستعملون المواد الطبيعية والعضوية، سواء في الأكل أو غيره؟... فكان أن أوقفتها بالقول: أألنتِ موظفة في العلاقات العامة في الفندق؟ فأجابت من دون تردد: لا، أنا مناضلة في «حزب الخضر»، وهذا الفندق يحترم ما نقول وما ندعو إليه.

أدركتُ ما أن عدنا إلى الفندق من مقر البلدية أن كريستين ستلازمني. كانت فيرا مشغولة بزوجتها، أو بزوجها، التي أدركتُ أنني التقيتها مساء المحاضرة، ورافقتنا في سيارة فيرا في طريق العودة عند إيصالي إلى شقتي.

عينا فيرا تشعان بأخضر غريب، قبّلتني وشدت على خصري، وقدمتني إلى رفيقتها: إنه أخي... أتذكرينه؟ لم تتوقف عن شكري، عن تقدير كوني لبّيتُ دعوتها. كنا نقترب من العشرين شخصاً، من دون أن أعرف أحداً منهم. ما كنت أعرف كذلك العلاقات بينهما: مَن صديق أو عشيق مَن؟ أهناك، بين امرأة ورجل، من هو في مثل حالتي... «الطبيعية»؟ ما كان لأمي أن تقول لو علمت بسبب إقامتي في هذه المدينة الصغيرة؟ ماذا عن فضيلة نفسها؟ ماذا عن كريستين؟ أتقيم في غرفة وحدها أم مع غيرها؟ ذلك أنني لاحظت بأنها أبقت حقيبتها الصغيرة عند عاملة الاستقبال إثر وصولنا، ولما سألتها عن السبب أجابتني: لا أعلم في أي غرفة سأقيم؟

في العشاء، وجدتني إلى جانب فيرا، ولحسن حظي. إذ ما كنت أعلم كيف لي أن أتصرف مع المدعوين من مثليين ومثليات،

خصوصاً وأنني انتبهتُ، ما أن نزلت من غرفتي، إلى أن يدَي ضيفين من ضيوفها تتعانقان، على الدرج الواصل بين الغرف وصالة الطعام.
لم يُتح لي، منذ إقامتي في ستراسبور، أن أذوق أكلاً بهذه الجودة، ولا أطباقاً متنوعة ذات أسماء طويلة وغريبة، فضلاً عن النبيذ بين أبيض ووردي وأحمر.

أصرَّ أحد المدعوين على أن تلقي فيرا كلمة في المناسبة، قبل أن يباشر الضيوف بالرقص. وهو ما كان: كانت خجولة، مرتبكة، مثل عروس في الثامنة عشرة من عمرها، وربما في أول كلام علني لها. لم تكن مستعدة لكلمة مثل هذه: شكرتْ رئيس البلدية، فيما لم يكن حاضراً بيننا. أعلنتْ عن فرحتها بأن حبها لم يعد محرَّماً، بل شرعياً بختم القانون. خصَّتني بلفتة، هي اللفتة الحنونة الوحيدة في كلمتها، إذ قالت بأنها دخلت إلى صالة الاحتفالات في قصر البلدية من دون أبيها، المتوفى منذ سنة، ومن دون موافقته ربما، إلا أنني - أنا اللبناني القادم من بلاد الأرز - صالحتُها مع أبيها، ومع ماضيه... وأنني كنت عائلتها المتبقية. ما لم تكن تعلَمه فيرا، ليلتها، هو أنني أتحدر من قرية مجاورة لغابة الأرز فعلاً، وقد يكون والدها خيَّم في الهضاب العالية لهذه القرية، وأنه وقع ربما في غرام إحدى صباياها في العام 1961...

أصرت فيرا، بعد الانتهاء من كلمتها، أن ترمي باقة الورد، التي حملتْها لما دخلتْ إلى القصر البلدي، على الحاضرين. أدارت ظهرها بعد أن دعت الجميع، بمن فيهم عاملو الفندق، للوقوف خلفها: رمتْ الباقة فوقعت بين يدي كريستين. ما أن وقعتْ بين يديها صرختْ ابتهاجاً، رفعتْ رأسها صوبي وقبلتني على شفتي.

كانت العتمة مطبقة تماماً، فيما يصلني صوت موسيقى خفيف. ما كنت أحسن حتى الجلوس، أو النزول من سريري. تحسستُ جسمي لما وجدتني في لباسي الداخلي وحده: أأنا مع دانييلا وطقوسها؟ كان يصعب عليَّ تذكر ما جرى، وكيف أصبحت في الغرفة. مددتُ يدي أتحسس اللحاف، فلم أجد أحداً إلى جانبي في السرير العريض.

بقيت مستلقياً من دون القيام بأي حركة. كان فمي ناشفاً تماماً، وطعم غريب يصعد من حلقي. كنت أحتاج إلى الماء، أو إلى علكة. مددتُ يدي اليسرى إلى جانبي، فوجدت زراً كهربائياً أشعلته. كانت كريستين تستلقي على الكنبة المواجهة للسرير: ماذا تفعل هنا؟ ما أن أعمتني الكهرباء، حتى استفاقت بدورها مذعورة. ثم هرعت صوبي، وجلست على زاوية السرير: أتشعر بتحسن؟

أتتني بكوب ماء، بل بكوب من الكوكاكولا، مضيفة: هذا يناسب أكثر إثر حالات التقيؤ. عمَّ تتكلم؟ لما كنت أتجرع الكوب، مدت يدها إلى جبهتي للتأكد من حرارة جسمي. طالبتُها بفتح حقيبتي والإتيان ببيجامتي. كنت متهالكاً، لا أقوى حتى على الجلوس لارتداء لباس النوم. أعادت كريستين صبَّ كوب آخر من الكوكاكولا، أمسكتْه بنفسها وراحت تدنيه من فمي، مثل أمي لما كانت تطعمني في أيام المرض. تمكَّنت بصعوبة من الجلوس، أدنيتُ كريستين من وجهي، وطلبت منها رواية ما جرى:

كنتَ رائعاً، وسعيداً. لم تتوقف عن الشرب، عن الرقص. كنتَ غير الإنسان - غير الأستاذ، عفواً - الذي أعرف. كنت تلقائياً، منطلقاً... لكنك فجأة وقعت على الأرض، في الحلبة... ولما رفعَك موظفا المطعم وأبعداك إلى جهة خلفية من المطعم،

تقيأتَ ما كنت قد أكلت وشربت. ساعدني العاملان على نقلك إلى غرفتك... نزعتُ عنك البدلة، ووضعتُك في الفراش، بعد أن تأكدتُ من أنك استسلمتَ مباشرة إلى نوم عميق.

كانت الساعة قد بلغت الثانية فجراً وبضع دقائق. طلبتُ منها البقاء إلى جانبي، وإطفاء زر الكهرباء.

لا أعرف في أي ساعة استيقظتُ من جديد. مددتُ يدي في العتمة، فإذا بي أقع على ساعد كريستين. أنزلتُ يدي عن ساعدها العاري صوب جانب حوضها، فوقعت على فستانها الملون فوق ساقها الأيسر، على ما قدرت. كانت تدير رأسها لي في الفراش، على الأرجح، إلا أنني شعرت بحراك خفيف في جسمها. هل استيقظتْ؟ ألا تكون تتناوم؟ أنزلتُ يدي فوق فستانها إلى أن بلغت الركبة، ثم رفعت الفستان بنعومة شديدة عن ساقها. رحتُ أتحسس جلدتها الناعمة صعوداً، فكان أن أدارت رأسها صوبي، واقتربت باحثة عن شفاهي.

كنت أوهى من أن أقوم بحركات أخرى. نزعتْ عنها فستانها، ولباسها الداخلي، على ما قدرت، إذ وجدتها تقترب مني وتقوم بنزع لباسي الداخلي، وتتمدد إلى جانبي، بعد أن أمسكتْ بيدي اليمنى ووضعتْها فوق شعر عانتها.

كان على ضيوف فيرا أن يتركوا الفندق في الحادية عشرة صباحاً في أبعد تقدير، إذ إن المطعم يحتفل مع ضيوف غيرنا بغداء عيد الفصح. طلبتُ فنجان قهوة وحسب، ثم غيره، في بهو الفندق الخارجي، تحت المظلات الواقية من الشمس المفاجئة. فيرا كانت

تجلس مع زوجتها على طاولة، فيما تودع ضيوفها تباعاً. لما تأكدتْ من تحسُّن حالي، تبسمتْ ونظرتْ إلى كريستين بعيون فيها كثير من التواطؤ. ثم قالت: ألا تريد زيارة بيت البروفسور؟ أنت في مدينته... على مقربة أقل من كيلومتر من بيتنا... اعتذرتُ لسوء حالتي، ولزوم عودتي إلى الراحة، إلا أنني طالبتها بلزوم اللقاء قريباً: أعتقد أنني توصلت إلى شيء جديد في سيرة الوالد الغامضة... قد يكون عليَّ القيام بزيارة قريتي، قبل قريته، لكشف ما غمض من حياته... هل أنت جدي في ما تقول؟ بادرتني فيرا، ثم كررت كريستين السؤال عينه، بعد انفصالنا عنهما، فيما كنت أهز رأسي: بالتأكيد، بالتأكيد...

انتبهتُ، عند خروجنا من الفندق، إلى أن كريستين استعادت حقيبتها حيث كانت قد تركتْها يوم أمس، في جانب من غرفة الاستقبال. أكانت تحسب لبقائها معي في غرفتي الوثيرة والواسعة؟ أم أنها أتت مع إحداهن، من صديقاتها المثليات، ثم غيرت مشروعها بعد وقوعي أرضاً؟ أهي مثلية فعلاً، وقد قبلتني على ما أذكر أثناء الحفلة؟

دعتني كريستين بدورها إلى تمضية قسم من هذا النهار المشمس في نادي الفروسية القريب، إلا أنني كنت متعجلاً وصولي إلى شقتي، والاختفاء في قعر السرير. لم أكن حتى متلهفاً، أو فضولياً لمعرفة ما جرى بيني وبينها في عتمة الليل، في عتمة سريري الوثير.

راحت، في الطريق، تحادثني عما قرأت في كتاب إحداهن عن لزوم التمييز بين الحب واللذة، بين عاطفة المومس وسلوكها وبينها عند الحبيبة أو الزوجة أو العشيقة، وكيف أنها تعرفت إلى هذه الأفكار وغيرها في محاضرة إحداهن، وأعجبت كثيراً بما كتبتْ

وعرضت. ثم سألتني: ألا تريد اللقاء بها؟ نظرت إلى وجهها من دون كلام، فتابعتْ: أتتذكر السيدة التي جلست إلى جانبنا، لما عدنا من دورة رقصنا الأولى؟ تفحصت وجهها لمعرفة ما تريد وعمّن تتحدث، ولما لم أجب، أكملت حديثها: كانت هي... إنها الباحثة النفسانية كوليت لوبيز، التي تُدرِّس في جامعة نانسي القريبة.

لم أكن بحاجة لا إلى عالم نفس، ولا إلى طبيب، وإنما إلى النوم فقط، لدرجة أنني نسيت أن اليوم هو يوم عيد الفصح. وهو ما انتبهتُ إليه بعد الظهر، لما لاحظتُ وجود غير اتصال من أهلي، ورسالة تستفسر فيها أمي عن سبب غيابي في هذا اليوم المجيد: سأتصل بهما، لما أجد في نفسي القدرة على الكلام الميسر، وعلى التلفظ الصحيح، إذ خُيل لي بأن محاوريَّ في الفندق كانوا ينظرون إلي نظرات غريبة، فيما لم أكن أكيداً من تسلسل ألفاظي وجملي.

تصلني الأخبار متأخرة، غير أن «الإنترنت» يحفظها لي.

كنت أتقلب بين نوم خفيف ويقظة متكاسلة، بين السرير والكنبة، فيما أتجرع أكواباً من الماء، أو من الكوكاكولا، بعد أن بلعتُ حبتَي «بانادول»، عند وصولي إلى شقتي، للتخفيف من وجع في الرأس. كنت قد أشعلتُ حاسوبي، من دون أن أنصرف إليه، إلى فتح بريدي الذي بقي مغلقاً منذ يومين على الأقل. لم أقبل على مطالعة الجديد في الطبخ على موقع: شهية دوت كوم، الذي أمدني بمعلومات متنوعة عن الأكل، العربي والفرنسي أو حتى الياباني والإيراني، فيما كنت ما طبقت بعدُ أياً من وصفاته الطبخية المقترحة. افتكرتُ في فضيلة، كان لها هي وحدها أن تهتم بي...

ألأنا في حاجة فعلاً إلى مَن يهتم بي في غياب أمي؟ ألا أحسن تدبير أموري، فلا أرتبك أمام أي مشكلة؟ وماذا عن فضيلة: أتكون طابختي ومساعدتي الطبية؟ أم هي بديل أمي الحنون؟ كيف لي أن أنظر إليها، سراً بالطبع، على هذه الشاكلة، وهي قد بادلتني ما قد يقرّب بيننا عاطفياً؟

كان عليَّ الاستمرار في وضع تقرير مطول عن بحوثي في الترجمة، «بين النقل والتأليف»، إلا أنني كنت متعباً، ولا أحسن التركيز، فضلاً عن أن للإنترنت «شبكة عنكبوتية» فعلاً، إذ قادتني في مسالك خفية إلى حيث لم أتوقع، وهو وقوعي على خبر فظيع، وهو مقتل الراهب اليسوعي فرانس فان دير لوغت في حمص، في مطلع الشهر الجاري. كانت قد وصلتني أخباره منذ سنوات بعيدة، أثناء دراستي في الجامعة، أو بعد قيامي بالتدريس فيها، إذ كان يشكل، في حياته وفي سلوكاته، ما يعدُّ نموذجاً مدهشاً، ولكن بعيداً، عما كانه هؤلاء الرهبان لما أتوا إلى الشرق قبل قرون، وتوطنوا في أكثر من بيئة مسيحية، ثم مسلمة، طلباً للخدمة: ما كانوا يخصونه للمسيحيين من عناية في السابق، باتوا يقومون به اليوم في خدمة المسلمين. هذا ما أخبرني به أكثر من راهب يسوعي في الجامعة، وإن وجد فيه بعضهم مثالاً لليسوعي «العملي»، كما حدده الراهب بول على مسامعي، فيما كان ينصرف، هو مثل عدد آخر منهم، إلى العمل الجامعي، الفكري، الثقافي، الكتابي، في خدمة العربية: إننا المستشرقون المجهولون. . . ، كما كان لا يتأخر عن الترداد، على الرغم من علمه بأن مثل هذه التسمية ما عاد يستحسنها الدارسون في نطاق العربية من الأجانب.

الراهب فرانس مات قتلاً قبل أيام قليلة، في السابع من الشهر

الجاري، في ديره، في حمص، بعد أن عاش فيها ما يزيد على خمسين سنة. عاش فيها من دون انقطاع؛ وما خرج منها لما جرى تسهيل مهمة تحريره الآمن منها بعد اندلاع المعارك واشتدادها فيها. بقي فيها على الرغم من مغادرة المسيحيين لها، ولا سيما الكاثوليكيين منهم الذين لم يبقَ منهم أحد فيها.

لعله عرف البروفسور الراحل، بعد أن وجدت في سيرته ما يشير إلى أن هذا الهولندي الشاب حلَّ في بيروت، إثر انعطافة حياته، وأنه درس العربية في جامعتي، في مطالع الستينيات من القرن المنصرم، ما قد يعني أنه التقى البروفسور، وهو في ريعان الشباب، في مطالع حياته المهنية في البحث: لا يعقل أن أستاذاً نبيهاً، شاباً، مثل البروفسور، لم يتصل، أو يتعرف على الراهب في سنواته الأولى، في بيروت... لعلهما درسا العربية سوياً، أو أن الراهب الشاب تلقى بعضاً من دروس العربية على أيدي الأستاذ الشاب، الذي أتى إلى لبنان في هيئة «متعاون»، كما يقال في وزارة الخارجية الفرنسية، والذي يقضي ببقاء الدارس الشاب في البلد لسنة على الأقل، لقاء منحة، على أن يقوم بعمل آثاري أو بحثي، فيما يتكفل، إلى جانب ذلك، بالقيام ببعض الدروس الجامعية تحسيناً لوضعه المالي.

ما زاد من حزني هو وقوعي، في الأخبار التي وصلتني متأخرة، على خبر فوز الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، قبل أيام، بولاية رابعة، فيما لم يظهر أبداً في السباق الرئاسي، بل كان يرسل مندوبيه للقيام بحملته الرئاسية، عدا أنه أدى واجبه الانتخابي يوم الانتخاب وهو على كرسي متحرك... هذا فيما عرفت أن الرئيس بشار الأسد يستعد بدوره لولاية جديدة، وفق الشعار المعروف: «الأسد إلى

الأبد». . . وأتساءل: ماذا بقي من النظام الجمهوري في هذين البلدين؟ أتساءل، إذ عايشت سقوط الاشتراكيين المرعب في الانتخابات البلدية قبل أسبوعين، وسقوط الحكومة الذي تلاها، فيما يعجز النواب في لبنان عن عقد جلسة انتخاب الرئيس الذي تنتهي ولايته في نهاية الشهر القادم. . . لكنني أضحك بالمقابل، إذ عرفت من والدي في المكالمة الأخيرة بيننا أن نواب لبنان صوتوا لسبعة موتى في الدورة الأولى لانتخاب رئيس الجمهورية. . . !

مجتمع معطل، لا يحسن إدارة شؤونه، بينما يحمِّل غيره، مسؤولية عجزه المتمادي: هذا ما لم أكن مستعداً لقوله لوالديَّ لما اتصلت بهما للمعايدة. فيما تمنعت عن الرد على مكالمات دانييلا المتعاقبة، خصوصاً بعد أن راجعتُ نص رسالتها الأخيرة المقتضبة: كانت تحمل غمزاً ولمزاً مني، كما يقال. أعدتُ قراءتها من جديد، وتبينت أنها لا تؤكد فيها تماماً كونها راهبة «شالحة»، كما نقول في لبنان، أي ممن تخلّين عن النذور الرهبانية وخرجن نهائياً من الدير إلى الحياة المدنية من جديد، بل كانت تسخر ضمنياً في رسالتها. وماذا عن هذا «الجرح النازف» الذي تتكلم عنه، وهي لا تتورع عن التحرش الجنسي بي، وعن إقامة علاقات جنسية مع كثيرين ممّن يلاحقونها على الهاتف من دون كلل؟

أخبرتُ فيرا بما كنت أخفيه عنها، أي عثوري على شهادتَي اعتراف من والدها بالإقدام على القتل، وعن وجود المفتاح المرفق برقم في مكتبه. أخبرتُها بأنني عثرت على هذه قبل العرس بأيام متجنباً إزعاجها في اليوم السعيد. إلا أنها لم تُحسن معرفة وجهة

استعمال المفتاح: كيف لي أن أعرفه، وهو أقرب إلى نقش آثاري بلغة غير مفهومة؟

لكنها عاودتْ الاتصال بعد ثلاثة أيام، داعية إياي إلى اللقاء معها بمحامي والدها في مكتبه. كنت قد جلبتُ معي رسائل البروفسور، لكن المحامي سخر من قيمتها: هذه لا تعني شيئاً، حتى لو كانت صحيحة... هذه لا تشكل اعترافاً بجريمة... هذه جرت في أرض أجنبية، لا في فرنسا... هذه الجريمة، إن حصلت، توفي المتَّهم بها... هذه الجريمة، إن حصلت، سقطت مع مرور الزمن...

فاتنا فعلاً كل ما قاله المحامي، وهو ما لا يحتاج فهمه إلى كتب «دالُّوز» في القانون، لكن ما تبحث عنه فيرا يتعدى الجريمة المزعومة نفسها؛ هي تريد التعرف على والدها، ليس إلا. وهو ما كان يربطني بها، إذ أطلب بدوري، لأسباب أخرى، معرفة بقية الحكاية، أو خيوطها الخفية.

لم يسعفنا المحامي في معرفة وجهة استعمال المفتاح، ولا مغزى رقمه، إلا أنه دعانا بالمقابل إلى تفقُّد بعض المتبقيات التي حفظها البروفسور في خزانة خاصة في أحد المصارف في ستراسبور نفسها: هذا ما كنت ملزماً به بعد تسوية أوضاع حسابه المصرفي، وهو ما كشفته لك، يا سيدة فيرا، بأدق تفاصيله، إذ كان يحتاج توقيعاً منك، كما تعلمين... غير أن مديرة المصرف نبهتني بعد أسبوعين على ذلك إلى وجود خزنة للبروفسور في المصرف... ولما عثرت على هذه الأوراق لم أجد أي قيمة لها، ولا تشير إلى حسابات مالية... على أنني عاهدت نفسي تسليمك إياها بعد وقت.. وهو ما نسيته واقعاً.

أشار المحامي حينها إلى كرتونة كانت على طرف مكتبه: فيها

أوراق وقصاصات مختلفة مع كيزان صنوبر، على ما أظن. هرعت فيرا إلى الكرتونة، فيما كنت أقف إلى جانبها وقفة الحريص. راحت تفحصها ورقة ورقة، فإذا هي عبارة عن أوراق موصولة، مقتطعة من دفتر، على ما يبدو، فضلاً عن روزنامة مرفقة... من دون أن نفهم طبعاً سبب وجود كيزان ثلاثة من الصنوبر بين هذه الأغراض التي حرص البروفسور على حفظها على مرّ السنوات.

لم أكن أحسن إطلاق الرصاص، لا من بندقية، ولا من مسدس، مثل الذي وفره لي رئيس الدير من أحد المزارعين العاملين في حقول الدير: كان عليَّ، إن طلبتُ الاستمرار في فحص النقش، بل النقوش الأخرى التي وقعتُ عليها إلى جانب الغابة، أن أحمي نفسي من هجوم أي حيوان ضارٍ، خصوصاً وأن أقرب بيت من خيمتي يبعد ما يزيد على الساعتين مشياً، وما يقرب من الساعة على حمار أو بغل...

غابت أليس لليوم الثالث على التوالي، وغاب قطيعها بالطبع. وقعتُ عليها اليوم، عند غروب الشمس، إذ وجدتها مع قطيعها تعبر الطريق النازلة قرب «الرملية»، كما يسمونها في القرية، فيما كنت أنزل على دابتي صوب الدير، للقاء راهب يسوعي يقيم في الدير لعدة أيام.

مناقشاتي مع الراهب الوافد لم تكن ممّا أحب أو أرغب فيه. كان قد درس المعالجات الفيزيائية للجسم في هولندا، قبل أن يقرر ترك كل شيء، والدخول إلى الرهبانية. أما عن سبب مجيئه إلى

القرية، فكان للتمكن من تكلم العربية البسيطة، اليومية، والتمرس بها مع هؤلاء الفلاحين البسطاء.

بعد العشاء بقليل، خرجت من الدير، وتوجهت بفعل مغناطيسي خفي صوب بيت أليس الواقع تحت الدير بحوالي خمسين متراً. لما وصلتُ إليه، تمنعتُ عن الدخول أو عن مناداة والدها. رحتُ أدور وأدور حوله طمعاً بظهور أحدهم... من دون جدوى في هذه الساعة المتقدمة، إذ يستيقظون، مثلي، باكراً، أي بين الخامسة والسادسة فجراً، للتوجه إلى حقولهم. كانت القرية معتمة، حتى إن قناديلها الصغيرة، قناديل الإنارة الوحيدة، كانت مطفأة في البيوت الثلاثة التي عبرت إلى جانبها، نزولاً ثم طلوعاً.

لم يعد المسدس يفارقني، أضعه في حقيبتي الجلدية الواسعة، التي تشتمل على عدة عملي في النقوش. هذا ما ذكرني بمسدس والدي لما أظهره أمام أنظارنا، أمي وأنا، عند العشاء، بعد بلوغ قريتنا أخبار الحرب. أخرجه من خزانة عتيقة في البيت السفلي، وراح يعالجه وينظفه كما لو أنه بدلة ثياب قديمة ولكن فاخرة لا تصلح إلا في المناسبات الكبرى. ولما سألته عن وجود المسدس المفاجىء بين يديه، أخبرني بأننا لا نبعد كثيراً عن ألمانيا، وأن الحرب واقعة لا محالة، كما في الحرب العالمية الأولى، بيننا وبينهم، وفي هذه المناطق بالذات. لم أكن أدرك يومها ما تكشف لي لاحقاً، وهو أن والدي لم يكن يعرف أن والده ألماني الأصل، تعود أصول عائلته إلى ما قبل العام 1870، لما جرى «دمج» منطقة الألزاس بـ«الرايخ» الألماني... كان يظن والدي نفسه متحدراً من أصل فرنسي خالص، فيما تبيَّن لي، في دراسات لاحقة أجريتها

بنفسي، أن والد جدي من جهة والدي بدَّل اسم عائلته، و«فَرْنَسه» بالأحرى، بعدما اشترطت عليه والدة جدي الفرنسية الخالصة: هذا يكون بدل زواجنا، إن شئتَ... وهو ما اعترفت لي به جدتي عن أمها، في اليوم التالي على وفاة والدي المبكرة.

كاد أن يموت والدي في الحرب، وهو لا يعلم أن له أصولاً ألمانية مباشرة. كاد أن يطيح به المسدس نفسه، لما جرى تفقد مزرعتنا من قوة ألمانية، في أغسطس من سنة 1940، بعد أقل من شهرين على «ضم» الألزاس من جديد إلى ألمانيا.

اختفى، يومها، المسدس من البيت، واختفى من حياتي، إلى أن ظهر من جديد في حقيبتي، أو تحت مخدتي في الخيمة.

التقيتُ بأليس، اليوم، من دون أن تراني. كنت أراها من مكان عالٍ مشرف على الصخرة التي جلستْ عليها، وهي تراقب قطيعها. وجدتني أتقدم صوبها من دون تردد، وبلغَها وصولي إليها قبل أن أصل، إذ تنبهت إلى انزلاق قدمي في تلك الأرض المنحدرة، ذات التراب الخفيف. لم تحرك ساكناً، بل راحت ابتسامتها ترافق نزولي في اتجاهها. ولما وصلتُ إلى مستواها، أفردتْ لي مكاناً إلى جانبها على الصخرة. سألتُها بعد جلوسي عن سبب غيابها عن الغابة وجوارها، فلم تجب. أعدتُ طرح سؤالي بعربيتي الفصيحة فكان أن أجابت: كوزومبري... كوزومبري... ثم قالتْها في مرة ثالثة ورابعة، وهي تضحك بخفوت وخفر. ولمّا وجدتني أعجز عن استكمال أي حديث معها، أخرجت دفتري، وقلمي، ورحت أخطط وجهها، فيما راحت تدير رأسها غنجاً، يميناً ويساراً.

وجدتُها تنتظرني، في اليوم التالي، على مقربة من الدير، بعد الغروب بقليل. كانت ترتدي فستاناً من دون بنطلونها الذي كانت ترتديه تحت تنورتها في الغالب. طالبتُها في الأمس بالمجيء إلى حيث كانت تنتظرني، قرب الصنوبرات، بعد أن أظهرتُ لها أحد الكيزان الذي وضعته في حقيبتي: ضحكتْ لما شاهدتني أدلها على الصنوبرة فيما أضع الكوز بين يديها، وألامسها ملامسة خفيفة.

لما وصلتُ إلى جانبها، وجدتُها قد حملتْ كوز صنوبر في كل يد، وقدَّمتهما لي. وكل ذلك بصحبة ابتسامتها العذبة، التي ما كنت أحسن فهم رسالاتها. المهم أنها كانت إلى جانبي، نتنزه ونعبر منطقة مستوية بعض الشيء، بعيدة عن الدير، وعن طرق الفلاحين المعتادة. في نهاية هذه الطرق المتشعبة توجد محبسة قديمة، مهجورة، تعرفت عليها بعد أيام قليلة على وصولي إلى القرية. كنا نتقدم بصعوبة، كما لو أننا في غابة كثيفة في البرازيل، لا في شمال لبنان: كنت أتقدمها، رافعاً غصناً جعلت منه شيئاً شبيهاً بعصا. كنت أخشى عليها من أن يرتدّ على وجهها المدور غصن سنديان أو شوك من تلك التي كنت ألويها أمامي قبل أن تعود إلى حالتها السابقة. جعلتها تقترب مني، إلى جانبي، ثم وضعتُ يدي اليمنى على كتفها، مساعداً إياها على التقدم. ولما لم تعترض على فعلتي، توقفت عن السير، أمسكتُ وجهها بكلتا يدي، مثل بدر مكتمل، كانت تبلغني أنواره من عينيها المتألقتين. رحتُ أمرر يدي على خديها، ثم على شفتيها المنفرجتين، وما أن اقتربتُ من عينيها، أغمضتهما تماماً.

أكواز الصنوبر ما عادت تفارقني أبداً. في حقيبتي، أو تحت مخدتي أثناء النوم. أو كنت أخرجهما لأتشمم منهما عطر أليس. أو

الامس خشبات الكوز كما لو أنه خدها. كان ثديها أشد من الكوز صلابة إذ لمستُه، لكنها تملصت من يدي لما شددتُ عليه.

رئيس الدير حمل أخباراً سيئة هذا الصباح. زارني بعد الظهر، وسألني ما إن كان في إمكاني النزول إلى بيروت لأيام. اندهشتُ لطلبه... بعد طول تردد منه، أخبرني بأن والد أليس زاره غاضباً هذا الصباح، مع ابنه البكر، وهو يتهددني، إذ أبلغه أحد المزارعين أنه شاهدني مع أليس، عند الغروب، لأكثر من مرة سابقة، في الطريق الموحش المؤدي إلى المحبسة.

هذه الليلة بلغتني الأصوات إياها، بل أيقظتني من نومي. كانت الأصوات المنكرة تبتعد ثم تقترب، من دون أن أحسن رؤية ما يحيط بي عند خروجي من الخيمة. أهي أصوات حيوانات ضارية، أم هي أصوات إنسانية تقلدها؟

أبقيتُ القنديل من دون إشعال، بخلاف ما كنت أفعله في المرات السابقة، ظناً مني بأن الحيوانات تبتعد من تلقاء نفسها ما أن تبصر نوراً. إلا أنني جهزت مسدسي، وكمنت خلف الستار القماشي الواقع في مقدمة الخيمة.

انقطعتْ فجأة الأصوات البشعة، من دون أن أعلم سبباً لتوقفها. لكنني ما أن عدت إلى الفراش البسيط للنوم، حتى بلغني صوت إطلاق رصاص. هذا ما حدث في مرة سابقة، وأخبرني رئيس الدير بعد أيام عن وجود «طُفَّار» في هذه المرتفعات... وهو الاسم الذي يطلقونه، هنا، على الهاربين من وجه العدالة، لكن الأصوات

بدت متكررة، فيما كانت تقترب مني: أيكون والد أليس مع أخيها، أو مع مزارعين آخرين؟ هل يعقل أن تكون لقاءاتي مع أليس - التي أنكرتُها، وتوقفتُ عنها بعد حديث رئيس الدير - قد أدت إلى أزيز الرصاص المتزايد؟

رصاص متقطع، يتوقف ثم يعود. رصاص متزامن، ما يشير إلى وجود أكثر من رامٍ واحد. كنت أتحصن خائفاً خلف القماش الواهي، وأنا لا أقوى بطبيعة الحال على الخروج والهرب، إذ كان الليل حالكاً، عدا أن التقدم صعب في هذه المناطق العالية والوعرة.

كاد الهدوء أن يستتب كلياً، بل استتب لدقائقَ قليلة، قبل أن تبلغ رصاصة الخيمة وتخترقها. فكان أن أطلقت ثلاث رصاصات، ما لبثتُ أن سمعت بعدها صراخاً وعويلاً، ما عنى إصابة أحدهم أو مقتله. كان هذا يوم الخميس، في 22 يونيو من سنة 1961.

أكتب هذا في بيروت، بعد ثلاثة أيام من حصول الحادثة. بلغتُ العاصمة يوم أمس، مرعوباً من جراء ما فعلتَ. لم يفهم رئيس الدير سبب توقفي عن درس النقوش، وتمنى عليَّ ألا تكون حادثة والد أليس قد أزعجتني وسبَّبتْ أو سرَّعت في اتخاذ قراري المباغت. كان شديد الضيق، وقد بلغه من أحد رهبان الدير خبر وقوع قتيل في «الجرد»، كما كانوا يسمون المناطق المحيطة بالغابة. ولما سألتُه عن هوية القاتل، أجابني: سيكون أحد «الطُّفار»، من دون شك.

أرنست رينان قادني إلى هذه النقوش، ورئيس الدير إلى أليس... تركت القرية من دون أن أودِّعها، لكنني دسست أكواز الصنوبر بين ثيابي، في وسط حقيبة السفر إلى باريس، ومنها إلى ستراسبور. رئيس الدير ودَّعته، على أمل اللقاء، من دون أن يعلم أنه

لن يلتقيني بعد اليوم إلا إن قادتني الأيام إلى المحكمة. . . إذذاك لن يتعرف على «العالِم الشاب»، كما كان يحب أن يسمِّيني، بل على: قاتل.

دفن رينان أخته في عمشيت على الساحل الفينيقي، أما أنا فقبرتُ أجمل قصة حب في حياتي!

تقاطعتْ أخيراً خيوط الحكاية، وظهر ما كان مخفياً، وهو أن البروفسور قتل أحد أقرباء أليس على الأرجح، في قرية قد تكون قريتي، إذ تقع، مع ثلاث قرى أخرى، على مقربة من غابة الأرز هذه.

أعدتُ مع فيرا قراءة هذه الأوراق المتتابعة بصوت عال. كادت أن تبكي لما سمعت في مرة ثانية كلام والدها عن أليس: كان يمكن أن تكون أمي. . . أو هي السبب الذي جعل أبي يتزوج من أمي الحقيقية. . . أو أن غرامه الثابت بأليس هو الذي أبعده عن أمي؟ أتكون ظهرت أخبار أليس بعد وقت، ما جعله يقطع تلك القطيعة الشديدة والمديدة مع أمي؟

طبعاً حسمنا، فيرا وأنا، بما لا يقبل أي جدل أن والدها ما كان يتمرن على السرد، أو على كتابة رواية. تأكدنا كذلك من وجود أدلة عديدة عن الرحلة، عن ميعادها، عن الدواعي البحثية التي جعلته ينقاد إلى تتبع خطى رينان، لكن يبقى السؤال المؤلم: هل قتلَ فعلاً؟ وإن قتل، هل قتل دفاعاً عن النفس؟ لماذا لم يدافع عن نفسه؟ أكان يعيش ضغطاً هائلاً بحيث إنه فضل الهرب، وتجنبَ المواجهة؟

لم يكن ينفع طرح أي سؤال على فيرا، لأنها لا تعرف شيئاً عن هذه الأوراق. راحت تردد على مسامعي: ما أن تعرفتُ عليه، واستعدتُه في حياتي، حتى اكتشفت أنه قاتل! ثم تقول العكس: لا، هو ليس بقاتل! لم يُحاكَمْ! لم يُستدع إلى محاكمة! بدليل أن أحداً لم يذكر هذه الواقعة أو ما يمكن أن يتصل بها من أفراد عائلتي، أو من زملائه بعد وقت... التقيت بكثيرين يوم دفنه: قبله وبعده. سمعت خطابات مدهشة عن استقامته ممّن درسوا عليه أو زاملوه. ثم سألتُها: أسمعتِ بخبر مقتل الراهب اليسوعي في حمص قبل حوالى الشهر؟ لما أجابتني بالنفي، أخبرتها بأن والدها تعرَّف عليه في الدير على الأرجح، وربما في بيروت، في جامعتي. ما لا تعرفه هو أنهما يلتقيان معاً، من جديد، في ما أكتب.

مع ذلك، نظر كلٌّ واحد منا في وجه الآخر نظرة باتت مختلفة عمّا كانت عليه: كانت تنظر فيرا إلى وجهي كما لو أنها تعتذر مني أو تدعوني إلى إيجاد أسباب تخفيفية عن هذه الجريمة غير المتعمّدة، وكنت أنظر إليها كما لو أنها تتحمل وحدها عواقب ما دفعتني إليه. فقد كان دخولي إلى مكتب البروفسور، وجلوسي على كرسيه، وبين كتبه، وتكليفي من ابنته الوحيدة بفحص أوراقه الكتابية المتبقية، أشبه بتعويض متأخر عن فعلته المكتومة، إذ يطلب أهل القاتل من أهل الضحية أن يقوموا هم أنفسهم بالتحقيق، بإحقاق الحق.

الحبقة تعيدني إلى القرية، لا إلى المدينة، مع أنني ولدت في بيروت، وعشت ولا يزال أهلي يعيشون فيها، وهي المدينة التي درستُ فيها من الحضانة إلى الجامعة. لا نمضي سوى شهر أو أزيد

بقليل في القرية، ومع ذلك، إذ طلبتُ الإتيان بشيء من لبنان، أتيت بحبقة صغيرة من القرية، وزرعتها في أناء صغير، ووضعتها في صالون البيت.

حبقتي نَمَت، عَلَت، فيما تقترب سنتي الجامعية من الانتهاء: أسابيع قليلة بعد عطلة عيد الفصح ويستعد الطلاب لمراجعاتهم، ثم لامتحاناتهم، لكن سنتي الجامعية أنا تنتهي بعد ذلك في نهايات الشهر السادس، بعد أن أكون قد شاركت في عدة لجان تحكيم، مثلما طالبني بذلك مدير الدائرة: سيكون لي الوقت الكافي لاتخاذ قراري، في تجديد العقد لسنة إضافية، أو العودة إلى جامعتي في لبنان.

ما تضايقتُ منه في البداية بات يجذبني في الصف، إذ خفَّ عدد الغائبين منه، فضلاً عن أنني ما عدت أقوى تماماً على عرض محاضراتي بالكامل، إذ إن **ألف ليلة وليلة** شغلت الطلاب بما لم أكن أتوقعه. باتت شغلاً شاغلاً لهم، وقد راحوا يتنبهون، مثلما قالت لي صِدِّيقة الإيرانية، إلى أن الترجمة ليست شاغلاً تقنياً، وهي ليست أدبية تماماً، وإنما هي إنسانية قبل أي شيء آخر. كما رحتُ أتنبه معهم إلى أنّ هناك ممرات خفية، ولكنها ظاهرة أحياناً، بين الكتاب والحياة، ما لن تدحضه دانييلا من دون شك، بل ستفيض في شرحه، وربما في تطبيقه.

مناقشات اليوم جعلتنا أمام تحقيق يكاد أن يكون بوليسياً، لا كتابياً أو لغوياً. سامي فائق أفاض في عرض ما توصَّل إليه. وممّا قاله إنه يصعب نسبة هذه الحكايات إلى كتاب بعينه، وقد صدر في القاهرة كتاب بعنوان: **ألف ليلة وليلة بالعامية المصرية** (1997)، يشتمل على خمس حكايات، واحدة منها فقط موجودة في عداد حكايات الكتاب

المطبوع، فيما الأربع الأخرى جديدة تماماً، أي غير معروفة. إلى هذا فإن لغة هذه الحكايات عامية مصرية؛ كما أن ورود الحكايات الخمس لا يندرج، أو لا يتنزل وفق قسمة «الليالي» المعروفة.

اتخذت المناقشات انعطافة جديدة، وحادت بها عن وجهتها، لما عرض أحد الطلاب ما كان يبحث عنه، وهو بحث منشور في **حوليات** جامعة البلمند (1999)، بعد أن نجح في إيجاد صورة عنه: نختلف حول **ألف ليلة وليلة**، وندرسها وفق منطق «كتابي» صرف، وندقق في «أصولها» كما لو أن مخطوطاتها تشبه مخطوطات كتاب للجاحظ أو لأبي حيان التوحيدي، بينما لا تنتسب حكاياتها إلى كتاب واحد بالضرورة... ربما وُجد كتاب كان له مثل هذا الاسم يوماً ما، في الهند، أو في بلاد فارس، وربما أيضاً في العالم العربي-الإسلامي، إلا أن الأكيد هو أن هذا الكتاب لم يصلنا، لا هو ولا الكتب المتفرعة عنه... لم تصلنا أي نسخة منه، أي مخطوط... أما ما جمعه غالان وترجمه فهو يعود إلى قرون متأخرة، من دون أن يظهر ما يثبت أن هذه الحكايات، أو بعضها، تعود إلى «الأصل» المفقود.

كما ذكر الطالب من الدراسة هذين الشاهدين: «مخطوطات **ألف ليلة وليلة** مدونات مختلفة، وليست فروعاً أو نسخاً محرَّفة عن أصول يمكن الوصول إليها أو إلى بعض أحوالها. وهي مدونات لها ما يؤلفها، في متنها الحكائي، وفي ما دعت إليه حاجة جمعها (وروايتها في عهد ما)، في مخطوط، وإن صدرت عن حكايات سابقة معروفة (منا ربما، اليوم، لا من غيرنا في عهد جمعها)، أو عن أصل ضاع في الزمن أو وصلت منه نسخ ومخطوطات أو مدونات أو نقولات شفوية». ثم هذا الشاهد: «الحكايات الخمس

(. . .) ليست مقطوعات من نص مفقود، بل هي مدونات مكتملة في ذاتها، في سردها، وفي البواعث التي أدت إلى حصولها واجتماعها حكايةً حكايةً في عهد ما. وعلينا بالتالي أن ننظر إلى المدونات المختلفة، بوصفها تنتسب إلى الثقافة المتناقلة، لا إلى الثقافة الثابتة والمثبتة».

هذا ما أكدته كريستين بدورها، إذ ذكّرت بما قاله جاك فينِّيه، قبل أربع سنوات، عن أن أنطوان غالان قد يكون المترجم الوحيد في التاريخ الذي ترجم، وبنى كياناً لنص «لم يكن بعدُ موجوداً».

بعد المحاضرة دعوت كريستين إلى الغداء في «مقهى بروغلي».

لا يزال طعم التقيؤ الكريه في فمي، ويتمدد في حلقي. تضايقتُ مما جرى لي في الفندق: أشبه بمراهق إثر خروجه في أول ليلة رقص... لماذا نظرت إليّ فيرا نظرة المندهشة؟ وماذا عن كريستين نفسها، وأنا أستاذها، وقد تحولتْ إلى كبيرة ترشدني بما علي القيام به في حالات مماثلة؟ ما كان يعرفني أحد، فلمَ هذا الشعور بالحرج؟ ولماذا الحرج أساساً، حتى لو كانوا على معرفة بي؟

كان في ودي شكر كريستين على ما قامت به، من دون أن أسمي فعلي بما يناسبه من كلمات. كانت فَرِحة، لا تكاد تهدأ فوق طاولتنا. أما الداعي الحقيقي لدعوتي فقد كان معرفة حقيقة ما حصل بيننا ليلاً في فراشي... لكنني كنت مرتبكاً أو حائراً في كيفية مفاتحتها بالأمر.

كانت كريستين تأكل وهي تتكلم، تتكلم وهي تأكل أو تشرب. من دون توقف. كانت كمن يتابع حديثاً سابقاً، جرى إيقافه لعدة أيام واقعاً، إلا أنها تستعيده كما لو أنه انقطع قبل دقائق. كانت قد أعدَّت

خطابها منذ وقت من دون أن يتاح لها الظرف لقوله. ها هي تكُرُّه على مسامعي. وها أنا أدعها تقوله من دون أن أوقفها.

أنا لا أريد الاستماع من جديد إلى ما تقرأ في كتابها الجديد عن اللذة والحب والمومس والعشيقة، ولا عمّا تعلَّمته من مناقشاتها مع المحللة النفسية، التي تبدو لها مثل «مرشدة جنسية»، إن صح القول. كنت أريد معرفة ما جرى في السرير بيننا... لم أطرح عليها السؤال بهذه الصيغة المخجلة، لكنني ما أن ذكرت استيقاظي المزعج في غرفتي، حتى راحت بنفسها تروي من دون حرج: كانت ليلة مدهشة لي... اكتشفتُ فيها أستاذي على حقيقته، حقيقته الإنسانية بالطبع... اكتشفتُ فيك نفسية منطلقة، متحررة، لا تمنعها تربيتها الشرقية من أن تشارك في زواج اثنتين من المثليات... اكتشفت أنك، وراء التحفظ، تُخفي إقبالك الشهي على الحياة، على الأكل والشرب... وعلى الرقص خصوصاً. ما كنت أخالك ترقص أساساً، فكيف حدث أنك لم تبرح ساحة الرقص أبداً؟

لم تتحدث كريستين عمّا جرى بيننا في السرير، إذ كانت تظن - على ما انتبهت - بأنني كنت مدركاً لما فعلته: كنتَ حنوناً، بطريقة مدهشة... ما كنت أعتقد أن مثل هذا الحنان يصدر عنك... ما كنت أخالك تعتني بلذة شريكتك بالجنس...

كريستين ترى ما لم أره. لعلها رأت صورة أخرى عني، لا تشبه صورة وقوفي أمام المرآة، إذ أتأكد من بروز شعرة بيضاء في غرة شعري. كانت ترى على هواها، أما أنا فما كنت أعايشه لا يعدو كونه صوراً ملتبسةً، متداخلة، بين النوم والحلم، بين العيش نفسه والاشتهاء: أهذه شهوة الترجمان؟

لا، لعلها ترى ما يحلو لها، بل إن اندفاعَها هو الذي رسم لها الصور على هذه الشاكلة. لا تعرفني أبداً... لا تعرف أنني أنقاد في الغالب، أنني أتلقى وحسب ما يُعرض عليّ...

كنت أستدرجها في الكلام لامتلاك صورة أبْيَن عني، وعنها كذلك. إذ من تكون كريستين؟ أهي مثلية جنسية فعلاً؟ كيف تخلت عن تمضية ليلتها مع «مرشدتها الجنسية»؟ كيف شاطرتني سريري وما جرى فيه؟ ماذا جرى فيه؟

الفصل السادس

شهرزاد تنهي ليلتها الأخيرة

يوم السبت عندي أقرب إلى يوم عمل، إلى يوم كثيف. تجتمع فيه مواعيد منتظمة، والتزامات: بين اتصال والديَّ، وتبضعي الأسبوعي، وانصرافي إلى غسيل الملابس وإلى المصبغة. يضاف إلى هذه موعدي الأسبوعي مع فضيلة وابنتها. هذا ما أراجعه بنفسي صباح السبت. ما يخفف من ضغط واجبات هذا اليوم هو ما يسبقه صباحاً، في هذه الدقائق القليلة التي أصرفها لنفسي، وأنا أحتسي قهوتي بالحليب في الصالون، ناظراً إلى حبقتي الخضراء. في هذه الدقائق أشعر بأن لي شقة يتوجب الاعتناء بها، بتفاصيلها المملة، من أوراق الحمام حتى معجون الأسنان، من حبة البندورة حتى قنينة الزيت الحلو.

في هذه الدقائق القليلة أشعر بمتعة عابرة ولكن أكيدة، وهي أنني أدير حياتي: ما أقوى عليه فيها. فأنا لا أديرها إلا في القليل القليل، طالما أن الأحداث تقع عليَّ، فلا أختارها، كما يتوجه الأشخاص صوبي، فلا أقترب منهم أو أمتنع عنهم.

مضى أكثر من سبعة شهور على وجودي في ستراسبور، فلا أتحقق تماماً من مرور الوقت إلا في هذه الدقائق القليلة. أنتبه فيها

إلى كون قبة قميصي البيضاء، «الرسمية» كما أسميها، قد أصابها تفتُّت ما، طاول بعض خيطانها، وأنني بتُّ قادراً على «فك» الحروف التي انتقشت في الوجه الخلفي لباب الحمام، لما أكون جالساً فيه، وأطيل النظر. . .

شهور قليلة لكي «أنعم النظر» - كما تحسن العربية القول - في كل ما يحدث لي. وقد حدث لي فيها الكثير، ممّا لم أختر، مما وقع علي، مما اندرجتُ فيه، مما تابعتُه بنفسي من دون تكلفة من أحد. باتت لي ذاكرة مثقَلَة، أشد مما خزَّنته شهرزاد نفسها من حكايات: شهرزاد لا تفيدنا عن مصادر حكاياتها، كما لو أنها لسان جماعي، وذاكرة عمومية، بل هي «حيلة» يتصيدها أي حكواتي لرواية ما يشاء، بخلافي، إذ إنني نقلت حكاياتي وشاركت فيها: كيف يحدث أنني أقارن نفسي بشهرزاد؟

لحسن الحظ أحتفظ بحكاياتي، ببعضها، بجوانب ممّا يحدث لي، فوق هذا الحاسوب. وما لا أنجح في تدوينه إلكترونياً، أسجله في دفتري الأزرق الذي لا يفارقني. . . حتى في الحمام، بل وجدت وسيلة أنجع، وهي إيداع بعض الانطباعات في «ملفات» على هاتفي النقال.

قرأتُ لجان-جاك روسو قبل أيام أن «اللغة» لا تعدو كونها «إضافة» على الجسد الإنساني، أي ممّا زاد عليه، فلا تعكس فطرته الأولى، لكن الهاتف الجوال بات «إضافة» لجسدي، بل امتداداً يكاد أن يكون عضلياً وعصبياً ونفسياً ليدي اليمنى، إذ أدير به ما أشاء، في خيالي أو ذاكرتي. هاتفي الجوال امتداد جسدي، حتى إنه يوقِّع خطواتي: خطواتي فوق الحاسوب كما فوق الشوارع.

إلا أن هذه الدقائق القليلة، اليوم، حزينة إذ أشعر بأنني أغادر ستراسبور، قبل أن أغادرها.

أمينة، ابنة فضيلة، تجلس مكاني في الصالون، تراجع دروسها فوق مكتبي، وتُعدُّ فرضَها، بعد أن شرحتُ لها ما هو مطلوب منها، لكي أراجعه معها فور انتهائها منه.

فضيلة وأنا نجلس في المطبخ، من جهتي الطاولة، وأمامنا مواد لإعداد طبخة اليوم. أنا أتعلم دروسي بدوري، ولكن من دون نجاح يذكر. أخبرتُ فضيلة عن متابعتي لبرنامج تلفزيوني يقوم على مباراة أسبوعية بين عدد من الطابخين الاعتياديين، أي غير المحترفين، مثلي تحديداً. وأنني أطالع وصفات ونصائح فوق أحد المواقع الإلكترونية: شهية دوت كوم... لكن هذا الاجتهاد الأكيد لا يجعلني أحسن إعداد صلصة السلطة، ولا التحكم بمقاديرها من ملح وزيت وحامض، ولا طريقة خلطها ومزجها...

لم أكن قادراً على فهم ما يحدث لي، ولا كانت فضيلة قادرة على شرح ما يعوقني في دروسي، وفي اختباراتي، عدا أنها أمسكت عن الضحك، اليوم، لما وجدتني أضع الصلصلة فوق السلطة، قبل أن أقطعها التقطيع المناسب، عدا أنه يستحسن، برأيها، إنزال الصلصلة على السلطة مباشرة قبل عرضها على الأكل، وإلا فستكون السلطة ذابلة تماماً... ألا تلاحظ كيف تصبح السلطة ذابلة تماماً، لو أبقيناها في البراد بعد مزج موادها؟

لم تنفع أسئلتي لها في استدراك ما يفوتني. وأظن أنها كانت

مهذبة معي، وإلا لقالت لي ما كنت أتوقعه منها منذ وقت: دعكَ من هواية الطبخ... احتفظْ بمتعة الأكل. ألا يكفيك هذا؟

كيف يحدث أن ماريو، أو زوجته، أو هي نفسها، تفننوا إلى هذا الحدّ في الطبخ، وفي أطباق تعود إلى أكثر من مطبخ؟

الطبخ لياقة جسدية، مثل الرياضة، مثل الرقص نفسه. أترى؟ هناك رياضيون يقوون على التميز في الرياضة بمجرد أن طلبوا ذلك. أتعرف أنّ ماريو كان يرفق دروسي في الطبخ بدروس رقص؟

كان جواب فضيلة مدهشاً ومربكاً: كيف كان ذلك؟ أمسكتني فضيلة بيدي، بعد أن نشفتها ممّا علق فيها، وهو ما فعلتُه بدوري، ثم أوقفتني أمامها، ووضعت ذراعها على جذعي، قائلة: كن مسترخياً... أتراني كيف أضع يدي على يدك؟ أترى كيف أحيطك بذراعي الآخر؟ أترى كيف أنقل خطاي؟

أفلتُّ يدي منها، ووقفت على مبعدة قليلة منها أراقب رقصها المتهادي من دون موسيقى، من دون شريك. كان الإيقاع يحملها، أو تديره، بخفة تجعل الهواء شريكاً خفياً لها.

لا أعرف إن كانت فضيلة تحتاج إلى شريك في الرقص. كانت في مطبخي كما لو أنها في الحفل الراقص في فيلم «الفهد» لفيسكونتي، لما يقود آلان ديلون خطوات كلوديا كاردينالي في الرقص: كنتُ أقرب إلى الكونت، العم، الذي يتفرج منبهراً بما يراه، لا مثل ديلون الذي يطير بها فوق البلاط الفاخر. كانت فضيلة مع جسمها، كما لو أنهما اثنان. أو كانت مع شريكها الوهمي، مع ماريو من دون شك، الذي أوقد في جسدها أنواراً تشع من وجهها. فجأة خرج من جسد فضيلة جسد آخر، غير الذي يختفي تحت ثوبها

المعتم، أو تحت قبعتها في المطبخ الجامعي. امرأة طائرة، ما لا يضبطه زوجها، ولا حتى ابنتها أمينة. أين ومتى تلتقي فضيلة بهذه الراقصة الساكنة فيها؟

قبل أن تغادر الشقة، دعوتُها للبقاء معي قليلاً في المطبخ. أخبرتها باختصار ما عايشته في مارلنهايم، ولا سيما في الفندق المدهش، من دون أخبار التقيؤ، وما حصل مع كريستين، وهوية العروستين. ثم ختمت حديثي بقولي: يحلو لي دعوتك إلى هذا الفندق.

لم تجبْ فضيلة، لكن عينيها أبرقتا من جديد، بل أنارتا الثريات التي كانت تعلو فوق جسدَي كلوديا وآلان في قصر الكونت الإيطالي.

بيني وبين كريستين، هناك ما قبل الفندق وهناك ما بعده. حتى في مكتبي، بعد عطلة عيد الفصح، بدت الأمور متغيرة منذ دخولها إلى المكتب، منذ مباشرتها الكلام معي. ذكّرتني الحال بما كان يقوله لي صديقي في الجامعة قبل سنوات: بلى، هناك علاقة ناشئة بين بطرس ولبنى المحجبة. كيف تعرف ذلك؟ كنت أسأله، بل كنت أسخر منه واقعاً، وكان يجيب: هناك مسافة بينهما سقطت، ألا تراها؟ ما كنت أرى ذلك، حتى اليوم الذي عدتُ فيه بعد انقضاء درسنا إلى صفنا، لتفقُّد كتاب نسيته فيه، فإذا بي أجد الباب مغلقاً، من دون أن يكون محكَم الإغلاق بمفتاح. يومها لم أكمل فتح الباب، وإزاحة ما كان يعيق فتحه، إذ رن هاتفي النقال. أجبتُ على المكالمة، مبتعداً عن الباب، متجولاً في الممرات، وإذا بي أنتبه إلى

خروج لبنى وبطرس من الصف: بطرس، بداية، الذي مضى من دون أن يلتفت يميناً أو يساراً باتجاه الدرج الفاصل بين الطوابق، ثم لبنى، وقد بدا عليها الارتباك، إذ كانت لا تتوانى عن تلمس حجابها على رأسها، فيما لا تحسن التقدم في وجهة أكيدة.

هذه المسافة سقطت بيني وبين كريستين. سقطت المهابة بين الأستاذ وتلميذته. لم يعد لها عمل كثير تعمله في هذه الأسابيع الأخيرة والمتبقية، عدا أنني ما كنت أحسن إدارة مساعدة إدارية، طالما أنني لم أعرف مثل هذه المساعِدة في بيروت. سقطت، بمجرد أن دخلتْ، ومدت يدها للسلام، وهو ما لم تكن تفعله في السابق، مكتفية بإلقاء التحية لفظاً. سقطت، إذ لم تقف كسابق عهدها أمامي، سائلة عما يتوجب عليها فعله، بل أخذت كرسياً وجلست قبالتي أمام مكتبي، ناظرة إلى وجهي بابتسامتها الجذابة. سقطت، إذ حدثتني عن أنها رتبت لي موعداً مع «مرشدتها»، من دون أن أكون قد طلبت هذا الموعد. لما سألتها عن سبب ذلك، قالت: ألم تطلب مني هذا الموعد؟ لما أنكرتُ ذلك، أجابت على الفور: هي تريد التعرف عليك، خصوصاً وأنه لم يتح لها الكلام معك. ولما استفسرتُها عن سبب رغبة المحللة النفسية في لقائي، أجابتني من دون تلكؤ: لطالما أخبرتُها عنك، وعن شخصيتك المثيرة للطلاب.

توقفتُ عن طرح الأسئلة، إذ بتُّ متيقناً من أنني لو طرحت أسئلة أخرى لكانت كريستين وجدت الأجوبة المناسبة لها. لكنني ما كنت أعرف عمن كانت تتكلم. أتتكلم عني فعلاً؟ أأكون هكذا من دون أن أعرف شيئاً من تأثيري على طلبتي؟ لماذا تصرّ على اللقاء، وقد حددتْ موعده في عشاء، في بيت المحللة النفسانية نفسه: سأقودك بنفسي يوم الجمعة القادم. ثم توقفت قبل أن تخرج من

المكتب، ناظرة إليَّ بشيء من الدلع: لا تتأخر عن طلب مساعدتي إن احتجت إلى الانتقال إلى أي مكان... أنا فانوسك السحري... أرجو ألا تنسى ذلك.

سقط كل شيء بيننا، من دون أن أعلم فعلاً حقيقة ما جرى بيننا لمّا تعرَّت وعرتني في سريري في تلك الليلة الغامضة والمثيرة. أتكون الأمور قد بلغت بيننا شكلاً حميمياً إلى هذا الحدّ، لكي تتصرف معي بهذه الثقة، بهذه القدرة؟

الأكيد هو أن شهرزاد الإلكترونية سقطت، هي الأخرى. كنت أظنها ستفعل مثل شهرزاد، ولكن بطريقة مغايرة، جديدة: القديمة تؤجل إنهاء حكاياتها طلباً للإثارة، للتشويق، وهو ما تفعله شهرزاد دوت كوم إذ تُظهر جمالاتها مبعثرة، من دون قوام، من دون هيئة، مؤجِّلة الكشف عن هويتها.

اختفت منذ أسابيع من على شاشة حاسوبي: هل انتقَلَتْ إلى إثارة أكثر تجاوباً مع غيري؟ سقطت بأي حال - على ما أتحقق، اليوم، بعد خروجها من المكتب - منذ أن تنامت علاقة مقربة بيني وبين كريستين. اختفت شهرزاد بأعضائها المتناثرة، التي كانت أشبه بـ«كلمات متقاطعة»، بل بما يُطلب في أسئلة هذا التمرين الثقافي اللاهي: جِذْها مبعثرة في... حيث يوردون كلمة، وتحتاج إلى استخلاص اللفظ المناسب من بين حروفها المتداخلة.

هل وجدتُ اللفظ المناسب؟ ربما، ولكن لماذا تُمعن في ملاحقتي، في اجتذابي، وهي مثلية جنسية، على ما يتضح؟ أتطلب توثيق العلاقة بي، وهي تدعوني إلى اللقاء بمن قد تكون مرشدتها وعشيقتها؟

كان في إمكاني الإكثار من هذه الأسئلة، وهي زادت وتفاقمت منذ دخول كريستين إلى مكتبي اليوم، إلى حياتي منذ ثمانية أشهر. زادت بما لا أحسن جواباً عنه...

الأكيد هو أن كريستين باتت تُشعرني بأنني عجوز، متقاعد، طالما أنها تتصرف، تتكلم، تفعل، بما لا أحسن معرفته، ولا تخمينه. أبطلتْ كريستين معاني اللغة في قنوات الاتصال، من دون أن يحسن الترجمان ترجمة لغتها الخاصة.

ألا تكون كريستين مثل دانييلا، بعمرين مختلفين: الاثنتان تخفيان هويتيهما، وتمعنان في طلب لذة لا أحسن معرفتها، طالما أنهما تديران، كل واحدة على طريقتها، ما تريده مني، وما تلتذّ به معي، لكن أخشى ما أخشاه، هو أنهما تلتذان أكثر في رؤيتي، وأنا أتقلب في سيناريوهات ما اعتدتُ عليها في سابق تجاربي، أو في المجتمع الذي أنتمي إليه... ألا تكونان، وهما معي، تجلسان في الوقت عينه على شرفة عالية تنظران منها إليّ، وأنا أتلوى في ثنايا جسدي الغامض؟ أتكون هذه شهوة الترجمان: ما يتحسسه الغير فيه؟

يبدو أن نظرية «المؤامرة» بلغتْ جسدي في نهاية المطاف: أبات مشتهى إلى هذا الحدّ لكي أخصه بسيناريوهات معقدة، سادية، كهذه؟ بات بالأحرى مثل الإسفنجة يمتصّ كلّ ما يتصل به من دون أن تكون له أي مناعة، فلا يرفض ما يتصل به، ولا يختار بدوره مَن له أن يتَّصل به، لكن هذا لا يصحّ مع فيرا، إذ لم نعرف بيننا غير مشاعر لا شبهة جنسية فيها. وهذا لا يصحّ مع فضيلة، إذ كنت مَن بادرها، وإن هي التي فتحت الحديث معي لأول مرة. لكن ما جذبني إلى فيرا كان لا يتصل بشخصها، وإنما بما يصلها بحكاية مثيرة. أما ما جذبني إلى فضيلة فلا أعرف طبيعته: أهو جسدها، بشهوانيته

الغامضة، بما تَعِد به شفاهها المنتفخة مثل دعوة مريبة، أم هي قصتها السرية، التي تجذبني، وتبقيني معلقاً على شفتيها الكتومتين؟

لكنني منجذب، واقعاً، إلى دانييلا، وأنا أشكو منها دوماً، وأتهرب من ملاحقتها لي. ذلك إن فيها ما يسحرني، ما يبطل اشتغال عقلي بشكل طبيعي. فيها ما يَخفى عني ولا أعرفه. كما لو أن فيها وجهاً غامضاً هو ما ينعكس مني فيها، وأتبينه لماحاً وأتملص منه، أو أنكره، أو أدفعه إلى العتمة من جديد.

أما مع كريستين فأجدني، منذ ليلة الفندق، مخفياً فيها، معلقاً على أطراف أصابعها، كما لو أنها وحدها هي التي تعرفني حقاً، إذ كشفت ما يحركني، طالما أنها انتهت بي إلى شرب كمية من الكحول لم أكن معتاداً على شربها، وإلى مراقصتي فيما كنتُ، قبل ذلك الوقت، أنقل خطاي في الرقص ليس إلا. كان لكريستين معي، قبل ليلة الفندق، ثقة بقدراتها، بتمكنها مني، بأنها تعرفني أكثر مما أعرف نفسي.

خرجتُ من مكتبي ممسوساً، غافلاً أو غير مدرك مَن أكون: من أحب؟ هل أحب؟

لكنها كانت أسئلة صالحة لمراهق يتعثر في خطواته الأولى، لما ابتسمتْ له أول صبية من على شرفة بيتها، وهو يعلو بنظره إليها من رصيف الشارع الواقع تحت بيتهم. لكنها ليست صالحة لمن هو في عمري، ولمن له علاقات حميمية، جنسية حتى، مع أكثر من امرأة، وفي الوقت عينه. إلا أن فيها ما يربكه، طالما أنه لم يعرف مثل هذه العلاقات، ولم يبلغ فيها هذه المهاوي السحيقة، التي تُظهره غافلاً، غائباً، ضائعاً، لا يحسن قراراً.

أمِن الضروري أن أتخذ قراراً؟ ألَنا أستعدّ لقرار زواج لكي

أجدني ملزماً بتصفية لعلاقاتي، لمشاعري؟ وما الضير من بقائها كلها؟

زاد من حيرتي كوني، يوم أمس، وقعت على مفاجأة غير سارة، عند خروجي من مرآب السيارات، مع زميلي هيبوليت، لما انتبهتُ إلى وقوع الشارع الضيق الذي خرجنا منه على «ساحة بروغلي». ثم استعدت خطاي، فإذا بي خرجت واقعاً من ممر بنيامين، من دون أن أتبينه من جهته الخلفية. وإذا بالشجرتين اللتين تحدثت عنهما في السابق ثلاث شجرات في الواقع. كيف حدث أنني رأيتها اثنتين؟ أكانت الواحدة منها تخفي الأخرى؟ من دون شك... ألأنا أنظر إلى ستراسبور كلها بمثل هذه العجلة، عجلة المسافر العجول؟

فجأة توقفتُ عن السير، ونظرت إلى جانبي فلم أجد أحداً قريباً مني. أطلقتُ ضحكة عالية، اصطناعية، ثم كررتُها: ماذا لو سمع مني صديقي عصام هذه الأسئلة المقلقة، التي تشغل بالي؟ أما كان سيسخر مني بدل أن يصدقني أو أن يخفف من اضطرابي؟

اتصلتُ بكريستين، بعد وصولي إلى الشقة، وأبلغتُها عن انشغال طارىء ليلة العشاء الموعود ما يجعلني أعتذر منها ومن المحللة. ولما شدَّدَتْ على وجوب اختيار موعد آخر، أجبتُها بأنني لا أرى حاجة لا إلى اللقاء، ولا إلى العشاء خصوصاً. ولما راحت تُعيد تكرار ما كانت قد قالتْه، أوقفتُها عن الكلام: قد تكون هذه رغبتكِ، أو حاجتكِ، لا رغبتي، ولا حاجتي...

لكنها لم تُذعن لما آلت إليه مكالمتي، إذ وجدتُها بعد أقل من نصف ساعة تقف على باب شقتي، فيما كنت أستقبلها بقميصي

الداخلي. كنتُ أعرف أنها تسكن في مساكن الطلبة القريبة، لكنني ما كنت أعلم بمعرفتها لمكان شقتي: هل يمكنني الدخول؟

لم أجبْ. تركت الباب مفتوحاً وعدت إلى الكنبة، مرتدياً قميصي من دون أن أعقد أزراره. أقفلتْ الباب بنفسها، أتت بالكرسي، وجلست قبالتي: ما كنتُ أخالك شرساً؟ من يرفض دعوة مثل دعوتي؟ لما رفضتَها؟

فعلاً، لم أكن أعرف سبب مكالمتي الجازمة. لم أجب، من دون أن أنظر إلى وجهها. لكنها ما لبثت أن تابعت على الرغم من توقفها لبضع ثوان منتظرة كلاماً لم يبلغها: كنت أعتقد، بعد أن جرى ما جرى بيننا في الفندق، بأن خيوطاً قوية باتت تربطنا بعضنا ببعض...

عمَّ تتحدثين؟ أوقفتُها غاضباً.

عن لحظات السحر الغامض بيننا: قالت، فيما كانت تخفض رأسها، وتبكي ربما. كنتُ قد وقفت واتجهت إلى النافذة ناظراً إلى الخارج من دون أن أنظر واقعاً إلى أي شيء، فيما كانت تبلغني جملها المتدافعة:

أَتُنكرُ الآن أم تتعامى عمّا جرى بيننا؟ ما جرى بيننا كنت أتمنى حصوله منذ أسابيع فقط. كنت أتردد في شأنه، خاصة وأنك أستاذي، ومديري في العمل، عدا أنني لست هاوية رجال... اعتقدتُ في البداية أنني أنجذب إليك لأنك تستفزني بطريقتك الشرقية، «الذكورية»، خلف عاداتك اللطيفة... بلى، كنتَ تستفزني بإظهار لطفك الشديد أمام أي طالب، أي طالبة، مع شرطي البوليس، أو المدير، أو عامل الفندق... من أين أتيتَ بأكوام اللطف الزائد هذا؟ كيف توزعها؟ ألا تنضب؟ لماذا تخاف إلى هذا

الحد فتوزع اللطف مثل رشوة؟ لماذا يتقدمُك لطفُك؟ أتخشى الوقوع في أي خطوة فتريد ممّن توزع عليه لطفك أن يستدركك بيده قبل أن تقع، وإن وقعتَ أن تضمن عدم سخريته منك؟

تحققتُ، وأنا معكَ في الفراش، من أن هذا اللطف ليس ظاهرياً، ولا اصطناعياً... هو أنت في صورة طبيعية، مؤكدة. لم أكن أطلب ممارسة الجنس معك، وما كنت أخطط لذلك، بل يمكنني الاعتراف لك الآن بأنني أبقيتُ حقيبتي الجلدية عند عامل الاستقبال في الفندق، في انتظار أن أضعها في غرفة المحللة إثر وصولها... لكن بعد أن صعدتُ معك إلى الغرفة، بعد أن حصل ما حصل بيننا لم أعد إلى غرفة المحللة، لم أزرها أساساً. بقيتُ معك حتى الصباح، حتى مغادرة الفندق... لطفُك جعل جسدي يرتاح إلى البقاء عارياً مع جسم ذكر، على الرغم من انقضاء أكثر من سنتين على تواجدي مع ذكر فوق سرير واحد... كانت أناملك تلمسني كما لو أنها تداعب صفحة المياه الهادئة: بنعومة وحرص والتذاذ عميق... لما تناولتَ شفاهي لم تمصها مصاً، بل رحتَ تتذوقها كما لو أنك تلحس منها عسلاً صافياً وتذيبُه في شفتيك...

كنتُ قد عدتُ إلى الكنبة... كنتُ قد أثبتُّ نظري من جديد عليها، على شفتيها، إذ تتدافعان بكلام حار، دافىء، مثير، ما سمعتُه من أي امرأة. كانت صادقة، كانت جارحة. كانت تعبِّر عن التذاذها، فيما كانت تتألم. كانت تذكِّرني بما نسيتُ، بما عاشته ويربكُها اليوم. يربكها، بل يؤلمها، فكيف أتغافل عنه!؟ وهو ما تأكدتُ منه لما اقتربتُ منها، من جسدها المتكوم فوق الكرسي، لما مددتُ يدي صوب وجهها: ردَّتْ يدي، ونظرتْ إليَّ نظرة فيها دموع جافة وفيها غضب محتبس.

على طاولة العشاء، لم نستعد حديثنا السابق، تشاغلنا في نقاش سياسي حول الحكومة الجديدة في فرنسا، وقد خرج منها «حزب الخضر»، وحول وداع نائب «الخضر» دانييل كوهين-بنديت في البرلمان الأوروبي، حول أوضاع أوكرانيا المتمزقة... كنت أستمع إليها، أكثر ممّا أشارك، طالما أنني لا أتابع السياسة إلا في ما ندر، عدا أنها كانت منغمسة تماماً فيها، في أدق تفاصيلها: كنا ننشغل بالسياسة، لأننا نتغافل عن كوننا أصبحنا نتكلم عن ماضٍ يجمعنا.

تمشينا على طريق العودة، وافترقنا مثل اثنين التقيا في رحلة عابرة، من دون أن يُحسنا حسبان النعمة التي حلت فوق رأسيهما... فوق رأسي خصوصاً، إذ كنت أظنّ أن النعمة هذه طير عابر، لا الطير الذي يصعد من الوادي، وادي النحل والقفير والعسل، الطير الذي غمس منقاره في العسل، العسل الذي لا ينقطع إذ تعلو به إلى شفتيك.

أنتَ تفعل كل شيء لكي يحبك الآخرون: رمَتها كريستين في وجهي، بل ضغطتْ محلَ صفعتها بالقول: أنت لا تعترض على أي شيء... أنتَ من تكون؟

أقالتْ ذلك لأنها لاحظتْ تعاملي اللطيف مع زملائها، في الصف أو في مكتبي؟ هي لا تعرف شيئاً عن علاقاتي. هي لم تجتمع بي، في بيت، أو مناسبة، مع غيري، لكي تستبين فيَّ هذا اللطف المخادع، كما تسميه.

أنا من أكون؟ هل أن كوني منفتحاً، إيجابياً، يتحول إلى عنصر سلبي، إلى مؤشر ضعف، بل إلى علامة خبث؟ أتريدني جازماً،

شديداً، مثلما فعلتُ معها لما أبلغتُها عن إلغاء العشاء؟ ألا يكون تشددي معها هو الذي جعلها تنتفض، تظهر على عتبة بيتي، وتغص في بكاء صامت؟

أرأتْني في وجوه طلابي، وهم أكثر من ألتقيهم في ستراسبور، وفي حضورها في الغالب؟

هل تعرف أنني أكاد لا أراهم، لولا وجود محجَّبتين بينهما: لا تغيبان أبداً عن الصف. كيف أكون لطيفاً مع هذا أو تلك، وأنا لا أحفظ أسماءهم أساساً؟! أما لاحظتْ كريستين أنني أعود إلى ورقة مرفقة بملف محاضراتي، لما يتوجه إليَّ أحدهم أو إحداهن بالكلام؟ ألم تلاحظ أنني أسأله أو أسألها عن الموضوع البحثي، وأنني - إذذاك - أتوجه إليه أو إليها باسمه أو اسمها، بعد أن وضعت إلى جانب أسمائهم عناوين بحوثهم التي يعملون عليها؟ كيف أحفظ أسماءهم، وأنا ألتقيهم مرة واحدة في الأسبوع، وعددهم يزيد على الستين، بخلاف المجموعات الصغيرة التي كنت أدرِّسها في بيروت، أو مَن عملتُ معها في صفوف تحسين مستوى الفرنسية. . .

كيف أكون لطيفاً، وقد تضايقتُ في لبنان لما طلبَ مني عميد الكلية أن أخصِّص بعض واجباتي الفصلية للرفع من مستوى الفرنسية لدى أعداد من الطلبة؟ أأنا مدرس لغة أم أستاذ ترجمة؟ ما مسؤوليتي عن مشاكل كان لهؤلاء الطلبة، ولمدارسهم ومدرسيهم، قبلي، أن يعالجوها، وأن يوفروا لهم المستوى اللائق لدراسة الترجمة بين ثلاث لغات؟

حفظتُ أسماء هؤلاء، وما كانوا يتعدون العشرة، عدا أنني كنت ألتقيهم أكثر من مرة في الأسبوع الواحد، فضلاً عن أنني عملت على جمعهم في مجموعتين، وكنا نعمل معاً على تصحيح

الفروض بيننا، عبر «سكايب»، ما كان يولد ألفة مزيدة بيننا. مع ذلك لم أكن شديد اللطف معهم، خصوصاً وأنني كنت أشك في كون بعضهم يطلبون العلم فعلاً، والتخصص في الترجمة أساساً. ذلك أنني كنت لا أتوانى عن الترداد على مسامعهم: من يطلب الترجمة، يجب أن يكون مهووساً باللغات، أن يكون ممسكاً في أطراف أصابعه بعدة قواميس، وأن تكون أذنه متنبهة إلى أيّ لفظ جديد، ولا سيما في اللغات التي لا يعرفها. كان بعضهم في الجامعة لأنّ الحساب الاجتماعي بات يشترط الحصول على بكالوريوس على الأقل. وهو ما يصح في الصبايا خصوصاً، إذ لا يعقل في الصبية - «إن لم يهجم عليها نصيبها»، كما نقول في العامية اللبنانية - أن تبقى في البيت، في عائلتها، معطلة... في انتظار ظهور الفارس العجيب.

هذا ما كنت أتبيَّنه في لباسهم، في هيئاتهم، حتى عند المحجبات. كنت أقول لزميلي حنا: أترى ما أرى؟ إنهن في استعراض قبل زواجهن المنشود. إذ كن يأتين إلى الجامعة كما لو أنهن يخرجن إلى حفل استقبال، أو خطوبة. فيما كان الشباب لا يبالون بالأمر: الشاب لا يحتاج إلى «عدة النصب والاحتيال»، كما يردد حنا على مسامعي، وهو أكبر مني سناً وملاحظة لسلوكاتهم، منبهاً إلى أن الشاب يفرض نفسه من دون حاجة إلى المظهر. وهو ما انتبهَ إليه في منظر عدد من المحجبات، إذ كن يبدلن لون أحمر الشفاه، أو يخترن الثياب بتناسق لوني ملحوظ... ولما كنت أستفسر منه عن أسباب ذلك، كان يحيل على أرقام المنتسبات إلى التعليم العالي: ألا تلاحظ أن عدد الصبايا زاد، بل فاق عدد الشباب في كلية الآداب، في جامعتنا وغيرها؟ ألا تلاحظ أن عدد الصبايا

يفوق عدد الشباب في اختصاص الترجمة؟ هذا يعني ظهور قسمة عمل جديدة، باتت فيها الطالبة تُقبل حكماً على التعليم العالي، بفضل التطلبات الاجتماعية لصورة المرأة، وبات فيها الطالب منصرفاً إلى اختصاصات أكثر ربحية، مثل الهندسة بأنواعها كلها.

لهذا بدا طلابي في ستراسبور مغفلي الهيئة، إن جاز القول. ما كانوا ذوي طلات تثير، أو أزياء لافتة، فيما خلا بعضهم لما التقينا في الحفل السنوي في مطلع السنة الجامعية... يومها لم أحسن التمييز بين اللباس الوطني عند بعضهم واللباس التنكري.

كانت كريستين في هندام كلاسيكي، إذا جاز القول، لما وقعتُ عليها تنتظرني في سيارتها الصغيرة على مقربة من العمارة. كانت تضع قرطها الصغير في أذنها اليمنى، على عادتها، منذ أن دخلتْ إلى مكتبي للمرة الأولى.

تضعه من دون الأذن اليسرى... هذا ما احتجت إلى وقت للتنبه له، لملاحظته، فيما كانت صِدِّيقة الإيرانية قد صبغت خصلة من شعرها الفاحم بلون أزرق فاتح... أما في الشوارع، أو في المخازن الكبرى، أو في حافلات «الترامواي»، فترى العجوز معتنية بظهورها، فلا تهمل نفسها كما في قريتي: تبقى الزوجة تعتني بهيئتها سنوات قليلة بعد زواجها، وما أن تبلغ الأربعين على الأكثر تترك نفسها تماماً، ما يجعلها عجوزاً مبكرة.

انتبهتُ، مع مرور الوقت، وانصرافي إلى الملاحظة المقربة، ولا سيما عند مجيء الطلبة إلى مكتبي، إلى أنّ لبعضهم علامات أخرى يمكن الاستدلال بها عليهم: إحداهن تضع خواتم فضية في

جميع أصابع يدها اليسرى، فيما أطال أنطوان شارِبَيْه كما لو أنهما لحيته، فيما لحيته حليقة تماماً. . . أما سميرة المحجبة فقد وضعت حجابها على رأسها كما لو أنه قبعة حمام مزركشة. . .

لهذا يبدون من دون طلة، إنْ جاز القول. لا يعبأون كثيراً بمظهرهم لما يخرجون في الصباح، عدا أنّ الشبان منهم يتدبرون ألبسة خفيفة هي أقرب إلى ألبسة الرياضة، أو الركض الخفيف في المنتزهات العامة. كما أنّ بعضهم الآخر يمعن في إظهار هيئة مهملة، إذ يختار من بناطيل «الجينز» ما هو ممزق، أو يظهر بقعات صغيرة من الجسد نفسه.

لكَ أن تنظر إلى وجوه بعضهم من قرب، لما تكون في محاورة معهم، أو تصادفهم في الممر وجهاً لوجه، لكي تنتبه إلى علامات تخصهم، ممّا تدبروه بأنفسهم لهم، وبما يفصح أو يُشهر هوية مظهرية لهم. وما يَظهر منهم من علامات قد لا تفهمه، بل تحتاج إلى الاستفسار عنه، إلى شروح شخصية، إلى رواية ذاتية عن العلامة، وعمّا تعني، أو عنت، في حياة الصبية أو الشاب.

لكريستين طلة مختلفة هذا المساء، إذ تقودني بسيارتها إلى مسكن المحللة، بعد أن وافقتُ من جديد على تمضية السهرة والعشاء في بيتها: يقع على مسافة من ستراسبور، في الضاحية القريبة. كنا أقرب إلى الصامتَين، فيما فتحتُ شباك السيارة لكي أدع الهواء البارد يداعب خصلات شعري في هذه الليلة الربيعية.

بعد وصولنا، وتوزيع الشراب علينا، تأكدتُ من أننا سنكون ثلاثة فقط، ما ظهر في الأطباق الثلاثة الموضوعة في طرف من الصالون حيث اتخذنا مجلساً. صالون أشبه بمجلس الاستراحة بعد الحمام التركي، إذ كان يتشكل من كنبات من دون مساند على

الجانبين أو في الخلف، من دون كرسي واحد. اتخذ كل واحد منا كنبة لوحده، كما في حلبة قبل الصراع، قبل التلاحم.

جملٌ قليلة، جملٌ خفيفة: عن صحتي بعد عشاء العرس، عن صلتي بفيرا، عن الجامعة، عن اختصاص الترجمة... وهو ما استمر متقطعاً عند العشاء، إذ لم يكن هناك عشاء بالمعنى التقليدي للكلمة. وضعت المحللة على طاولة الأكل أطباقاً ثلاثة، صحن صغير وآخر كبير، لكل واحد منا، فيما انتقلت كريستين بإشارة خفية من معلِّمتها إلى المطبخ، وراحت تستجلب جوط الأكل، من سلطات مختلفة.

ما كنتُ لأتعرف على الدكتورة كوليت لوبيز لو لم تكن هي التي فتحت الباب لنا، وقبَّلت كريستين على خديها قبلات التحية الفرنسية التقليدية، ذلك أنها كانت ترتدي عباءة فضفاضة على جسمها، حمراء اللون، وشديدة الزركشة على واجهة صدرها. هذا ما كان يخفِّف من تعابير وجهها الملساء، الباردة من دون شك، فيما كانت قد سوَّت شعرها في تسريحة لافتة للنظر.

أتعتقد أن تغريم طالبي ممارسة الجنس مع المومسات طلبٌ شرعي، مقبول، كما طالبت به الحكومة؟

أيجوز أن يصبح القانون فاصلاً في ما له علاقة بلذة المواطن، وبالتصرف بجسده؟

لماذا لا يتعامل القانون مع الجنس بالمال مثل مهنة كغيرها من المهن، أي شرعية وطبيعية؟

لماذا نستمر في النظر إلى أنواع من الجنس على أنها ليست طبيعية، فيما عرفتها البشرية على مرّ التاريخ؟

لماذا يكون البغاء، والمثلية الجنسية، و«الخيانة الزوجية» وغيرها خروجاً على الطبيعة الإنسانية؟

لماذا لا يتم التعامل مع الجنس بالمال مثل مهنة مؤقتة، أو لسنوات مديدة، مثل غيرها من المهن؟

لماذا نُنكر وجود المال مع الجنس فوق سرير واحد، وفي البيت الزوجي نفسه قبل بيوت الدعارة؟

ألا نكون قد نسينا المفاوضات، ثم التسويات، أو انفراط المفاوضات، عند زواج ملك أو ابنة غني، أو عند الحديث عن «المهر» أياً كان طالب الزوج؟

قرأتُ قبل أيام على شبكة الإنترنت أن بين 85 و90 بالمئة من المومسات الأوروبيات يقعن تحت سطوة قواد: ألا يتساقط هذا العنف الذكوري حكماً لو تتم حماية المومسات، وتشريع عملهن، بواسطة القانون، واعتباره عملاً مثل غيره من الأعمال المهنية؟

لم تكن تنتظر الدكتورة لوبيز أجوبة مني، إذ كانت أقرب إلى المحامية منها إلى المحللة النفسانية، حيث تسأل المحامية لا لكي تسمع جواباً، وإنما لكي تعلو بنبرتها تباعاً، وتبني مطالعتها في نوع من الإقناع الاستنكاري بداية، قبل أن يتحول إلى إقناع إيجابي.

انطلقت لوبيز في كلامها من تلقاء نفسها، من دون سؤال مني، ولا من كريستين. انطلقت، وهي توقع جملها توقيعاً يجعلها تترك لمستمعها وقتاً لتذوق ما تقول، لاستحسان ما تعلو به على رؤوس الأشهاد، فيما كنا اثنين وحسب، مع واحدة مقتنعة سلفاً بما كانت

تسمع منذ شهور وشهور على الأرجح. وقد تكون قلة كلامي السابقة هي ما دفعها، في نوع من نفاد الصبر، إلى إطلاق يديها في الملاكمة. لكنها كانت وحدها فوق الحلبة، من دوني، إذ كنت أقف مستنداً إلى حبال الحلبة، بل نزلت قبل دقائق إلى مقاعد المتفرجين.

ذلك أن لوبيز بدت منتظرة، متنصتة، لما نقول، لما نقوم به، منذ أن وصلنا. كانت تتابع حركاتي وجملي، ولمّا لم تجد مني ما يمكّنها من الحديث الذي تريد، راحت تحتج بجملة، أو هفوة، في كلام كريستين، لكي تنطلق منها، وتذهب بها، باندفاعة، إلى حيث تريد أن تقف، وإلى حيث تريد أن تُجلسنا مستمعين.

كنت صامتاً، أتفوه بأقل من جملة، لكي أدعها تستمر في كلامها. طالما أنني لن أنجح في إيقافها، ولا في مناقشتها. كنت متأكداً من أن أيّ كلام سيصدر عني سيكون مدعاة للسخرية المخففة، وهو ما قد أقع فيه بصورة طبيعية، لأن ما تتحدث عنه لوبيز يصدر عن تفكير وبحوث ومناقشات، فيما لن يأتي كلامي غير ترداد لما يقوله غيري من دون شك، في المجتمع اللبناني... فكيف إن قلتُه في فرنسا نفسها، ومع اختصاصية، بل مع ناشطة في هذا النطاق الحميمي الذي بات عمومياً!

حاولت أن أحيد بالنقاش صوب سيرتها، أو سيرة كريستين، أو عن تعارفهما... من دون جدوى.

كنتُ مأسوراً بكل المعاني. إلا أن الهاتف أنقذني، بعد أن تلقت لوبيز مكالمة جعلتها تحيد عنا بعض الشيء صوب طاولة الأكل، ثم تجلس من جديد مستمرة في متابعة المكالمة التي لا يمكن اختصارها أو إيقافها، على ما يبدو... كانت تستمع، فيما تعلو وجهها قسمات التجهم: يبدو أنها تتابع أحد مرضاها، ولكن

بلغة الغائب، حيث إن إحداهن تخبرها عنه، هو الذي أصابه مكروه، على ما يبدو.

كريستين تنبهت إلى وقوعي في الأسر، إذ اقتربتْ وجلست على كنبتي، وراحت تبتسم في وجهي كما لو أنها تخفِّف عني ما يحدث لي.

لكن لوبيز فكتني من الأسر تماماً، لما أخبرتنا بأن أحد مرضاها أقدم على الانتحار مساء اليوم، وأنه في المستشفى، وهي ملزمة باللحاق به، وبصديقته التي اتصلت بها...

لم يكن من الصعب على كريستين إيجاد ما تبحث عنه لنا لاستكمال سهرتنا في ضاحية ستراسبور أو في المدينة نفسها، إذ عرضتْ عليَّ من على شاشة هاتفها الجوال ما وجَدَتْه متاحاً في «دليل الليل». ولما تردَّدتُ من دون أن أحسن خياراً، طالما أنني ما كنت أعرف أي واحد من أمكنة الليل هذه، دعوتُها إلى اختيار ما يروق لها: نظرتْ إلى وجهي، وابتسمت كما لو أنها تشكرني على ثقتي بها.

لم أحسن بالطبع معرفة الوجهة التي اتخذتْها، ولا الموقع الذي وصلنا إليه، حتى إنني لم أنتبه إلى اسمه إلا بعد دخولنا إليه، واطلاعي على لائحة الزبائن فيه. كان ملهى لرقص «التانغو»، التانغو الأرجنتيني تحديداً، وقد أخذتْ كريستين بعض دروسه في جامعتنا تحديداً، على ما أخبرتْني ما أن رحتُ أسألها عن ولعها البادي بالرقص.

لن أرقص بطبيعة الحال، لا التانغو الأرجنتيني ولا غيره

أساساً، بعد أن رحت أنقل نظري بين أجساد الراقصين والراقصات، الذين كانوا منظمين، منضبطين، كما في احتفال رسمي، أو في العرض الختامي لمدرسة تعليم الرقص. لن ترقص كريستين بدورها، لأنها ما كانت، بلباسها الضيق على جسدها، ترتدي الثياب المناسبة لذلك. شجعتني كريستين على تجريب رقصة أو أكثر، من دونها، طالما أن سلوكيات هذا المرقص وعددٍ غيره، الخاص بالتانغو الأرجنتيني، تسمح بالرقص تلقائياً مع من تشاء، من دون أن يكون رفيقك أو شريكك في الرقص.

كان الجلوس بغرض إمتاع النظر لا يقل بهجة عمّا يجلبه الرقص نفسه من متعة. هذا ما قالته كريستين، لا أنا، بطبيعة الحال، إذ أخبرتني أنها تأتي أحياناً للفرجة، ليس إلا، مع أن الرقص يجعلها تتعرف في صورة مزيدة على جسمها، على قابلياته، على «حراكه الداخلي»، كما تحب أن تقول: في الرقص تكتشف جسدك، تكتشف أن له كياناً، وحياة، لا تعرفها بالضرورة... هل تعرف أن كوليت طلبت تصويري ذات ليلة، في ملهى آخر، لكي تريني جسدي؟

ماذا وجدتِ أو اكتشفتِ فيه؟

اعتذرتْ كريستين عن الإجابة، إذ إن في الأمر حميمية قوية، لا تحسن الإفصاح عنها. ولما قلتُ لها بأنني لا أريد أن تتحدث عن جسدها، عن ميوله، وإنما عن كيفيات تعبير الجسد عن نفسه، عن مكنوناته، نظرت إليَّ وضحكتْ: أتعرف؟ أكاد أن أكون الأستاذة، وأنتَ الطالب.

كنتُ فعلاً في وضعية طالب، طالما أنني أستمع إلى ما لا أعرف، ولم أقرأ، ولم أعش، فيما قرأتْ كريستين، واطلعت،

وعاشت واختبرت من دون شك. هذا ما ظهر فجأة، في جلستنا، إذ بدت قوية، متمكنة، بدليل أنها هي التي وضعت يدها اليمنى خلف رقبتي، على حافة الكنبة الجلدية، في نوع من الإحاطة بي:

العلم أفادني طبعاً، ولا سيما قراءة كتاب لوبيز، وكتاب آخر عن الأخلاق والجنس، فضلاً عن مناقشات شاركتُ فيها في ستراسبور وغيرها، وأحياها اختصاصيون ومثليون ومثليات وناشطون وناشطات وسياسيون محترفون في حزب «الخضر» وفي الحزب الاشتراكي... إلا أنني عايشت وخبرت جسدي مع هذه كلها، وهو كان معلمي ودليلي.

خبرتُ ميولي: ما أحب وما لا أحب. توصلتُ خصوصاً إلى أنّ الحب كذبة كبيرة، كذبة ذكورية، اخترعَها الرجال للسيطرة على لذة المرأة. ماذا تعلمنا في البيت قبل المدرسة: العاطفة هو ما نسمو إليه، هو ما نحتاج إليه، أما الجنس فلا... لا يمكن أن نمارس الجنس إلا إن وقعنا في الحب... هناك امرأة «طبيعية» ما يجعل من غيرها «شاذة»، ومن غيره «شاذاً»... لم يكن متاحاً للمرأة في السابق أن تنصرف إلى لذتها، أن تعيشها كما يحلو لها، وهي غير منتجة مالياً، وغير مستقلة فردياً، ولا تمتلك بعدُ حبوبَ منع الحمل.

ماذا لو أدعو فضيلة إلى هذا الملهى الراقص؟ أكانت ستقبل؟ أهي تعرف أساساً «التانغو» أم الفالس؟ ألا يكون أستاذها ماريو قد علَّمها أكثر من أسلوب راقص؟ ماذا لو أدعوها إلى الملهى، عند قدومها هي وابنتها بعد يومين؟ ألا أكون أكرر الدعوات لها من دون أن تلبي أي واحدة منها؟ لماذا أخصها بالدعوات من دون غيرها من

النساء اللواتي أعرف؟ أهي التي أميل إليها؟ أم أنني أدعوها لأنها الوحيدة، من بينهن، التي لا ترتاد هذه الأمكنة؟ ألا تكون مثلهن، ولكنها تخفي عالمها السري؟ أما نظرتُ إليها بعين الدهشة لما اكتشفتُ أقدامها وهي تعلو بجسمها إلى ذرى عالية من البهجة الأنيقة؟

قطعتْ فضيلة أسئلتي كلها لما اتصلتْ بي هاتفياً شارحة كونها لن تأتي مع ابنتها في الموعد المعتاد، لأن ابنتها مدعوة من المدرسة لتمضية بضعة أيام في «مخيم دراسي»، بعيدٍ عن ستراسبور. كانت مكالمتها مقتضبة، إذ كانت - على ما رجحتُ - في المطبخ الجامعي. لم يعد وجودي في المطعم يحرجها، إذ انقطعتُ منذ أكثر من شهرين عن ارتياده، هو كما الثلاثة الآخرين. ولكن ألا تكون مناسبةُ غياب ابنتها الفرصةَ السانحة - أخيراً - لمشروعات مماثلة؟

اتصلتُ بها بعد أقل من ساعة، وكررتُ عليها ما سبق أن قلته لها، أي دعوتي إلى الفندق الساحر في مدينة مارلنهايم القريبة. لكنها اعتذرت بلطف، مذكِّرة بوضعها الصعب. وإذا بجملة تسبقني إلى شفتي: ألا أكون بمستوى ماريو العجيب؟

كيف تلفظتُ هذه الجملة؟ هذا ما وقع لي في مرات سابقة قليلة، مع دانييلا ذات يوم، من دون أن أعلم سببه أو مصدره. أقفلتْ فضيلة الهاتف مباشرة. كانت هذه طريقتها اللطيفة في الردّ على جسارتي أو قباحتي. أيكون هذا متأتياً من جسدي الذي لا أعرفه، كما تقول كريستين؟

لم أحسن، طوال بعد الظهر، إنهاء التقرير النهائي لسنتي البحثية. كان عليَّ وضع خلاصات ختامية، وهو ما لم يكن صعباً. إلا أنّ الصعب كان يتمثل في الورقة الرسمية، المصاحبة له والمستقلة عنه، وهي طلب تجديد العقد الذي مدَّني به مدير الدائرة.

بماذا أجيب؟ هل أوافق؟ طبعاً الكلام مع والديَّ أتى بالنتيجة السابقة ذاتها، وبغيرها مما أعرضه عليهما: أمي تقف في جهة، ووالدي في الجهة المقابلة. والدي يريد عودتي لأن ما يقترحونه عليَّ لا يتعدى إضافة سنة ليس إلا، لا عقداً متعدد السنوات... كما نبهني إلى أمر آخر، وهو أنني أستاذ أجنبي، لا فرنسي، ما لا يتيح لي العمل الدائم معهم، وأن هذا الوضع الاستثنائي - على قيمته - سيؤخر من دون شك من تقدمي المهني في جامعتي في لبنان. بينما لا تبالي والدتي بما سمعت من والدي: أنا مشتاقة إليك، حبيبي، لكن حالة لبنان لا تدعو إلى الطمأنينة... بلغ عدد النازحين السوريين المسجلين رسمياً أكثر من مليون لاجىء، مع مئات الآلاف من الفلسطينيين... ألا تعتقد بأننا بتنا أقلية في وطننا، خاصة وأن العائلة الواحدة منا، مثل عائلتنا، لا تنجب إلا الولد الواحد؟

أُسأل وأُسأل. قلّما أجيب. خرجتُ من البيت من دون وجهة محددة، فإذا بي أجدني في أسفل البناية التي يقع فيها مكتبي. كانت الساعة قد جاوزت السادسة بقليل. كانت المكاتب مضاءة، ما يَظهر من أسفل الأبواب. كنتُ أحتاج، لا إلى صديق، كما يقولون في اللعبة التلفزيونية الشهيرة، بل إلى تبين الأسباب التي لها أن توجه قراري في هذه الوجهة أو تلك. أأفكر في مستقبلي المهني، وأنا ما زلت في بداياته؟ أأنصاع لعلاقاتي النسائية، وهي غنية في ستراسبور، ومعدومة في لبنان؟ أأبقى أسيرَ التردد والتساؤل، كما في ستراسبور، أم أنحاز إلى ما يلزمني بأجوبة أكيدة، كما في لبنان؟

وضعتُ فوق ورقة أسباب البقاء وأسباب الرحيل، ثم وضعت في قائمة موازية الأسباب الشخصية والأسباب المهنية والأسباب العامة التي تسهِّل أو تعرقل هذا القرار أو ذاك. وجدتني كريستين

أمام الورقة، أفحصها مثل نقش قديم. ولما سألتني عن همي البادي على وجهي، أجبتُها: أنا أقرأ في قعر فنجان قهوة...

لم يكن مناسباً طرح هذه الأسئلة على كريستين، لكنني طرحت غيرها، ولا سيما السؤال الذي لازمني منذ أسبوعين على الأقل، لما توطدت علاقتي بها: ما الذي دعاكِ إلى اختيار الترجمة كاختصاص؟ إلا أنّ ما قالتْه ما كنت لأتوقعه أبداً: كنت أهوى اللغات، وافتكرت في كون الترجمة حاجة عالمية متزايدة، ولا سيما في ستراسبور نفسها... غير أن قناعتي زادت وترسخت لما تابعتُ محاضراتك هذا العام...

عمَّ تتحدث كريستين؟ أتريد ملاطفتي، وأنا بادي الهمّ؟ لم أعلق على ما قالت، بقيتُ محدقاً في وجهها، منتظراً ما يشفي سؤالي: أتعرف أن لك دوراً في حياتي لا يقل عن دور لوبيز نفسها... لعلك تعرف، من دون شك، أن ما تقوله أنتَ عن التداخل والالتباس بين الترجمان والمؤلف في شخصه، في عمله، لا يعدو كونه صيغة أخرى لتناول جديد، مفاجىء، لمسألة الترجمة، بوصفها مسألة في الهوية... لوبيز تتحدث عن التباس الذكوري والنسوي في جسد كل واحد منا، وأنت تتحدث عن التباس العلاقة الكتابية في الترجمة بين نقلها وتأليفها بالأحرى.

ثم تابعتْ بما لا أحسن قوله بنفسي: أتعرف أن خطاب الترجمة «الأمينة» يصدر عن خطاب الهوية الثابتة، إذ يتطلب وجود أصل فيما الآخر يبقى «دونياً» ولو أتى موافقاً؟ أتعرف أن الحديث عن «الخيانة» في الترجمة يشبه الحديث عن «الخيانة» في ما يطلبه الذكر من المرأة؟ الذكر حاكمٌ أبداً، أينما كان، وسلطتُه المتمادية تحتاج إلى تفكيك...

ما كانت تقوله كريستين مدهش فعلاً، لم يخطر أبداً على بالي.
كنت قد انقدتُ إلى هذا الموضوع، واقترحته عنواناً عاماً لمحاضراتي السنوية، من دون أن أتبين صلاته الخفية بمسائل تشغل الفلسفة والجنس والأخلاق وغيرها. ألا أكون، في ذلك، أتبين مرة أخرى أن ميول جسدي تقودني واقعاً، ومن حيث لا أدري؟ أتكون هذه شهوة الترجمان: ينقاد إليها، فلا يقودها، وتعرفه أكثر ممّا يعرفها؟

أنا قلم عند الحاجة؛ حاسوب في الغالب. في أي وقت. أعود إلى هاتفي النقال، إلى آلة تسجيله الخافية، إن احتجت إليها، وأُشغِّلُها طلباً للتلصُّص الكتابي. أنا أذن تُحسِن الإصغاء، إنْ راقَ لها ما تسمع. أنا لغة تدوِّن إن وجدت ما هو عذب أو مؤلم. أنا لغة قيد التأليف إنْ حلا لها، وإن لم تقصد. أنا أندسّ في ما يصلني، وأتمدد فيه، كما لو أنه طاولة أكلي، أو حبقتي.
هذا ما أكتبه علناً، هذا ما أقرّ به اليوم، إثر لقائي الكاشف بكريستين. هذا ما كان يعمل فيه ويقودني أحياناً من حيث لا أدري. هذا ما جعلني أندس تحت خيمة دانييلا، وخيمة البروفسور، وفي العتمة المنيرة بين سيقان كريستين... هذا ما جعلني أتلصص على فضيلة وهي تراقص الإيطالي الغريب، وعلى دانييلا وهي تسحق لذتها بين ساقيها...
أما آن لي أن أتبنى هذا النادل السري العامل في خدمتي من دون أي عقد أو كلفة؟ أن أخرجه إلى العيان. أن أُجلسه معي إلى طاولة العمل، إلى مساقط الحروف في الحاسوب؟ لماذا أكون متشدداً مع دانييلا إلى هذا الحدّ؟ لماذا أطلب محاسبتها، معاقبتها،

على كذبها المتمادي؟ أأريد أن أتزوجها لكي أكون حريصاً على معرفة سيرتها بالكامل، فلا تصيبني مفاجأة غير سارة ذات يوم؟ وماذا إن كانت كاذبة، أو كاذبة وصادقة بين بين؟ ألا يكون هذا مدعاة لحكاية ملغزة، ملتفّة على نفسها، ما أن تنبسط، تنغلق من جديد؟ ماذا لو كانت مثل الحية التي تأكل رأسها من فرط التواءاتها؟ ألا يتوجب عليّ، بدل إهانة فضيلة، أن أستدرجها إلى الكلام، إلى بسط ما خفي من علاقتها بين الطبخ والرقص، بين ماريو الأستاذ وماريو العشيق ربما؟ أليس حرياً بي أن أتمرس ببعض حيلة شهرزاد؟

هكذا أقبلتُ على النوم متصالحاً مع نفسي، مع عائلتي الجديدة التي تبناها والدها... أخيراً.

كانت فضيلة على الباب، وكنتُ بلباس النوم: هل يمكنني الدخول لدقائق قليلة؟

لم أكن في حال مناسبة لمباشرة أي كلام، خاصة وأنها أيقظتني، وهرعت إلى الباب خائفاً ممّا قد يحمله لمهاجر قرعُ الباب الصباحي. إلا أنها كانت مستعدة بالمقابل، مستعدة مثل المتباري قبل ثوانٍ قليلة على القفز فوق الحواجز. مستعدة منذ مكالمتي بالأمس. منذ ليلها الذي لم تنم فيه براحة أو هناءة. زادت مكالمتي ممّا كان يقلق أيامها، ويهددها بالأحرى.

كانت تشرع في كلامها، ثم لا تلبث أن تمتنع. كانت أكثر من مرتبكة. كانت خائفة ومتمزقة، إذ اختارت من بين جملها كلها هذه الجملة، لا غيرها: هل تفكر بي حين لا تراني؟

اقتربتُ من جسدها المشدود على أوجاعه، فدعتني بيدها من

دون كلام إلى العودة إلى الكنبة: هل تفكر بي حين لاَ تراني؟ لما أجبتُها بالإيجاب، طالبتني بأن أقولها كجملة تامة بصوتي، فوق شفاهي. ثم صمتتْ تماماً، وراحت تنظر في جهة غير معلومة عبر النافذة.

أنا أعتذر عما قلتُه لكِ بالأمس... لا أعرف كيف صدرتْ مني تلك الجملة القبيحة!؟ هي لم تكن تهمة أبداً، وإنما شكل قبيح من الاعتراف... الاعتراف بأنني مهمل، قاعد في مقعد الانتظار: قلتُ ذلك، جاعلاً رأسي ينخفض كما في لحظات التأنيب في المدرسة الابتدائية.

هاتفي الجوال نبهني إلى وجوب الاستيقاظ، فاليوم هو يوم الجمعة، يوم محاضرتي. حرتُ في ما عليّ فعله، لكنها أنقذتني من ورطتي لما علمتْ سبب بلبلتي، فقالت: لا بأس... هل تسمح لي بإعداد فطور الصباح لك فيما ترتدي ثيابك؟

قبلتُها على خدها لما خرجت من باب شقتي، كما يودِّع الزوج زوجته صباحاً، لما يذهب هو إلى عمله، وتنصرف هي إلى ترتيب البيت. صدف أن يوم عطلة فضيلة هو يوم عملي واقعاً.

لم أكن مستعجلاً إلى هذا الحدّ. كان أمامي ما يزيد على الساعة والنصف قبل إلقاء محاضرتي. كنت في مثل هذا الوقت أنتقل إلى «مقهى بروغلي»، قبل أن أعود منه إلى الجامعة. أخفيتُ عنها هذا الأمر، إذ تنبهتُ إلى كوني قد اقترفت ربما حماقة أخرى، حيث اعترفتُ لها بحبي لها، وإن في صيغة حيِيَّة. أأنا أحبها فعلاً؟

لم تكن كريستين قد وصلت بعد. أغلقتُ الباب بالمفتاح من الداخل، وجلست أنتظر أحداً من عائلتي الجديدة يخاطبني، ينصحني بما علي فعلُه. كنت وحدي فيما كانت تعصف بي رياح من

الكلام الذي لا يستقر على حال: أأحبها أم أريد ممارسة الجنس معها فقط؟ كيف أعرف الجواب عن هذا؟ سؤال فضيلة صحيح، وجوابي كان صحيحاً: أنا أفكر فيها كثيراً. هل هذا يعني أنني أحبها؟ هل أتشوق إلى مجامعتها جنسياً، وأنا لم يثرني شيء في جسدها سوى شفتيها الشهيتين؟ أأنا أهتاج عليها، ولا تصدر عني لها سوى حركات دالة على الحنان في المقام الأول؟

كنت حذراً في أسئلتي، بل في أجوبتي الضمنية. لماذا لا أطرح مثل هذه الأسئلة على دانييلا أو كريستين؟ ألأن فضيلة عربية مثلي؟ ألأنها أمٌّ، وفي وضع زوجيّ صعب؟ لا يحسن بي بالتالي إيذاءها، خاصة وأنها تتكلف اجتماعياً بالمجيء وحدها، من دون ابنتها، إلى شقتي. ماذا لو شاهدها أخ زوجها في صحبتي؟ ماذا لو أتى بالشرطة لكي يباغتها معي... ربما في وضع ملتبس؟

لم أصل بالطبع إلى أجوبة، لما فتحتُ باب شقتي: كانت فضيلة في انتظاري، ما ولدَ شعوراً غريباً... ما ارتفع فوق تعابير وجهينا. ضحكنا سوياً، لأننا فكرنا في الأمر عينه من دون شك. إلا أنني بدل أن أقبلها على خدها، أمسكت بها وقبلتها على شفتيها. لم تمانع، بل وجدتها تشدّ على ظهري بساعديها. أعملتُ لساني في فمها كما لو أنني أطلق قواي كلها فيها، فكان أن شاركتني بها. لكنني ما أن توجهتُ بها صوب غرفة النوم، أوقفتني ودعتني إلى تناول الطعام في المطبخ.

ماريو كان معلمي ومديري. كاد أن يعلمني كل شيء مما أعرف اليوم في حياتي.

كان وصولنا إلى روما مثلما نحلم بسقوط المطر في تطاوين.
الأمطار فيها قلما تقع، حتى في الشتاء القارس، أما ما حادثنا به ماريو وزوجته لوالدي وزوجي، ولي على ما سمعت من والدي ومن زوجي، فقد جرى بدقة وسرعة الطائرة التي أقلتنا من «مطار قرطاج الدولي» إلى مطار «ليوناردو دافنتشي». تدبرَ لنا ماريو بيتاً يقع في عالي البناية التي يقع فيها المطعم. واقتصر عملي في الشهور الأولى على أعمال أولية كنت أقوم بها، مع مساعدي ماريو من الطباخين: كان يقتصر عملي على إعداد المواد، من تقشير وقص وتوزيع وغيرها، ممّا يعالجه مساعد الطباخ بنفسه، قبل أن يضع ماريو لمساته الأخيرة، الأساسية عليه. أما مصطفى زوجي فكان عليه أن يذهب مع أحد العمال لشراء المواد، وكميات اللحم والأسماك، ثم يتكفل معه بإعداد الطاولات، ثم بالغسيل في المطبخ.

كان عملي بسيطاً، أنصرفُ بعد الانتهاء منه إلى مراقبة أعمال الآخرين الذي ينهون الطبخة الأساسية في لائحة طعام اليوم. مضت الأمور بسرعة... ما انقضى الشهر حتى دعاني ماريو إلى الذهاب معه في السيارة: أراني مقهى يريد تحويله إلى مطعم مختلط، إيطالي-تونسي... هكذا جرى نقلي من المطعم الأول إلى المطعم الثاني، فيما كان ماريو يتنقل بينهما، وتخلى لزوجته، في الأسابيع الأولى بعد الافتتاح، عن مهمة الإشراف على المطعم الأول... أما مصطفى فبقي في عمله.

فرحتُ بانتقالي إلى المطعم الثاني. كانت فرصتي في الكشف عن مواهبي. إلا أن ماريو راح يوجه لي الملاحظات أثناء طبخي، أو يعدل فيها، منبهاً إياي على لزوم إسقاط «الهريسة» الحارة من أي طبق تونسي كنت أعده، بل راح يعدل بعض الأطباق، حتى إنه راح يمسك

بيدي عند تقطيع قطعة لحم، شارحاً لي وجوب الانتباه إلى «الخطوط» في اللحم، أي إلى حيث يجب تقطيعها بالسكين المناسب. لم يكن الأمر هيناً، بل صعباً للغاية، إذ كان يقلب ما أعرفه، ويستخف بما أحسن عملانه. كان مصطفى يخفف من استيائي المتمادي... هذا ما بلغ ماريو نفسه إذ انفجرتُ بالبكاء ذات يوم، فكان أن سحبني من المطعم وقادني إلى دهليز ما كنت أعلم حتى بوجوده، إلى شقة خلفية، هي «جنته السرية»، كما أخبرني، بعد أن مسح دموعي بيديه، وجلب لي كأساً عذباً من عصير التفاح.

يومها، في تلك الجلسة، انعقد مصير حياتي: شرح لي ماريو ما كان يقوم به، وهو أنه يُعدُّني لكي أصبح معلمة مثله... لكن هذا يحتاج إلى مشوار طويل وصعب. ولما سألني عن رغبتي في ذلك، أجبته بهزة من رأسي. فتابع: هذا سيتطلب منك الكثير، وأن تغيري عاداتك في الطبخ... ثم أمسك بيدي، وقال لي: أترين يديك هاتين، يجب أن أعيد تربيتهما من جديد، لكي يحسنا بالليونة والعذوبة والطراوة معالجة ما ستقومين به لكي يصبح كل طبق تحفة فنية.

كنت أستمع خفيضة الرأس، فيما كانت تنبت لي أجنحة للطيران. كنتُ صامتة، ولكن مغتبطة بما سمعت، بما سأقدم على عملانه: ستكونين مطيعة، أليس كذلك يا فضيلة؟ أجبتُه بنعم. ستعتادين على تدريبي: تدريب من كل نوع: تدريب الأيدي، تدريب اللمسة، تدريب اللسان، تدريب الجسم حتى.

في اليوم التالي، بعد الخدمة، قادني ماريو إلى الشقة الخلفية، ثم وضعَ موسيقى راقصة. أوقفني أمامه، وراح يعلمني كيف تمسك أصابعي بأصابعه، كيف أضع يدي بيده. ثم أمسك بخصري وراح يميل به... كانت أكثر من نشوة. كان في ودي، لما كان يميل

بجسمي، ألا يعود به إلى حيث كان، ولا سيما إلى تلك الغرفة العالية التي كنا نصعد إليها على أقدامنا في الطابق الخامس، حيث كان مصطفى ينتظرني، هو الذي يحسب أموالنا مراراً وتكراراً، أو ينط عليّ من دون تمهيد.

لم أكن غبية. كنت من تطاوين. لم يُقبِّلني أحد قبل مصطفى، لكنني كنت أشعر وأدرك بأن ما أحس به يحس به ماريو. لم أكن غبية، كنت أدرك أن هذه الجنة السرية ستكون حديقتنا، لماريو وأنا. لساعة أو ساعتين بعد ظهر كل يوم، بعد أن أكون قد أنهيت تماريني. أكان يمرّنني على إعداد الأكل أم على إعداد مشاعري وأحاسيسي؟ لا أعرف. اختلطت الأمور، بين اليد التي تقشر البصل، والتي تمسك أو تقبض على ذراعي في الرقص... هذه اليد لم تقاوم على أي حال، لما لواها ماريو، لما أخذني بيدي، وأجلسني مثل عروس على الكنبة: راح يتحسَّس جسمي بيديه، من رأسي حتى قدمي، مروراً بحوضي. كان يلامسه، أو يشدُّ عليه. كان أقرب إلى نحات إيطالي، كما لو أنه يخلقني من جديد. كان جسدي بين يديه غير ما كان، غير ما كنت أعرفه.

ما كنت أُقبل عليه يوماً بعد يوم، ما عدا يوم الاثنين يوم الراحة، كنت أدرك أنه حرام، لكنني لم أذق مثله أبداً. ماريو جعلني امرأة. فكيف أُنكر ذلك؟ كيف أَشْتُم ذِكرَه؟

لم يكن في مقدور فضيلة حتى تقبيلي لما خرجتْ من الشقة، إذ كانت معه، لا معي. خرجتْ على عجل مع اقتراب موعد خروج أمينة من مدرستها.

لم أسجل كلام فضيلة على هاتفي النقال، مثلما فعلت في مرة سابقة. كتبته بعد خروجها، كما أصبحت معتاداً في حالات مماثلة. فكل ما يرد في ما أكتب عن غيري يرد إلى جانب ما أكتب عن نفسي وأحوالها. في هذه أو تلك أكتبه بنفسي، وإن كنت قد سمعته سماعاً من غيري. إلا أنني أتساءل هذا الصباح: كيف يحدث أنني أتخذ لسان امرأة، في الثالثة والعشرين من عمرها، أو في الثانية والأربعين؟ كيف ذلك، ولا فرق في أن تكون مثقفة أو أمية، تونسية أو ألمانية أو فرنسية؟ أيكون ذلك لأن في كل ما أكتب بعضاً مني، عملاً ربما بما قاله فلوبير عن رائعته مدام بوفاري: مدام بوفاري، هي أنا؟

ذلك أنني، إذ أكتب، لست مثل هاتفي النقال أدون وأنقل من حامل مادي إلى حامل آخر، هو الحاسوب في نهاية المطاف. أنا أستقبل بالطبع، أو أستحثه على الصدور، لكنني لا أكتفي بذلك، بل أتسلل إلى كلام غيري، أياً كان، سواء أكان مستلقياً فوق كنبة، أو ممدداً في عتمة سريره.

هل أنتظر قدوم فضيلة، اليوم، مثلما جرت العادة منذ أكثر من شهرين؟ هل أنتظرها من دون أمينة المسافرة في رحلة مدرسية؟ هل نتابع دروسنا الطبخية، وأنا لا أتقدم كثيراً فيها، وإن أصبحت قادراً على إعداد بعض الأطباق والسلطات؟ هل أتصل بها؟ أكان كلامها يوم أمس عن علاقتها بماريو ينهي علاقتي بها أم يفتحها على إمكانات جديدة؟ أليس في كشفها عن علاقتها المثيرة ما يدل على ثقتها بي؟ من دون شك، لكن المكاشفة هذه تعني الثقة، لا الشهوة، أليس كذلك؟

لم أقاوم رغبتي في الاتصال بها. أخبرتني بأنها في الطريق لإيصال أمينة إلى المدرسة لكي تلتحق بزملائها قبل انطلاق الموكب

المدرسي إلى المخيم الموعود، وأنها ستعاود الاتصال بي. لكنها بدل أن تتصل، وصلت إلى شقتي، وقد جلبت معها علبة حلوى أعدتها خصيصاً لي بطلب من أمينة نفسها: تريد ابنتها أن تشكرني على ما حصل لها في الصف، على نتائجها الباهرة...

لا تعرف مقدار فرحتي بما يحصل... لا تعرف مقدار اعتزازي بما جرى بيننا... ما زلت أذكر قدومي المرتبك إلى طاولتك في المطعم الجامعي... رفيقتي في المطبخ لم تشجعني، لم تصدق ما أقدمتُ عليه... أمينة بدورها نظرت إلي نظرة استغراب لما حادثتُها عنك... أنا كنت متأكدة من معاني الطيبة التي تترقرق في عينيك... هذه الطيبة أعرفها... إنها طيبة أهلي في تطاوين...

لم أحسن جواباً على ما تقول، إذ إنني أقبلتُ على تعليم ابنتها من دون تفكير أو تخطيط أكيدين. قبلت به بشيء من الخجل، من الإحسان ربما... قبلتُ به في غفلة مني من دون شك. كانت فضيلة تنتظر كلامي فيما كنت أتحقق من أنني قطعت معها، ومع ابنتها، شوطاً بعيداً. اقتربتْ مني، أخذت يدي اليمنى، قبلتها ثم عادت إلى كرسيها.

كان في حسابي استدراج فضيلة من جديد إلى سيرتها الخافية، إن لم تستكمل هي بنفسها ما انقطع من حبل الحكي في اليوم الفائت، أو «الفارط» كما يقول أهل تونس. إلا أنها كانت تود الحديث عني، والتعرف المزيد علي: على عائلتي، على إقامتي في ستراسبور... كانت تطرح عليَّ أسئلة مثل هذه: هل أنت مهاجر أم أستاذ بعقد مؤقت؟ متى ينتهي عقدك؟ ما تنوي عملانه بعد نهاية عقدك؟ لماذا لم تتزوج؟ لماذا لا تتزوج؟ أتريدها لبنانية، أم عربية، أم فرنسية؟

فجأة عادت إلى تطاوين، قبل أن تهاجر إلى روما، قبل أن تحط في ستراسبور. فجأة باتت واقفة في الصف الطويل لتحصيل تأشيرة السفر أو الإقامة. فجأة عادت إلى حيث تقودها وقائع أيامها، لا أجنحة أحلامها أو رغبتها. لم أكن أحسن مجاراتها في ما تطرحه من أسئلة. لم يكن لي همٌّ أو شواغل مثل التي تنغص عليها حياتها. كنت لا أحسن اتخاذ قرار حول بقائي أو رحيلي، في الوقت الذي ينتظرني فيه عقد عمل هنا، وعقد عمل هناك. فيما كانت فضيلة لا تقوى بعدُ على الفكاك من الخيط البعيد، ولكن المتين، الذي يربطها بمصطفى، بروما وبتطاوين: لماذا لا ينجح تطليقك منه؟ أتريدين أن أربطك بمحامي قدير، هو محامي صديقتي فيرا؟

لا تقوى على الفكاك منه أخلاقياً، هي ابنة تطاوين:

لقد خنتُه، يا أستاذ. هو عرف ذلك... كشفه من حيث لم يقصد. كان يقف أمام الباب المؤدي إلى الدهليز الداخلي. كان ينتظر وصول ماريو، فإذا به يقع عليَّ خارجة من الدهليز... لم يقلْ شيئاً. صعدَ فوق درجات الدهليز الخشبي، ووجد ماريو عارياً مستلقياً فوق الكنبة. أقفلَ الباب وراء ماريو، لكنه لم يجدني حيث تركني.

وجدني أنتظره في البيت. كنت أبكي قبل أن يصل إليه، وبعد أن وصل إليه. لم يكلمني، نزع عني ثيابي، من دون أن ينزع ثيابه. أخرج عضوه فقط من فتحة بنطلونه، وراح يلاعبه بقوة من دون أن ينظر إلى وجهي أو جسمي، فيما أنا ممددة تحته، أنظر إليه برعب، من دون أن أقوم بأي حركة. ما أن قذف منيه فوق جسمي، أمسك بثوبي، مسح به عضوه، ورماه فوقي.

ما عدت أخرج من البيت، من دون أن يطلب مصطفى مني ذلك. أنهى عملي وعمله عند ماريو وزوجته. حصَّل منه مبلغاً من

المال، لا أعرف مقداره. لم يقترب مني بعد ذلك اليوم، لم يكن يحادثني. كان يريد التخلص مني... كان يريد التحكم بي... تدبرَ مصطفى عملاً جديداً في قسم جمع النفايات التابع للدائرة البلدية التي كنا نقيم فيها بروما... إلى اليوم الذي سألني فيه: متى تكونين في فترة خصوبتك؟ لما أجبتُه، مارس معي الجنس في الليلة التي عيّنتها له، ثم في صبيحة اليوم التالي. كنا قد تفادينا، بقرار مشترك، باقتراح منه بالأحرى، إنجاب أي طفل بعد وصولنا إلى روما، ذلك أن وقوعي حبلى سيمنعنا من تحصيل المال، ومن العمل الذي أتينا بموجبه من تطاوين إلى روما.

كانت تتحدث من دون أن يفارق وجهها وجهي. لم تكن متألمة تماماً مما تروي. ربما لأنها أعادت هذا الجزء من حياتها مراراً وتكراراً في سرها، بينها وبين نفسها. ربما لأنها كانت قد انتقلت منذ سنوات، منذ سنوات بعيدة، من قعدة المذنبة المحكوم عليها بالبقاء، بالصمت، في وحشة الغرفة الوحيدة. انتقلت إلى حيث تقف اليوم، أو تجلس، من دون حرج، من دون ذنب استلحاقي. وما لم تقله، عادت وقالته:

كان يخرج إلى العمل، ويقفل باب الغرفة وراءه. كان يخشى خروجي من الغرفة، من اللحاق بماريو... بقيت الحال على هذه الصورة إلى أن باغتني ذات يوم، وقال لي: لا أعرف لماذا أردتُ هذه البنت... هي ابنتي، لكنني لا أشعر تجاهها بأي شعور... يمكنكِ الرحيل معها، أينما تشائين، ما عدا مكانين: لا تعودي إلى تطاوين، ولا تبقَيْ في روما... كنت أظن طبعاً أن قرار الطلاق هو نتيجة ما توصل إليهْ، فيما أخبرني لما فاتحتُه بالأمر بأن عدم تطليقه لي سيكون عقوبتي الأبدية.

كانت تحادثني كما لو أنها تودعني. تشكرني، وتشكرني: لم تكن مضطراً للقيام بكل ما قمتَ به...

لم أكن مضطراً، إلا أنّ في ما عشته معها ما جعلني أتبين مقادير الجمود في حياتي، في خياراتي، في أصابعي حتى. جلت في حياتها، لكنني لم أقوَ مثلها على التمرس المتقن بالطبخ، ولا على مجاراتها في الرقص، في ما لم تكن قد شاهدته ولو مرة واحدة في تطاوين.

اقتربتُ منها، أكاد أمارس الجنس معها، ما لن يتأخر في الحصول من دون شك، لكن عالَماً يقوم بيني وبينها، ما لا تقوى الرغبة على ردمه. لعلّ الرغبة بأجنحتها الواسعة تنقلنا إلى حيث تشاء، لكنها، إذ تحطّ بنا، تعيدنا إلى حيث كنا: أعادت ماريو إلى مطبخه من دون مشروعه التونسي، وأعادت فضيلة مع ابنتها إلى العمل مستورة ومختفية تقريباً في دهليز يصل درجات الجهة الخلفية من مطعم ماريو بجلسة العائلة في تطاوين وبخلفية المطعم الجامعي في ستراسبور... حتى بيتها، مع ابنتها، يكاد يكون مقراً سرياً لهما... لهذا فإن جلوسها معي، في شقتي، خروج استثنائي، لا يمكن حسبانه إلا في الحكاية، إلا فوق أجنحة الرغبة إذ تطير بك، فيكون لك أن تلتقي، وأنت في الهواء، بغيرك ممّن تخلص بدوره من عوالق الأرض.

أخرجتْني فضيلة من شرودي، ربَتتْ على كتفي، فيما كانت قد وضعت كتفها على صدري، على عادتها السابقة: ماذا هل تخليتَ عن دعوتي إلى مارلنهايم؟

في الطريق إليها، ما كان هاتفي يتوانى عن الرنين: تلفونات يوم السبت الاعتيادية: أهلي و... دانييلا بالطبع. لم أجبْ على أي

منها، مكتفياً بمتعة الجلوس مع فضيلة في سيارة أجرة، جنباً إلى جنب، ويداً بيد. عند الوصول إلى المدينة، هاتفتُ فيرا. كانت في بيتها. وعدتها بالمرور عليها بعد الظهر.

تدبر مدير الفندق-المطعم طاولة لنا. استأذنتُه في التجوال في نواحي المكان. في غرف الفندق، ولا سيما في مطبخه. لم يتأخر عن محادثتنا عن خياراته في الطبخ، في السكن، في تلبية طلبات الزبائن المتعددة والمختلفة: اختلف زبون اليوم عن زبون الأمس... زبون اليوم يعرف كثيراً من أنواع المآدب وأصناف الأطباق... يسافر كثيراً، لا يرضيه القليل... لا يمكن حجزه في مكان بعينه، في خيارات جامدة... هكذا أعرض لزبائني منتخبات من مآدب مختلفة، بين فرنسي وياباني وإيطالي وغيرها... تصوروا أن اثنين من زبائني الخليجيين طالبوني قبل أكثر من شهر بأطباق مغربية!

مرَّ صاحب المطعم بطاولتنا عند تناولنا فنجان القهوة مستفسراً عمّا قدمه لنا. فكان أن شكرتُه وأخبرته بأنني استحسنت الطبقين، ما لم يحصل لي ليلة عرس فيرا، لكن فضيلة أوقفته لما كان يستعد لترك طاولتنا، فأبدت ملاحظات لا أحسن تكرارها على طبق «الأوسوبوكو». استوقفها المعلم بعد أن اتخذ مقعداً معنا: من أين تعرفين ذلك؟... كم هو عدد السنوات التي أمضيتِها في تعلم هذه الأطباق؟.. أكنتِ مساعدة معلم في الطبخ؟... أأنت مغربية؟...

كان اللقاء بفيرا مشرقاً مثل ذلك النهار. كانت تمضي عطلة نهاية الأسبوع في بيت والدها، مع زوجتها، التي نسيت اسمها. لم تبدُ عليها أي دهشة لما رأتني مع سيدة لا تعرفها. لم تسألني عن كريستين بالمقابل. أمضينا معاً ما يقرب من الساعة في أحاديث

متفرقة، ولا سيما عن والدها. أخبرتُها عن سفري القريب إلى لبنان، وعن إمكان جلب معلومات منه ما يضيء عتمة سيرة الوالد. باتت تعتاد على المجيء إلى بيته، الذي لم يفارقه أبداً بعد انفصاله عن أمها. باتت تعتاد خصوصاً على الجلوس في الحديقة أمامه، والتفكُّر في سيرة الأشجار العالية فيه: هي بقيت منه بدورها.

لن أفاتح فضيلة حول سيرتها بعد اليوم، إذ بادرت هي بنفسها إلى رواية الجزء المؤلم منها، بل المهين لها: مقيدة حتى اليوم، على الرغم من عيشها خارج تطاوين وروما، وفي شقة تدفع إيجارها الشهري، ومعها ابنتها الوحيدة التي تركض ركضاً في سنوات العمر والتقدم. لن أفاتحها، لأنني معني أكثر بحاضري، بعلاقتي بها، إذ رفضتْ تماماً فكرة تمضية الليلة معاً في فندق مارلنهايم، كما رفضتْ تمضيتها إلى جانبي في شقتي.

في اليوم التالي، لما وجدتُها تأخرت عن المجيء حسبما وعدتني، اتصلتُ بها، وإذا بها تقول لي: أنا مريضة... لا، أنا متعبة... لا، أنا أحتاج إلى وقت لكي أفكر في ما يحصل لي... أرجوك، تفهَّمني، أنا منجذبة إليك... أنا لم أمارس الجنس مع أحد منذ سنوات بعيدة... هذا ما يثيرني. هذا ما يخيفني. أتفهمني؟

كان اليوم أحد، ولا شيء أقوم به.

رتبتُ بعض المواد الحكائية ممّا سمعته من فضيلة. وجلست فجأة من دون أن يكون لي عمل أعمله. هذا قلما يحصل لي. لا أعرف الضجر... هذا ما أردده أمام والديَّ، اللذين يتعجبان دوماً من قولي هذا.

اتصلتُ بوالدي وأخبرته عن قراري بخصوص سنتي الجامعية المقبلة: لم يعترض على ما قلتُه له.

اتصلتُ بدانييلا وأخبرتها بأنني متأسف لتأخري على الاتصال بها، بسبب انشغالاتي الكثيرة، خصوصاً قبل عودتي إلى لبنان: يجب أن نلتقي... هذا غير ممكن... أتسافر من دون أن تودعني؟... حتى جدتي تسأل عنك، وتتشوق لمحادثتك...

اتصلت بفضيلة من جديد. ثابتة في موقفها المتردد: أنا أشتهيكَ بدوري. ألم تلاحظ؟ ألم تشعر بذلك؟ لكنه لا يسعني النوم مع أحدهم في الليل فقط، بل في وضح النهار كذلك... ولما لم أفهم تماماً مقصدها، أجابتني: لا يسعني الارتباط من دون أن تكون ابنتي أمينة على معرفة بذلك... ما عدتُ أحب الصعود في السلالم الخشبية الخلفية...

أهي تفترق عني؟

باتت عودتي إلى لبنان قريبة بأي حال، لا للتهرب النهائي من دانييلا، بل لأن اجتماعات لجان التحكيم تسارعت في هذه الأيام الأخيرة من شهر مايو. فجأة شعرتُ في هذه اللجان بمثل شعور فضيلة. شعرت بأنني أصبحت والداً، ولأكثر من طفل، لما وجدتُ في تقارير طلبتي بعضاً مما دَرَّستُ، مما أثرتُ في عقول بعضهم المتوقدة. لم تكن تقاريرهم متصلة بـ«ألف ليلة وليلة»، بل بمشروعات ترجمة ينتهون منها أو يتقدمون فيها، لتحصيل شهادة الماجستير. مشروعات في ترجمة روايات خصوصاً، وما يظهر فيها من صعوبات ترجمة موصولة بالسياق، بالثقافة، قبل اللغة نفسها. كانت مناقشات تقنية في الغالب، حول تقدم العمل، حول صحة أو

ضعف أو رداءة هذا اللفظ، أو ارتباك العبارة في هذه الجملة أو تلك، فيما كانت تَظهر، خصوصاً عند من أنهوا رسالاتهم الجامعية، مشاكل نظرية تتعلق بما أسميه: «سياسات الترجمة»، أي كيفيات عمل المترجمين وتدابيرهم في معالجة ترجماتهم. ذلك أن تدابيرهم خافية في الغالب، ويعمل دارس الترجمة على استخراجها من متن الترجمة، إذ قلما يعمل المترجمون على عرض، أو شرح، ما يقومون به: إنها أسرار خافية في الترجمة، وقد لا تكون ثابتة أو متَّبعة هي نفسها من مقطع إلى آخر، ولا سيما عند مَن لم يتمرسوا طويلاً في الترجمة، أو مَن لم تكن لهم فيها، أو بعدُ، خيارات جلية، متبلورة، وسياسات متسقة.

كتاب ألف ليلة وليلة ينقفل، وتتوقف شهرزاد عن قولها المباح.

توقفتْ بعد أن أقفلت حكاياتها، فيما لم أقفل حكاياتي بعد. هناك ما يبقى معلقاً ومكتوماً وسرياً في سيرة البروفسور الغائب... هناك نقاط معتمة في سيرة كريستين، وبيني وبينها... هناك ما بقي خافياً في خطوات فضيلة بين روما وستراسبور، وبينها وبين تطاوين، وبينها وبين زوجها، وهناك الاشتهاء الصريح والمختزن بيني وبينها... هناك ما بقي من سر، بل من لغز في ما يخص حياة دانييلا نفسها، وقد اندثر تماماً أي انجذاب جنسي مني إليها... هي تسكت، لا أنا، إذ إن حياتي هي التي تجري معي وأمامي أحياناً.

شهرزاد تسكت في الليلة الأخيرة. تسكت نهائياً من دون أن تَظهر في أي عمل لاحق، حكائي أو غيره. فهل هي حالي؟

لم تكن دانييلا تدرك أنني أضع أقدامي للمرة الثانية، لا الأولى، في محطة فرانكفورت الدولية للقطارات. لا تزال الأعمدة المعدنية ترتفع لتسند قبتها العالية، في أشغال الترميم والتحسينات؛ ومقهى «بيسترو» قابعٌ في مكانه، وغرفة المحفوظات والودائع على حالها، في الجهة اليسرى في بهو الخروج أو الاستقبال.

قفزتْ دانييلا على عنقي، على الرغم من أنها أطول مني قامة. قفزت لما وصلت إليها، فيما كانت تتقافز ما أن وقعتْ على وجهي في صف المسافرين القادمين من أوفنبور، بعد ستراسبور، وهي تعلو بيديها صوبي.

فعلاً كانت جدتُها تنتظرني بكلماتها الفرنسية المحدودة، التي حفظتها من جراء اختلاطها ببعض الفرنسيين والفرنسيات أيام الاحتلال النازي لفرنسا. كانت عيناها تضيئان بنور ما كنت أعلم مصدره، لما كنت أتوجه إليها بالكلام، أو لما ساعدتها على القيام من مقعدها: كانت تصر على تعريفي ببيتها، البيت الذي احتفظت به من أهلها. كان يبدو عليها أنها مرتاحة لعلاقة دانييلا بي. وضعت دانييلا حقيبتي في غرفتها من دون سؤالي. واستأذنت جدتها بأن عليها أن تدعوني لزيارة معرض على الضفة الأخرى من النهر.

كانت الشمس مشرقة على غير عادتها، في هذه الأيام الربيعية، التي لم يتوانَ المطر عن التساقط فيها خاصة بعد أيام عيد الفصح مباشرة. كانوا يستلقون على ضفتي النهر، كما لو أنهم على شاطىء البحر، فيما أحكم كل واحد منهم آلة الاستماع الموسيقي على أذنيه، أو انصرف إلى معالجات إلكترونية فوق هاتفه النقال. كنت أتنقل معها، فتمتنع عن الإمساك بيدي، مثلما كانت عادتها. وهو

أول ما لفت نظري، مثلما استوقفني شيء من التحفظ في سلوكها.
أهذا لأننا في مدينتها؟

لم أكن متحمساً لرؤية أي معرض، مثلما اقترحت عليّ: معرض اكتشافات مثيرة في أفريقيا لجامعة غوته في فرانكفورت... الفن على ضفة فيها، والمال على الضفة الأخرى.

كنتُ أريد التمشي، والتلهي، بعد شهور وشهور من العمل الذي بتُّ أحتاج إلى رؤية أيام عطلته القريبة والمديدة. وجدتُ المدينة تعيش وفق إيقاع طقسها في اليوم الأول من عطلة نهاية الأسبوع، فيما وجد الأطفال فرصة لإخراج أدواتهم أو آلاتهم الميكانيكية إلى العلن، للتمرس بها، ولتدريب أنفسهم على أنهم باتوا كباراً قبل الميعاد المضروب. طلبتُ من دانييلا الجلوس على العشب، بل تمددتُ، بعد أن أقفلتُ خط هاتفي.

نقلتُ نومي إلى غرفتها، بعد الغداء. تركتني أستلقي وحدي في سريرها. لما استيقظتُ، وجدتُ دانييلا تكتب فوق طاولتها الصغيرة على مقربة من النافذة التي تفضي على الشارع العريض. بقيت متمدداً من دون رغبة في القيام. تقدمتْ مني، قبلتني على عجل، ودفعتْ صوبي ببضعة أوراق مكتوبة بالفرنسية:

دخلتْ إلى المقهى، اتخذتْ مقعداً خلفياً فيه، ثم ما لبثت أن خرجت منه، من دون أن تعلم ما إذا انتبهوا إلى وجودها بين زبائن المقهى، ومن دون أن تتبين تعابير وجوههم، لا هم ولا النادل نفسه.

توقفتْ أمام محل لبيع الملبوسات، وجدت نفسها تسترق النظر إلى واجهة أخرى تعرض لباسات داخلية للنساء.

حتى وجودها في مقهى «تاليا» القريب بدا نافراً، هو الآخر، فكيف إن جلستْ في مقهى آخر، أو تفرجتْ على فيلم في مجمع السينمات القريب (...).

لم تكن تقوى تماماً على رفع نظرها عن بلاطات الشارع، كما لو أنها تتجه إلى كرسي الاعتراف، صاغرة وكتومة. وإذا ما رفعت نظرها إلى أعلى، إلى مستوى العابرين والعابرات، فقد كانت تظن أنها ستفحصهم وتسبر أغوارهم: ما يقع تحت ثيابهم، وخلف عيونهم، وفي ثنايا أدمغتهم.

عادت على عجل، من دون أن تسمع الكلمات التي استقبلتْها على المدخل، في غرفة الاستعلامات. اتجهت إلى غرفتها، وقد شعرت بدفق مقبل يتمدد في شرايينها، في عينيها.

تأخرتْ في الاستيقاظ، لم تسمع حتى قرع الجرس. قفزت من فراشها إثر القرع العنيف على باب غرفتها: ما لكِ؟! أأنتِ مريضة؟

أمضتْ ساعات وساعات في الفراش، وقد جلبوا لها فطور الصباح. تنعمتْ بالتمدد، بالبقاء من دون عمل، من دون مهمة أو واجب. لمرة لم تكن مثل المجندة، أو الموظفة... كانت امرأة وحسب، تتباطأ وحسب في فراشها، بل تلتذ في ارتخائها الناعم، بعد أن تنبّهت إلى أنها لم تلبس سروالها الداخلي، ولا صدّاريتها قبل النوم.

هكذا اعتادت منذ بعض الوقت: كانت تنام بعباءة بيضاء سميكة، ما جعل أطراف جسدها تتحسس ملامسة القماش القطني

السميك. تنبهتْ إلى أن حلمتي ثدييها تتوتران، تنتصبان؛ بل شعرت أن ثدييها باتا أكثر اشتداداً واستدارة مثل ثمرة نضجت فوق غصنها.

راحت تتحسسه... تتحسس ذلك المجهول الذي تسكنه، فيما باتت هذا الصباح تتملكه، بل ترووده وتلامسه مثل شريك.

باتت، هي معه، مجتمعة، مثل شفة تقترب من شفتها الأخرى. ماذا عن هذا اللعاب المندلق؟ أهو عصير الثمرة المتفجرة من فرط اكتنازها ونضجها؟

باتت لها حديقة خلفية، تتجول فيها ما حلا لها، حين يُتاح لها الانفراد بجسدها، خاصة حين راحت ترفع الغطاء الأبيض فوق رأسها مثل خيمة، في خلوة عابقة برائحتها وحدها (...).

تهرب من المستشفى إلى الممر الخاص بالفندق. تنظر إلى الزبائن، إلى المطعم، إلى واجهات محلات الأزياء النسائية... إلى المنفذ الآخر حيث تمر السيارات والبشر والترام.

دعاها نادل المطعم إلى الدخول، بعد أن رآها غير مرة تتوقف أمام النافذة، ما استدعى عجبها. كانت تتحجج بمصاحبة المسنات، بمرافقتهن إلى سيارات الأجرة في الخارج لكي «تبصبص» قليلاً.

كانت تحلم بالصعود إلى إحدى غرف الفندق، والبقاء فيها وحيدة، فقد زارت إحداها إذ قادت إليها - بناء لإذن خاص من رئيسة الدير - إحدى السيدات (...).

جسمي اثنان، منقسمان، ملتقيان، متضامان: من أخمص القدمين حتى مستوى العينين والأذنين.

لو وضعتُ خطاً خفياً بين القدمين ليعبر جسمي من أدناه إلى أعلاه، وصولاً إلى الأنف، لتأكدتُ من أنني اثنان في واحد:

جسمي قسمان متساويان، حيث الواحد يمارس الجنس مع الآخر (. . .).

تجلس في مقهى بعد الخروج من القطار، فيما تروح وتجيء أمام عينيها، من وراء الزجاج، حقائب صغيرة، كراجة، فيما عليها أن تعود، إذ لا تخرج أساساً إلا في النادر. هل سيعاكسها أحدهم، وقد عمدت قبل النزول من القطار، إلى نزع قبعتها المخصوصة عن رأسها، ووضعتها في كيسها؟ ماذا لو أبقت على قبعتها؟ ماذا كان زبائن المقهى سيقولون؟ (. . .).

اليوم، بعد النزول من القطار، دخلتْ إلى ماكينة تصوير الوجه السريعة: نزعتْ قبعتها، وأطلقت ابتسامتها. ثم وضعت القبعة من جديد، وراحت تنتظر خروج صورتها. راحت تتنقل فوق بلاطات رصيف المحطة فيما كانت تنظر إلى وجهها في صورتها من دون القبعة. هذا ما فعلتْه لما دخلت إلى المرحاض في القطار، من دون قبعتها. عادت من جديد إلى المقهى فما عرفها النادل، وقد أبرزت شعرها القصير. . . كانت تنظر إلى حقائب بمختلف الألوان والأحجام وهي تعبر من أمام عينيها، فيما كانت تحمل كيساً وحسب أخفتْ فيه قبعتها وأغراضاً خاصة (. . .).

كانت دانييلا قد توقفتْ عن الكتابة، خرجت من الغرفة أساساً، ما أتاح لي فرصة قراءة ما في هذه الأوراق. اعترافات يومية، متقطعة، للراهبة، وهي في ديرها، أو خارجه. اعترافات بما عاشته في عتمة سريرها، أو في محاولات التعرف على هيئتها من دون

قبعتها. أهذا ما عاشته دانييلا، وكتبته؟ أهذا ما وعدتني به منذ وقت؟ ألا تكون مكتبة «تاليا» هي التي تعرفت عليها، وجلست فيها، قرب الفندق في فيينا؟ أصحيحٌ شعوري بأن ما تتحدث عنه من أمكنة، مثل مجمع السينمات والفندق والجرس والمصح والدير، لا تعدو كونها الدير ومصح الراهبات والفندق وغيرها من العلامات الدالة على إقامتنا في العاصمة النمساوية؟ أهذا ما يفسر، اليوم، ارتباكها بالأمس مع هذا أو ذاك، ولا سيما في المطعم الملاصق بالفندق؟ أهذا ما يفسر تمنعها من الدخول إلى المصح أو إلى الكنيسة اللصيقة بالدير؟

أكتبتْ دانييلا عن هذه المواقع بعد أن عاشت فيها أم بعد أن زرناها معاً؟

كيف يحدث أنها كتبت هذه الأوراق بهذه اللغة الفرنسية العالية؟

توجهتُ بنفسي، بأسئلتي، إلى دانييلا التي كانت تساعد جدتها في المطبخ في إعداد العشاء: جدتي تصر على أن تطبخ لك بنفسها... كانت فرحة، خفيفة، ما يناسب حركة جسمها الناحل. دعتني إلى تناول كأس من الويسكي في الصالون قبل التحاقها بي.

لم أصبّ أي كأس، بل عدت أقرأ من جديد، وبشكل متفرق، الأوراق القليلة، وقد بتُّ مشككاً في كل ما تقوله دانييلا. أهي آخر كذباتها؟ أهي آخر توهماتها أو تخيلاتها السردية؟ أهي تنسج حكاية جديدة لها؟ أكانت راهبة حقاً؟ وإن لم تكن، لماذا تريد أن تتلبس رداء الراهبة لكي تنزعه عنها بهذه القوة؟ إذ إن في سيرتها، لو كانت راهبة، ما يخدش إيماني، وصورة الراهبة المنزهة في بيتنا، في بيئتنا، التي لم تعرف أبداً مثل هذا الخروج من الدير، ومثل هذه الحياة المتهتكة خارجه...

بلى، هذا أنا. هذا وجهي الحقيقي. آن لوجعي أن يظهر...

ها أنا أكتبه: دانييلا هي التي بادرتني إلى مثل هذه الأقوال، كما لو أنها تجيب سلفاً عما كان يعتمل في سري. لما سألتها عن هذه اللغة الأدبية، بل العالية، والفرنسية الدقيقة، التي كُتبت بها هذه الأوراق، أجابتني بتلقائية، مثل من استعدَّ مسبقاً وتوقع مثل هذا السؤال: يساعدني صديق فرنسي، مترجم مثلك، يعمل في إحدى دور النشر الألمانية... التقيتُه منذ شهور قليلة في محاضرة حول «حقوق الراهبات»... اقترحَ عليَّ في لقاء تالٍ، بعد أن أخبرته بحقيقة أمري، أن يكتب سيرتي... أنا أروي عليه، وهو يعيد الصياغة. طلبتُ منه، في تجربة أولى، أن يكتب اعترافاتي بلغة الضمير الغائب، لكي أقوى بعد وقت من اتخاذ قراري بخصوص النشر.

كان في ودي أن أسألها ما إذا كانت قد أدخلته إلى خيمتها، وعرَّتْه قبل أن تتلفظ بأسرارها الفظيعة... كان في ودي، لولا أنني وجدت سياق المحاورة لا يتيح لي طرح هذا السؤال، فأعدتُه إلى حلقي أكثر من مرة في محادثتنا، خاصة بعد أن التحقت بنا جدتها.

ما لم أطرحه عليها في الصالون، طرحتُه عليها مباشرة في غرفتها، لما اقتدتُها بنفسي، ورحت أتعرى أمامها من ثيابي. تعرت هي بدورها، من دون سؤال. ولما حاولتْ تقبيلي، أوقفتُها، ورفعتْ الغطاء فوق رأسينا:

بلى هي سيرتي، سيرتي الخافية، التي بتُّ مستعدة اليوم للكشف عنها... لم أعد قادرة على إخفاء جرحي العميق. أيجب أن أعيش دوماً تحت طائلة العقوبة الدائمة؟ أيجب أن أخجل دوماً ممّا فعلت؟ أيجب أن أعاقب نفسي من حيث لا أدري على ما قمت... بلى، عشت في الدير في برلين، وأرسلني والدي إلى دير درْمشتاد، بعد أن

اهتزت قناعاتي بالبقاء في الدير... كان والدي يعرف رئيسة الدير: طالبَها بالسماح لي للالتحاق بهن في الدير، لبعض الوقت، لفحص ضميري في الدير الهادىء، لاتخاذ قراري النهائي بخلع نذوري أم بالاحتفاظ بها... بلى، أعرف مصحّ القديسة إليزابيت، والفندق الذي أقمنا به في فيينا... بلى، انحرفتُ عن طريقي الرهباني لما كنتُ فيها. كانت إدارة الدير في برلين قد أرسلتني إلى مستشفى القديسة إليزابيت في فيينا للإفادة من تجربتها في إدارة مصالح العموم، ولا سيما السيدات المسنات. كانت رئيسة الدير قد لاحظت بعض الأسئلة المفاجئة مني: لماذا لا يحق للراهب الزواج مثل الكاهن، مثل والدي؟ لماذا لا يحق للراهبة ترؤس الذبيحة الإلهية مثل أي كاهن، فيما يحق لها ترؤس دير راهبات بكامله؟... كانت تريد الإفادة من دراستي، قبل الدير، للرعاية الاجتماعية وتوظيفها في ما يمكن لديرنا أن يقوم به من مشروعات اجتماعية. كما شجعتني على رحلتي بعد أن قالت لي: هناك راهبة متمكنة من المسائل اللاهوتية والدينية، هي تقوى على مناقشتك في ما تطرحين من أسئلة. فقد كانت رئيسة الدير رئيسة وحسب، تُوجِّهنا وترعى حياتنا، من دون أن تكون لها ثقافة قديرة في شؤوننا... لكن فيينا جلبت ما لم أكن أتوقعه، ما لم يكن يخطر حتى على بالي، وهو اللقاء برجل، اللقاء الحميمي برجل.

أصابني أثناء إقامتي في الدير، التي كانت مقررة لثلاثة شهور، وجع مبرح في أسناني. أخذتني إحدى الراهبات إلى عيادة طبيب أسنان يتعاملون معه، ثم نصحني هذا بطبيب آخر ... وهو ما كان. رافقتني الراهبة في زيارتي الثانية، ثم دعوتها إلى تركي وحدي من دون مساعدة، طالما أن الأمر طبي خالص، ويحتاج إلى زيارات

عديدة. وهو ما كان. كان يتطلب الأمر مني نزع قبعتي بالطبع، قبل مباشرة المعالجة. وهو ما أقوم به وحدي...

في الزيارة الثالثة طلب طبيب الأسنان من مساعدته الإدارية الذهاب إلى دروسها المسائية في كلية طب الأسنان، إذ كنتُ المريضة الأخيرة في جدول مواعيده. كان في الخمسين من عمره، على ما قدرت، وعلى قدر من الوسامة. قام بإجراء عدة صور لزوايا مختلفة من فكي، وكان في كل لقطة تصوير يلامس خدي بنعومة لم تخفَ علي. لم أجد في ذلك ما يدعو إلى الريبة. ما أن انتهى من التقاط الصور، اقترب مني، وقال لي: أفي إمكاني تصوير هذا الوجه الجميل؟ ولما أبديتُ دهشتي ممّا يقول، أجابني: وجهك جميل للغاية... كيف تخفينه وراء هذه القبعة؟ ابتسمتُ بدوري، فيما كان يساعدني على النهوض من الكرسي الميكانيكي. ولما كنت قد وضعت قبعتي من جديد على رأسي، مدَّ صوبي فرشاة أسنان أخرجَها من درج خاص في مكتبه: إنها لك... احتفظي بها لتنظيف أسنانك، بعد الانتهاء من عملي، أو في ديرك.

في الطريق إلى الدير، في الباص، استعدتُ ما حدث ببطء شديد: كيف يحدث أن أحدهم يتغزل بجمال وجهي؟ هل كان يقول ذلك بتلقائية؟ ماذا عن ملامسته لخديَّ؟ أكان يحتاج التصوير في زوايا مختلفة من فكي كل هذه الملامسات الناعمة والمتباطئة فوق جلدة وجهي؟ في الليل استيقظتُ مرتعبة ممّا عبر أحلامي، بل كابوسي: وجدتني ممددة على الكرسي الميكانيكي، الذي استحال بقدرة قادر إلى سرير، فيما كان الطبيب يدس يده تحت عباءتي...

في الزيارة التي تلت، خدرني عدة مرات في فمي للبدء بعملية نزع العصب في أول أسناني المهترئة. لما أنهى عمله، وجدتني

خائرة القوى إذ نهضتُ من الكرسي الميكانيكي... أسعفني وأجلسني إلى كرسي، ودعاني إلى الهدوء. كنت منزوعة الرأس بالطبع، فيما كان يتحسس شعري، ويداعبه أحياناً بخصلاته القصيرة. هذا ما فعل، أو ما ظننت أنه يفعل، إذ إنني ما كنت أشعر برأسي بالكامل. كنت أشعر بأن شفاهي منتفخة... هل كان يتحسس شفاهي بيده اليمنى أم أنه كان يمسح فمي بالمحرمة البيضاء الواسعة؟ فجأة شعرت بأن التخدير تمدد في بقية جسمي: هل حصل ذلك فعلاً؟ هل زاد من قوة المادة المخدِّرة أم كنت أنحدر في منزلق خفي؟ لا أعرف... ما عرفتُ هو أنني وجدت نفسي مستلقية على كنبة موجودة في غرفة الاستقبال في العيادة، وهو يجلس إلى جانبي. كانت جبتي فوق جسدي، وكنت منزوعة الرأس: هل فعلَها بي؟ أهو مفعول التخدير؟ أم هي دوخة أصابتني، مثلما أخبرني بعد استيقاظي؟ كانت الساعة متأخرة عن الساعة السادسة بأكثر من نصف ساعة... اقترحَ إيصالي إلى الدير، إثر ارتباكي وانتباهي لتأخري.

لم أعد بعد ذلك اليوم إلى عيادته. لم أخبر رئيسة الدير بما جرى لي، لأنها غير معنية بأمري رهبانياً، عدا أنني إن قلتُ فإن ذلك سيكون مدعاة للهزء بي. لم أخبر رئيستي في دير الكرمليات في برلين بما حصل بالمقابل، إذ زادت بلبلتي. وما كان يؤرق عقلي من أسئلة بات يؤرق جسدي.

في الصباح، وجدتني الجدة نائماً على كنبة في الصالون. أيقظتْني ودعتني إلى النوم في غرفة أخرى في البيت، لكنني اعتذرتُ وشكرتها على استضافتها. كنت أجد الفرصة مناسبة لأسألها: هل

كانت دانييلا راهبة؟ أجابت الجدة بفرنسيتها الخفيفة: هذا ما تقول... أنا لا أعرف... كانت تعيش مع والدها... كانت قد قطعت كل صلة بنا، بوالدتها وبي... إلى اليوم الذي ظهرت فيه في حياتي، وأخبرتني بأنها تحتاج إلى الإقامة معي... لكنني عرفت بعد وقت أنها كانت تملك بيت والدها في برلين، وأنها باعته قبل شهر وحسب على التحاقها بي...

نقلتُ خطاي في الصالون، بين لوحات معروضة فيه، ما نسبتْه الجدة إلى ابنتها، التي كانت لها صلات مديدة بعالم الفن والفنانين، ولا سيما بعد طلاقها من والد دانييلا. راحت تشير من على مقعدها إلى بعض اللوحات، وإلى صلات بين فنانيها وبين ابنتها الراحلة... بين هذه اللوحات استوقفتني واحدة عنت لي شيئاً في ذاكرتي، من دون أن أعرف سبب ذلك، ولما سألتها عن السيدة الماثلة فيها، أجابتني بثقة: أأعجبتك؟ إنها صورة مستنسخة عن الأصل... إنها «لولا»... إنها صورة أمي. هذا ما قالته دانييلا في المتحف النمساوي عن هذه اللوحة، وقد تذكرت حينذاك كلامها هذا: هي لا تكذب في هذه النقطة على الأقل.

بعد التحاق دانييلا بنا، انتقل الحديث إلى دانييل كوهين-بنديت، البرلماني الأوروبي الذي تقاعد قبل شهر. هي التي فاتحتني بالحديث عنه: يقول الفرنسيون عنه إنه زعيم انتفاضة الطلبة في «الحي اللاتيني» في باريس... هذا ما سمعتُه قبل أسبوعين أو ثلاثة في قناة تلفزيونية... لا يدركون من دون شك أن واحداً آخر هو الذي أطلقها: جدة دانييلا من مواليد العام 1932، كانت تعمل في قسم التمريض في مستشفى ببرلين لما اقتادوا إليه رودي دوتشكه في فصح العام 1968، وهو مصاب بثلاث طلقات من مسدس أحد

اليمينيين المتطرفين... كان قد هرب قبل يوم فقط من بدء العمل بإقامة السور بين شقي برلين... كان لإصابته وقعٌ مدوٍّ، وانطلقت تظاهرات في غير مدينة تندِّد بمحاولة قتله... إصابة دوتشكه هي ما أحدث هذا الضجيج الهائل، لا تحركات الطلبة فوق بلاطات «الحي اللاتيني» في باريس.

حمل دوتشكه من ألمانيا الشرقية، مع حقيبته الخفيفة، يأساً من إمكان التغيير. حمل معه كذلك بعض نسائم الحرية التي كانت قد وصلته من تشيكوسلوفاكيا، مما سمي «ربيع براغ». وصله يأس، بل ملل الشباب القاطنين خلف سور ستالين الحديدي، ولا سيما أبيات الشاعر بيتر هوخيل:

«وقفتُ على الجسر
وحيداً أواجه زمهرير زمن خامد، ثقيل الخطى.
ألا يزال النهرُ المتجمد
يتنفس بمشقة
من خلال بُلْعُوم قصبة الحلفاء؟»

كان عاماً مفعماً بالحزن لشبيبة محبطة وأسيرة: كان عام «نهاية البداية»، كما راحوا يرددون في حلقاتهم الضيقة. فقد وجد كثير من الشبان في ألمانيا الشرقية، مثل دوتشكه، في الشعر ما يعبر عن نقمتهم المكتومة، وهو ما حمله عنوان القصيدة: «مزمور شتوي». كانت هناك أنهار من دون حركة أو تيار، فيما النور يخفت والأحلام تتلاشى من دون انقطاع...

كانت جادة المشاة العريضة قد ضاقت بماركاتها التجارية ومقاعدها وناسها... يبيعون، يشترون، يتعارفون ويتفرجون.

ممثلون هواة، باعة، رافعو دعايات على ظهورهم، فنانو بورتريه خلال دقائق... هناك من يبيع القرآن بالألمانية، وفي مكان آخر، في الجادة عينها: هناك من يبيع الإنجيل بالألمانية. ومن يراقب هذين البائعَين المتباعدَين يلاحظ أن أسلوب البيع هو نفسه، وأن صناعة الكتابَين هي نفسها.

امرأة مهمَّشة جالسة على الأرض، متراخية، بخلاف حركة العابرين. ابتسمتْ بمجرد أن وقعَ نظري على وجهها: جاهزة لأي حوار، قريب أو بعيد، بكلمات أو بابتسامات.

فوق الجسر الواصل بين جانبي المدينة أستمع إلى رذاذ من كلام بالعراقية على الأرجح بين شابين...

«اليورو» يتصدر، في ساحة واسعة، مثل منحوتة في ساحة عمومية... وعمارات شاهقة في جهة من النهر، كما لو أنك في مدينة أميركية.

هواة العدو الخفيف. راكبو الدراجات الهوائية. يوم الكلاب. ألبسة وأحذية رياضية. السماعات على آذانهم، وهم يتمشون خفافاً. منعزلون؟ لا، بل يطلبون أن يكون لهم حيز في هذا الفضاء، أن يتحركوا فيه، وأن يتقدموا من دون إزعاج، في استفادة قصوى من وقتهم، من مكانهم، ممّا يطلبون ويلهون. على ضفة نهر «الماين» ألعاب للأطفال، فيما يستلقي أهلهم فوق كراسيهم التي حملوها معهم...

«من هو الآن؟»، كما كان تولستوي لا يتوانى عن القول.

الفصل السابع

«سكايب» بين فيرا وأليس

بلى، أليس على قيد الحياة.

هذا ما توصلتُ إليه بعد أيام وحسب من وصولي إلى القرية. تأكدت بداية من كون ما يتحدث عنه البروفسور وقع فعلاً في الغابة المجاورة لقريتي ولثلاث قرى لصيقة بها. إذ إن هناك غابتَي أرز في شمال لبنان، على أنّ التي تحدَّث عنها أرنست رينان، في كتابه الشهير، هي التي تجاور قرانا، وهي التي تمَّ العثور فيها على نقوش أثرية باتت اليوم مذكورة في أكثر من كتاب ودراسة. كما تأكدت بالمقابل من أن الدير الذي يتحدث عنه هو الدير الواقع في القرية المجاورة، في قرية «الوطا».

أخذتُ بيدي أوراق البروفسور وصوره الفوتوغرافية، ونزلت من جهة الدير نزولاً، للوصول إلى بيت أهل أليس. وهو ما كان... بلى إنه بيت أحفاد والد أليس.

بلى، أليس على قيد الحياة. أرملة ووحيدة في بيتها. على مبعدة عشرات الأمتار من بيت أهلها، فوق تلة صغيرة تشرف على بيت أهلها. هذا ما أخبرني به راهب متقدم في السن، وهو من أبناء القرية. لم يكن الوصول إليها بالصعب، لكن الكلام معها كان هو الصعب. إلا أنها انتهت إليه بعد أن كشفتُ لها عدداً من الصور، في

حقيبتي الصغيرة، منها صورتان لها، ورسمٌ لها بالقلم الرصاص: هل عرفتَ جيلبير؟ كيف عرفته؟ أين؟ أهو على قيد الحياة؟ أهو لا يزال يبحث عني؟

بلى، وصلتني رسالة من جيلبير بعد ما يزيد على السنتين. لم أستلمها عند وصولها. الراهب عمانوئيل القرطباوي، صديق جيلبير، هو الذي سلمني إياها بعد وقت. كان في زيارة لقريتنا، بعد أن أنهى رئاسته فيها، وانتقل إلى رئاسة دير البنات في جبيل. كان يوم أحد. هو الذي خدم القداس في الكنيسة. بعد القداس انتقلنا مع مزارعين آخرين لتحيته في صالون الدير. جلست معهم، على مبعدة منهم، وهم يحدثونه عن ذكرى مروره الطيب على القرية. عند الخروج من الصالون، وعند توديعه، اقترب مني، وطالبني بالتوقف قليلاً، ثم دعاني إلى انتظاره... هذه الأوراق هي التي عاد بها من غرفته. أخبرني أنه التقى بجيلبير قبل ما يزيد على الشهرين. وهو كتب هذه الأوراق في جبيل نفسها، بعد لقائه به: هي لكِ. هو الذي شدَّدَ على تسليمي إياها لك، بمفردك. لعله عرف أنك تزوجت... هل تزوجتِ فعلاً؟... جيلبير إنسان محترم، يا ابنتي... أنا حافظ لسرك مدى الحياة... تأكدي من ذلك.

فعلاً، الراهب عمانوئيل محترم... ويحفظ «السر مثل البئر»، كما نقول في قريتنا. لم أسمع بأي خبر، بأي إشاعة، طوال حياتي الزوجية مما اشتملتْ عليه هذه الرسالة، أو مما سبقها. حافظ على الرسالة، بل أبقاها كما كانت من دون فتح، على ما تحققتُ.

ما لم يكن يعرفه الراهب عمانوئيل هو أنني لا أحسن القراءة والكتابة... فرحتُ بالرسالة، خبأتُها في صدري فور نزولي من

الدير. بقيتْ في صدري، في مكان دافىء عدة أيام، من دون أن أعرف مكاناً أحفظها فيه. لكن السؤال الأصعب بقي يراودني ما أن نزلت في الطريق المنحدرة بين الدير وبيتنا: كيف أعرف مضمون الرسالة؟ من يقرأها لي؟ هل أعيدها إلى الراهب لكي يقرأها؟ أما قرأها؟ لا، من دون شك، إذ بدت مختومة تماماً. كيف يقرأها، وفيها من دون شك تعابير عن حب محترق؟! كيف يحتمل ما يَرِدُ فيها، وهو الذي سألني ما إذا كنتُ قد تزوجت؟ هل قرأها ثم ختمها من جديد؟... لمن أعهد بالرسالة؟

انتهيت بعد تردد طويل إلى وضع الرسالة في ثقب، بين أحجار متداعية في «الرملية»، في مكان غير بعيد عن الذي كنا نتواعد فيه... لكنني، ما أن كنت أعود إلى «الرملية»، ما أن أتفقد رسالتي، حتى كنت أراها مثل فيلم سينمائي أو تلفزيوني: هذا ما كان يتحدث عنه والدي، خصوصاً بعد زيارتين له لبيروت، لما عاد منها ليخبرنا عما رآه في بيت تاجر الغنم الكبير من صور مدهشة، وما سمعه منه أيضاً عن الفيلم الهندي الجديد: «كلهم أبنائي»... هذا ما عرفتُه بنفسي بعد سنوات وسنوات، إذ لم تكن الكهرباء قد ارتفعت أعمدتها في قريتنا أو في قرية أهلك...

كنت أعود إلى الرسالة، أتصفح أوراقها مثل صور متلاحقة، مثل فيلم. نجحتُ ذات يوم في التعرف على اسمي في خطوطها. كنت أحسن قراءة اسمي، وكتابته أيضاً، بعد أن طلب مني الراهب ذلك، لما أخبره والدي عن زواجي القريب... طلب منه أن يتمَّ تعليمي كتابة اسمي لأنني ملزمة بتوقيع اسمي فوق عقد الزواج... لا يريد الراهب لي أن أظهر بهيئة الصبية الأمية التي كنتُ عليها، والتي تكتفي في هذه الحال، بـ«البصم» بدل التوقيع...

حصل هذا بعد سنوات على ترك جيلبير للقرية، ورحيله المباغت. . . تزوجت بعد أكثر من سبع سنوات من ذلك. هل أبلغ الراهب جيلبير أنني كنتُ قد تزوجت قبل ذلك؟ هذا ما عرفت جوابه بعد سنوات بعيدة، لما أصبحتُ قادرة على القراءة.

بعد ميلاد ابني مخايل، بعد دخوله إلى المدرسة، كنت أسأله عما درس: كان يفتح لي كتابه ويعرض لي الحروف والكلمات، المصحوبة بصور. نجحت في التعرف على بعض الألفاظ وعلى نطقها الفصيح. . .

هذه الأوراق خذْها. . . لم أعد أحتاج إليها. تعلمتُ مع ابني القراءة قبل أن تحرمني الحياة منه ومن أي طفل آخر. . . لا أحتاجها إذ إنني حفظتها عن ظهر قلب. . . كان جيلبير يعرف أنني لا أحسن القراءة والكتابة، فلماذا كتبها؟ أيكفي أنه كتبها بالعربية؟ أأراد من ذلك دفعي إلى تعلم القراءة والكتابة؟

كانت شرفة بيت أليس تطل على قسم وحسب من القرية، فلا نرى الدير من جهتها، ولا القسم الخلفي من الجبل الذي يقع على يمين بيتها. . . في هذا القسم، تقع «المحبسة»، و«الرملية» وأشجار الصنوبر والخطى المتهادية والنازلة في تلك المنحدرات. . . المنحدرات الواصلة بين غابة الأرز والدير، قبل النهر النازل بدوره صوب المتوسط.

أتبين القرية وبيوتها الواطئة، ووجه أليس من زاوية جانبية. هي لا تنظر صوبي، بل إلى ما يقع في منحدر نظرها وصولاً إلى النهر، فيما تتبدل ملامح وجهها بين انقباض وانبساط. كان وجهها مدوراً،

تتسع ملامحه وتضيق، تنفرج أو تشتد، مع جريان انفعالها الداخلي، من دون أن تصاحبه كلمات في الغالب. وما يبدو من هذا كله هو أنها عاشت حياتين، في تناوب بين سرها وعيشها، بين زوجها وابنها، من دون أن يبقى لها أحد منهما في وحشتها المتبقية. أحملتُ لها ما أسرَّها؟ لم تجب عن سؤالي، بل تبسمت بلطف من دون أن تضيف شيئاً. ثم أدارت بكرسيها الصغير الواطىء صوبي، وقالت وهي تتفرس في ملامحي: لماذا تهتم بهذه القصة؟ لم أجب بدوري، وقد وجدتها تخفض رأسها، قبل أن تختفي عني إلى جهة البيت الداخلية.

أنا مثل أليس أضع حبقة في بيتي: هي على شرفة بيتها، وأنا بين النافذة وطاولة الصالون، قبل أن أعهد بها إلى فضيلة لكي ترعاها. عادت أليس من داخل البيت بأوراق تفوح منها رائحة عمرها، بقلم جيلبير، الأوراق القليلة التي كتبها بالعربية، وتركها لها... لعله، كما تقول الفرنسية، ألقى زجاجة في البحر بعد أن وضع فيها أوراقه هذه: قد يلقاها أحد ممن يتصل بالحكاية، وقد يلقاها غيره فيمزقها أو يحفظها، أو يدونها في فقرة في رواية مفتوحة:

اليوم يوم ثلاثاء، في 23 يوليو من سنة 1963، أكتب هذا في مقهى نجيب زِكُّو في وسط جبيل، أمام «السراي». بعد وصولي سألتُ السيدة السمينة، التي كانت في المحل، ما إذا كان جورج بليعة لا يزال يعمل «على الخط»، على نقل المسافرين من جبيل إلى الوطا والقرى المجاورة. ولما أكدتْ لي الأمر، نبهتني إلى أن سيارته لا تبلغ تماماً «الوطا»، بل الضيعة قبلها: هناك تتوقف

السيارات ولا تستطيع بعد الوصول إلى القرى الأخرى المجاورة. . . هذا ما كنت أعرفه أساساً، فما تغير الحال منذ سنتين.

لا، أنا أكتبها في مطعم آخر، قرب ميناء جبيل، بعد أن عدلتُ عن فكرة تسليم الرسالة إلى جورج بديعة: كيف له أن يوصلها إليك؟! أي فكرة قبيحة ومشينة لي ولكِ خصوصاً! كيف خطرت هذه الفكرة على راسي؟ أليسَ هذا هو الدليل الحي على أنني لا أدير أمور حياتي كما يجب؟

عفواً، أليس. تصلكِ أوراقي مع الراهب عمانوئيل القرطباوي، بعد أن التقيته يوم أمس في دير المعونات، أو «دير البنات»، كما تقولون في القرية. تسألين من دون شك كيف أرسل رسالتي هذه، وأنت قد تزوجت منذ أكثر من سنة، على ما أخبرني الراهب أمس؟! كان عليّ أن أكتب هذا. هذا ما كتبته سابقاً، هذا ما سأكتبه اليوم، لأن هناك حريقاً اندلع في خيمتي في الغابة، ولم تخمد نيرانه حتى اليوم:

ينظر إلى وجهها مثل نقش قديم. لا تدعه يقترب منها. ما استطاعه هو صورة بعيدة لها. وصورة أخرى مهزوزة، إذ انتبهتْ إلى فعلته من دون أن تدرك مغزاها بالضرورة: يا ليت الكاميرا تمكنني من تقريب صورة وجهها من الآلة. . . يا ليتني أقوى على مدّ إصبعي صوبها. . . لو يلتقي أصبعي بإصبعها: لقاء أرض بسماء، أو كوكب بغيره. . . يتجاوران، يلتقيان، ولا يتماسّان.

لكنها قبلت لما أخرجتُ قلمي الرصاص من حقيبتي. . . لما رحتُ أخطط تقاسيم وجهها. فهمتْ مقصودي. لم تعترض. راحت تنقل عيناها بين متابعة عيني ويدي، وهما تعملان، وبين الرسم فوق

الورق. كانت ترفع نظرها عجباً، كما لو أنني أستخرجها من العتمة إلى النور. كان في ودها، لما انتهيتُ من رسمها، أن تحتفظ به، لكنها ما لبثت أن ردّته لي، كما لو أنه ملكي، كما لو أنها تترك شيئاً منها لي، مثل استمرار لها.

أسكن في مارلنهايم، التي لا تعرفين. منذ مولدي. أسكنها اليوم مع والديَّ، وأنتقل منها يومياً إلى ستراسبور، إلى جامعتي. بيتنا جميل... راودني حلم أن تتعرفي عليه، أن تقيمي فيه ربما... أستعيد حلمي هذا في الصباح خصوصاً، صباح السبت، حيث تكون الحركة هادئة، في البيت، وحوله. هناك ثلاث أشجار عالية في الحديقة، أجلس في ظلالها كما لو أنها من الصنوبر. كنت أحتاج إلى أشجار أكثر حنواً عليَّ، أكثر التفافاً حولي، تحيط بي في وحشتي، في ابتعادي المكره عنك.

في هذه الصبيحة، كما في غيرها منذ عودتي المفاجئة من لبنان، أقترب منك، من التأتأة، من تمتمات شفتيك، من أصابعك المرتجفة، من سرعة انغلاق وانفتاح عينيك... أقترب منك. ما كان يبدو بعيداً آلاف السنوات بيني وبينك بات على مقربة مني. قريبٌ، لكنه يبقى مغلقاً علي. سألتني مرة، يا أليس، عما كنت أقوم به، عما تعنيه الخربشات فوق الصخرة الكبيرة التي أرسمها بالقلم وأصورها بالكاميرا، وأتأملها مراراً ومراراً... هل تعلمين، يا أليس، أنك أصعب من تلك النقوش؟ لا يبعد تاريخها عنا أكثر من ألفي سنة على الأكثر، لما طلب الإمبراطور الروماني أدريان إظهار حدود ملكيته للغابة ولأشجارها الثمينة في حساباته. هل تعلمين أن أسلافك البعيدين ما كانوا حريصين على الغابة، كما يبدو، أو يتصرفون بها

على هواهم؟ يقتطعون منها ما يشاؤون، من دون حساب، ما يجعلها مهددة بالانقراض السريع... أتذكرين ما قاله والدك في تلك السهرة اليتيمة في بيتكم: لا، يا أستاذ، هذه لا تشير إلى غابة وأشجار، وإنما إلى كنوز... هذه الغابة كنزكم، يا أليس، ولكن لو تدركون كيف! أتذكرين ما قاله والدك أيضاً: لا، يا أستاذ، كيف تريد لقطعاننا أن تأكل!؟ كيف تريدنا أن نعيش في هذه الجرود العالية من دون الخشب، لإقامة الجدران وأسطح المنازل، لتوفير الدفء، وإعداد الأكل، ولصنع أدوات العمل والسكن والأكل وغيرها!؟...

هذا ما أقوله لنفسي هذا الصباح، يا أليس: كنتِ أعقد من نقش روماني. كان الاقتراب منك أصعب من درس النقش. كنتِ أمامي ومنيعة. ما كنت أريد انتهاك عذريتك، ولا طهارة جسمك. كنتِ تجذبينني بما لا أقوى على فهمه، ولا على معالجته. كانت عيناي تنخطفان لرؤياك أكثر مما انخطفت لما وقعت على النقش بعد طول بحث وتنقيب في تلك الجرود المترامية.

أكتب هذا بالعربية، لا بالفرنسية. لي أمل أن تقرئيها في هذه اللغة التي أفهمها قراءة وكلاماً من دون أن أقدم على الكتابة بها. هكذا أكون أقترب منك أيضاً. أكتبها، بل أتمتمها مدركاً أنك لما ستتوصلين إلى قراءتها ستُتمتمينها مثلي، معي... سنكون إذذاك لا نتوانى عن التقبيل، عن أن تتبادل شفاهنا ملامساتها الحنونة والعنيفة.

هذا ما أقوى عليه، وقد أكرهتُ على الرحيل من دون وداعك... على عجل خشية ممّا قد يصيبني. لم يكن قراري، بل قرار الراهب القرطباوي. تعرفين أن له مودة وتقديراً كبيرين في

نفسي، لكن ما لا تعرفينه هو أنه كان يعرف بلدتي، واقترب من أمي من دون أن يعرفها...

ما لا تعرفينه، يا أليس، ولا يعرفه أحد في القرية، هو أن الراهب عمانوئيل درس في ستراسبور إجازة اللاهوت. وكانت له صلة بصديقة والدتي في الدراسة الجامعية... أكثر من صلة جامعية، ما لم أعرف طبيعتها أبداً. هذا ما عرفته بعد وقت من أمي نفسها. أخبرته لما أتيتُ إلى جرود لبنان بأنني من ستراسبور... كان يحميني أكثر من الحماية اللازمة التي يتكفل بها رئيس دير لما يأتيه عالِم فرنسي شاب لدرس آثار في منطقته، بتكليف من جامعة ستراسبور وتوصية من الجامعة اليسوعية في بيروت... الراهب هو الذي أخبرني عن دراسته في ستراسبور... وهو الذي حدثني عن مارلنهايم، من دون أن يحدثني طبعاً عن صديقة أمي. هذا ما انتهتْ إليه أمي، إذ عرضتُ عليها، بعد عودتي، صوراً مختلفة لمن التقيت بهم، بما فيها صورة عمانوئيل... لكنها ما تعرفت عليه بعد سنوات وسنوات خصوصاً وأنه يَظهر فيها باللباس الرهباني... لكنها راحت تتذكر لما أخبرتها عن حمايته لي، عن كونه درس في جامعة ستراسبور في السنوات عينها التي كانت هي فيها على علاقة قوية بإدارية من مارلنهايم نفسها: ألا يكون إيمانويل من قرطبا؟

بلى، كان هو... إيمانويل هو الاسم الفرنسي لعمانوئيل.

هذا ما فاتحتُه به يوم أمس، لما التقينا... لكنني لم أذكر أمامه أنني كنت على علم بصديقته، وأنها قريبة من أمي... لعله نساها، أو لا يتذكر بالضرورة صديقتها، أي أمي نفسها... لعلها أراد إخفاء ما ساقته أمي لي بعد وقت، بعد سنوات، لما انقطعتُ عن ذكر لبنان

والراهب: أتعرف أنني التقيت به، ذات يوم، بعد احتلال النازيين للألزاس، في مارلنهايم نفسها، مع صديقتي؟ أتعرف أنها أخبرتني بعد شهور أن الراهب تخفى في بيتهم، لمّا لم يجد وسيلة للهرب في اتجاه لبنان؟

ما لا تعرفينه أيضاً، يا أليس، هو أن الراهب دافعَ عني أمام والدك، وأمام أهل القرية، الذين كانوا يتوعدونني ويهددونني بالقتل... ما لا تعرفينه، يا أليس، هو أن الراهب كذب دفاعاً عني، لما حصلت المقتلة في غابة الأرز، إذ دعاني فوراً إلى مغادرة، إلى ترك لبنان؛ كما أخبر رئيس مخفر دوما القريبة، عند إجراء التحقيق، أنني كنت نائماً في الدير في تلك الليلة المشؤومة...

ما لا تعرفينه، يا أليس، هو أنني عرفت من الراهب أنه كان في السلك الكهنوتي لمّا درس في ستراسبور، لا في السلك الرهباني... كان في إمكانه الزواج قبل أن يرتسم كاهناً... هذا ما كان في مقدوره عملانه، لو شاء... لكنه لم يتزوج، بل طلب الانتساب إلى الرهبانية بعد ذلك، إثر عودته من ستراسبور، وتحصيله إجازة اللاهوت، منصرفاً تماماً إلى حياة فيها مقادير من النسك والزهد والعلم.

ما لم أكن أعرفه، يا أليس، عرفتُه وأنا أغادر بلدتك. عرفتُه فجر تلك الليلة المشؤومة، بعد أن بلغت الدير. عرفته في الساعات القليلة التي أمضيتها مع الراهب، قبل أن أمشي من جديد من الدير صوب «الساحة» لانتقالي في سيارة جورج بديعة إلى جبيل.

أخبرت الراهب بما جرى... وهو الذي قرر بنفسه وجهة سيري.

احتجت إلى بعض الوقت، بعد إطلاق الرصاصات، لكي أقرر ما عليَّ فعله. كنت أدرك أنه لن يكون بمقدوري، بعد تلك الليلة، أن أعود إلى خيمتي، إلى نقوشي، إليك خصوصاً. كان علي خصوصاً إجراء جردة سريعة في ما يمكنني نقله معي، وحمله في نزولي الليلي صوب الدير.

كنت أعرف الطريق تماماً، لكنني نزلتها مثل الهارب، مثل الجاني.

لربما أمضيت أقل من ساعة في نزولي مشياً صوب الدير، على الرغم من ضوء القمر الخفيف... كنتُ وحيداً وضعيفاً، محاطاً بأعداء كثيرين، ممّن لم يرتاحوا أساساً لوجودي بينهم... كنت أخاف عليك، يا أليس، أيضاً... كنت أخاف على حبنا الذي وجدتُه يتهاوى معي في ذلك النزول الليلي الذي بدا مثل نزول إلى جهنم أرضية...

لعلي قتلتُ أحداً في تلك الليلة، لكنني كنت مهدداً. أمطروني بعدة رصاصات، وأنا في الظلمة، فدافعتُ عن نفسي.

أكتب هذا بلغتي الفصيحة، وأنت لا تقرئين أي لغة. مع ذلك توصلنا إلى أن نتحاور، يا أليس... كنت تبادلينني ابتسامات أو تكشيرات مناسبة، وترفعين يديك أو حاجبيك... كانت لعينيك أكثر من أداة إبلاغ... تبلغت منها رسائل عديدة، وأنا أَكُرُّها في ذاكرتي مثل لقطات في فيلم...

هل يُعقل، يا أليس، أننا لم نتوصل إلى متابعة حبنا المعلق بين السماء والأرض؟

كان بودي أن أنسى هذا كله. أكتب لعل أحداً يقرأه ذات يوم، ويعرف ما جرى.

أما أنا فلا أقوى على معرفة أكثر من هذا. ما كتبته قد يكون أعقد من نقش روماني. إنه يحترق في قلبي، وما يتركه فيه لن يراه أحد.

طلبتْ أليس مني أن أعيد قراءة ما كنت أقرأ في أوراق البروفسور، في أوراق جيلبير، كما تسميه تبعاً لاسمه الأول. كانت تعيد معي تلفظ بعض الألفاظ، وقد حفظتها غيباً.

كانت تَعبُرها مشاعر مضطربة، متداخلة من الفرح والغم. هذا ما قالتْه وهي تحني رأسها: يا ليتني التقيتُه بعد تلك الليلة المشؤومة بأيام... يا ليته التقى غيري بعد أيام... لكان عرف بأنّ هناك قتيلاً سقط في الغابة، لكنه قضى إثر عراك بين أحد «الطفار» واثنين من قرية مجاورة، ممن كانوا ينوون تفجير الصخرة العالية بحثاً عن كنز مفقود... وجود جيلبير كان يزعج «الطُّفار» وهواة البحث عن الكنوز من دون شك، وبات يزعج أهلي طبعاً لما انكشفت نزهاتي معه عند الغروب على طريق «المحبسة»... لكن وجوده كان يزعج أيضاً الراهب القرطباوي، على ما انتهيت إلى التفكير بعد وقت: تكشفتْ لجيلبير أمور في حياة الراهب، ما كنا نعرفها، ويريد إبعادها عنا، وعنه، وعن حياته... القرطباوي هو الذي أراد إبعاد جيلبير، لا لحمايته كما ظنّ جيلبير نفسه، ولكن لحماية نفسه، لعدم الكشف عن بعض ماضيه...

الراهب غدر بي وغدر به: كيف أفاده عن زواجي وأنا ما كنت

قد تزوجت بعد؟! كيف أخبرني الراهب أن جيلبير تزوج، لما زاره في المرة الثانية، فيما لم يتزوج إلا بعد سنوات وسنوات، كما تقول لي اليوم؟!

هذا ما أستجمعُ خيوطه اليوم. كانت تراودني قبل ذلك أسئلة عديدة، مثل هذه: لماذا لا يظهر جيلبير من جديد؟ ألا يريد معرفة ما جرى؟ هل عرف حقيقة ما جرى؟ الراهب القرطباوي وحده هو من كان يعرف كل شيء... وهو الوحيد الذي كان في إمكانه إظهار الحقيقة، ومراسلة جيلبير بها... لِمَ لمْ يفعلها؟! لمَ لم يخبر جيلبير بعد سنتين بكامل الحقيقة، لما زاره في «دير البنات»؟ لماذا بقي جيلبير مثل المطارَد لما عاد إلى لبنان بعد سنتين؟ ماذا قال له الراهب؟ هل كشف له حقيقة المقتلة أم أبقاها في دائرة الظن والشكوك، ما لا قدرة لجيلبير على مواجهته؟

رحتُ أستعيد مع أليس الوقائع واحدة واحدة، واحدة بعد الأخرى، من دون أن نصل إلى غير النتيجة التي انتهتْ إليها بعد سنوات وسنوات، لما توصلتْ إلى قراءة ما كتب لها، إذ تكشَّف لها أنه لا يزال عند روايته القديمة، وأن القرطباوي لم يصححها له.

زاد من شعور أليس الحزين ما تكشَّف لها من الرسائل التي كتبها البروفسور وأبقاها في كتبه ومحفوظاته، ومنها اعترافه بالقتل، وشعوره المتمادي بالذنب. الحريق الذي اندلع في قلبه لم ينطفىء أبداً، بل بقي مشتعلاً مدى الحياة ربما... سافر البروفسور بعد ذلك. عاد إلى لبنان بعد ما يزيد على عشر سنوات، في محاضرة ألقاها في «الندوة اللبنانية»، على ما قرأتُ في سيرته العلمية، إلا أنني لم أقع على ورَقة أو شهادة تفيد عما فعله حينها...

لعله كتب هذه الأوراق في السنتين الفاصلتين، أو بعدهما

مباشرة، لكنه انقطع عنها بعد إخبار الراهب له بزواج أليس المزعوم. بقيت عليقته مشتعلة في الغابة، والدليل هو أنه لم يتزوج من أم فيرا، إلا بعد سبع سنوات على غرامه بأليس. ولكن ما الذي حصل له مع زوجته بعد ذلك، وبعد سنتين على ميلاد فيرا نفسها؟ هل تكشفت له أمور ما عرفها في السابق؟ أم يعود ابتعاده عن زوجته إلى أمور تكشفت له في حياتها هي، في ما يظهر في بعض صور أم فيرا الفوتوغرافية؟

لا تحسن أليس الجواب عن هذا الجانب من حياة البروفسور، مع أنها كانت تعايشه عن بعد في أوراقه القليلة، في عيشها المديد معها، قبل أن تحسن القراءة في كلماته، وفي ما خفي وراء الكلمات. كانت تراه أحياناً في الكنيسة، تحت عريشة بيت أهلها... كانت تتوقع دخوله المفاجىء إلى بيتها، من دون علم، من دون إنذار... ولما كان لا يظهر، مع أن أسباب مجيئه باتت ممكنة، و«سالكة وآمنة» كما علمت من الإذاعة اللبنانية في بداية الحرب، كانت تتضايق منه، من ذكره، بل كانت تصرفه عن خيالها تماماً... صرفته، بل تناسته تماماً، لولا أسئلة ابنها لها عنه، وبالسرّ طبعاً، لما توصل إلى قراءة ما كتب لها: أكان يمكن أن يكون والدي؟... لكن ابنها غاب هو الآخر، إلى الأبد، بعد موته المفاجىء الذي لم يحسنوا معرفة أسبابه أبداً.

بقيتْ أليس وحدها، حاملة معها أوراقها وأسرارها، من دون زوجها طبعاً، الذي قضى بعد ابنهما، بعد عشر سنوات. بقيت من دون سند، من دون حفيد، غير تلك الأوراق التي تبقى الأثر المادي الوحيد عن وجودها، عن تلك الأيام السعيدة التي عبرت حياتها، بل جمعتها، في قريتها، بمدينة بعيدة عنها لم تحفظ حتى اسمها.

وجدتُني أستكمل حديثي مع أليس في العتمة على شرفتها، من دون أن أعرف ما إذا كنتُ قد جلبت لها ما يفرحها في حياتها الخاوية. لما نظرتُ إلى وجهها، قبل أن أودعها، لمعَ شيء في عينيها، من ذلك البريق المتأتي من نجمة بعيدة، مثل التي تشع فوق ليالي «الوطا» المقمرة.

ما لم أكن أعرفه هو ما كان ينتظرني في البيت، في بيت جدي، بعد عودتي من زيارة أليس. والدي كان ينتظرني بفضوله الدائم؛ بدا شغوفاً بما كنت أحقق فيه. فجأة استعاد نشاطاً مفقوداً. وجد في قصة أليس والبروفسور ما حرَّكَ وجدانه وخياله، في زمن اتصل به وإن على مسافة منه. راح بدوره، بعد أليس، يستعيد فقرات الحكاية، ويفندها ويتبين معي احتمالاتها أو ظنونها... لكن ما لم يكن يتوقعه، ولا أتوقعه، هو ما توصل إليه بمجرد وقوعه على الصور الفوتوغرافية، إذ صرخ عند توقفه أمام إحدى الصور، ونادى والدتي مخاطباً إياها: ألا يكون هذا هو والدكِ؟

بلى، هو جدي لأمي. كان يظهر في صورة فوتوغرافية مع البروفسور ورئيس الدير وعدد من المزارعين. كانوا يمسكون بأدوات عملهم في الحقول، فيما يضع البروفسور قبعة من فلين، ويتوسط رئيسُ الدير الصور، أما جدي فكان على الطرف الأيسر منها، بطقمه وعبوسته الدائمة: ماذا كان يفعل في الصورة، وهو في لباس رسمي لمثل هذه الصورة؟ أظَهَرَ فيها بالصدفة، لمروره في ذلك النهار بالدير؟ لم تكن والدتي تحسن الإجابة عن هذا السؤال؛ وما كانت تعرف أحداً في الصورة. أتحمل الصورة بنفسها، وتنتقل بها إلى

أفراد القرية المسنين لاستيضاحهم عن مناسبتها، وعن الماثلين فيها؟ هذا ما اقترحَه والدي، وهو ما تبرمتْ أمي منه بالطبع.

لعله جدي، من دون أن أكون قادراً على التأكد من هيئته، إذ إنني لم أعايشه إلا في النادر، عن بعد: هو في بيته في محلة مار مخايل ببيروت، ونحن في سن الفيل. أتذكر بعض أخباره، خصوصاً يوم وفاته، لما فشل أخوالي مع والدي في نقله لدفنه في القرية، في نهاية الثمانينيات، في أيام «حرب الإلغاء»... دفنوه في مقبرة مار مخايل على أن ينقلوه بعد وقت. لكنه بقي فيها، حتى اليوم.

جدي يَظهر مع البروفسور في صورة... لعله تعرف عليه. لعله بادله الكلام، خاصة وأن جدي كان متعلماً، بلغَ شهادة «البروفيه»... ماذا ستقول فيرا لما سأخبرها بهذا؟ عدت من ستراسبور، لكنني موصول بها، أتابع هنا ما بدأ هناك... مثل خيطان بكرة الصوف التي تكر فجأة، وتفلت من أيدي مَن كان ممسكاً بها، أو جمعَ خيوط بعضها ببعض.

كلٌّ عاش من دون بقية سيرته، من دون ما حملته من مفارقات، من نقصان، من سوء تفاهم. عاش مع ما ينقصه من سيرته، المتبقية في ثنايا حياة وأسرار غيره: شيء لجيلبير بقي مع أليس... شيء للراهب مع البروفسور... شيء لجدي مع البروفسور... ماذا لو التقى هذا بذاك؟ ماذا كان ليجري؟ ماذا لو كانت أليس تحسن الكتابة؟ ماذا لو أنها، بعد أن تعلمتْها، أتقنتْ النقر على الحاسوب، مثل البروفسور نفسه، الذي انتقل إليه على ما تأكدتُ في مكتبه؟ أما كانت ستجد سهولة في الوصول إليه، في معرفة سيرته العلمية الزاهرة؟ أما كان سيتم اللقاء بينهما على الأقل إلكترونياً؟ أما كان البروفسور عرف ما فاته؟ أما كان بدَّل وجهة حياته؟ أما كان عوَّضَ

ما لم يعشه؟ وماذا عن أم فيرا نفسها التي مضت مع أسرارها؟ ماذا عن صديقتها التي عرفت إيمانويل من قرطبا؟ ألا تزال على قيد الحياة؟ هل أسأل فيرا عنها؟

الحياة تمضي مثل النهر النازل في القرية صوب مصبِّه في المتوسط. الحياة انقضت، اتخذت وجهات أخرى مع مقاديرها من النقصان: جدي التقى بالبروفسور صدفة، من دون أن يتبادلا أي كلمة على الأرجح... تجمعهما صورة فوتوغرافية واحدة، الواحد على مسافة من الآخر... من دون أن يلتقيا يومها ولا بعده.

الرواية وحدها هي التي تجمعهما، هما وغيرهما. تجمع ما خفي عنهم، ما لا يخفى على كاتبها، على راويها.

بات الوصول إلى الغابة أسهل. ثلث ساعة في السيارة ليس إلا، فيما باتت الطريق الترابية بينها وبين الدير مخصصة لهواة المشي ولنوادي المشاة المحترفين. باتت الغابة مقصداً لكثير من الزوار، من لبنان وخارجه، بعد أن تحولت أمنية البروفسور إلى واقع، وتحولت إلى «محمية» يصونها القانون من أي عبث في أشجارها.

أليس اعتذرت عن مرافقتي إلى الغابة، لتقدُّمها في السن من دون شك، لكنها أمدّتني ببعض الإشارات الدالة عليها. انتقلتُ إليها، اليوم، بسيارتي، من دون أن أنجح في التعرف تماماً على موقع صخرة البروفسور ونقوشها الرومانية. لكنني نجحت في النزول عبر الطريق الوعرة، الترابية والصخرية، الواصلة بين الغابة والدير: الطريق التي نزل فيها في ليلته المجنونة، الطريق التي صعدها ونزلها أكثر من مرة، مشياً أو على حمار... الطريق التي قادته إلى كتابة

أول بحث علمي له، عن نقوش الإمبراطور أدريان، على ما قرأتُ في سيرته العلمية... الطريق التي قادته إلى حب أليس... لكنها كانت طريقاً غير نافذة. هذه الطريق طرقتُها بأقدامي من جديد، طرقتها بكلماتي، بما حادثت به فيرا عنها، بعد ما يزيد على خمسين سنة.

أتصلتُ بفيرا، كما تمَّ الاتفاق، عبر «سكايب»، بينما كنت أجلس إلى جانب أليس، بعد عودتي من الغابة.

طلبتُ من أليس أن تمدَّ إصبعها، أن تضعه على الشاشة، وطلبتُ من فيرا القيام بالعمل نفسه، من جهتها: يلتقيان عبر الحاسوب، مثل لقاء أرض بسماء، كما يقول البروفسور في إحدى رسائله. لما فهمتْ أليس المقصود من عملية الاتصال هذا، نظرتْ إلى وجهي وقالت لي ضاحكة: كوزومبري... كوزومبري... كان هذا يعني، في حسابها، أنها فهمت، وهو ما تعلَّمتْه محرَّفاً من أخيها بعد أن كان يردد أمامها ما كان قد تعلمه من إحدى الراهبات، في المدرسة، لما كان يعيد على مسامعها ما كانت الراهبة تسأله قبل عودته إلى البيت: «كومبري؟» (أفهمتَ؟)، وهو ما كان يعيده بعدها: «كومبري... كومبري» (أي: فهمتُ... فهمتُ...).

هذا ما كانت تستعيده محرَّفاً بعد سنوات مع جيلبير، البروفسور الشاب، لما كان يطلب منها موعداً أو شيئاً بعينه، فتجيبه بأنها فهمت ما قاله أو ما طلبه: كوزومبري... كوزومبري...

المترجم كتوم فيما الراوي يروي، يُعبِّر ولو في صورة صامتة... يُعبِّر بمجرد ما أن يقول. إذ يختلف الكلام لما يكون في الصدور، فوق الورق، في الحاسوب، ولما يخرج فوق الشفاه، حتى وإن كنتَ وحيداً تقوله لنفسك. هذا ما عايشتُه في محاضراتي، لما

كنتُ أرتجل كلامي انطلاقاً ممّا أكون قد كتبت، قد أعددتُ. كان يَظهر لي، وأنا أتحدث إلى طلبتي، أن كلامي بات أوضح في خاطري لما رحتُ أحادثهم به. هذا ما عايشتُه محاضرة تلو محاضرة، إذ إن كلامي مع طلبتي في بيروت كان أقرب منه إلى المحادثة، حيث إن عددهم قليل، وطبيعة العمل معهم في الصف كانت أقرب إلى «ورشة نقاشية»، كما يستحسنون تسميتَها اليوم. بتُّ في ستراسبور أطلقُ جملي في القاعة، كما لو أنني أرسلها أمامي، إلى طلبتي، ما يكفي من الوقت لكي أتحقق منها معهم وبعدهم، كما فوق شاشة خافية إلا لي... أتحقق منها كما لو أنني أتبينها، أقرأها من جديد. أقرأها، بل أسمعها بالأحرى، بدوري، ما يكشفها، ما يُظهرها لي، محمولة فوق نَفَسي، مثل نطفة من جسدي. ففي كلامي عمّا كنت قد فكرتُ فيه، عمّا كنت قد كتبته، يخرج شيء آخر مني، مثل انبثاق جديد، غير معروف مني، في نوع من الاستمرار له، أو التمدد، أو الانطلاق منه، بل يتيح الكلام لي استبيان طرق مختصرة، لا تعرفها الكتابة بالضرورة، حيث إن طرقَ هذه ملتوية، معقدة، فلا تبدو جلية مثلما تنتهي إليه في الكلام.

وصلتُ إلى بيروت، إلى سن الفيل، إلى القرية، من دون أن أغادر ستراسبور واقعاً. ما رحت أتابعه في أخبار وتدقيقات بمثابرة وشغف، كان يبلغ بدوره ما سبق أن كتبت، بل أتى استكمالاً لما كنتُ قد بدأت به منذ تسعة شهور على الأقل. تابعتُ هذا غافلاً عما كان عليه وصولي، وعما كانت تلتقطه عيناي من صور ومشاهد، عما نفر في عيني الجاحظتين لما استقبلتْني صور «الشهداء» على طريق

المطار، أو صور المطربين والمطربات، أو صور العارضات سيقانهن ومفاتنهن أكثر من الألبسة الداخلية التي يروِّجن لها... وجدتني مشمئزاً، ناقماً، ما جعل والدي مثل والدتي ينظران إليّ بعين الدهشة: أهو ابنهما الذي يستعيدانه بعد عطلة أو إقامة سريعة ليس إلا؟!

إلا أن المصعوق ممّا جرى كان أنا في المقام الأول. هذا ما رحت أستعيده في فراشي، في غرفتي، قبل النوم في الليلة الأولى، أو عندما طلبت الخروج إلى مقهاي المفضل في فندق «المتروبوليتان»، أو عندما انتقلنا بعد الظهر عينه إلى القرية بناء لطلبي... وهي الأسئلة التي ما لبثتُ أن استعدتُها بمجرد ما أن انغلقت قصة أليس على أسرارها المتبقية، وعلى ظلمها الأكيد والمديد.

استعدتُها، إذ لم يرقْ لي في أيامي التالية التنقل إلى بيت خالتي، أو حتى إلى جنينة التفاح، ملكنا، لمتابعة سقايتها، بتكليف من أبي، مع العامل المصري، جمال، الذي يرعاها بعنايته... ما أتيح حتى لوالدتي مفاتحتي بالسؤال عن «خطيبتي» في ستراسبور: ألكَ خطيبة فيها، وأنتَ لا تقوى على فراقها؟... كان أن أسكتَها والدي، من دون أن أجد نفسي ملزماً بالإجابة عليها، ما لم أكن أقوى عليه في السابق، عند طرح مثل هذا السؤال «الحيوي» بالنسبة إليهما. أأخبرُها بأن لي صديقات كثيرات في ستراسبور ومارلنهايم وفرانكفورت من دون أن تكون أي واحدة منهن «مشروع خطيبة» لي؟

مضت أيام وأيام قبل أن أعاود الخروج، قبل أن أقرر إطفاء هاتفي الفرنسي، وشراء خط محلي، قبل أن أمتنع عن فتح «بريدي» الإلكتروني لأيام متكررة. إلا أن خروجي من البيت إلى الحقول المجاورة لبيتنا، إلى الطريق الترابية قرب النبع، أو إلى ضفاف

النهر، كانت أشبه بالتجول فوق سبل غير مرئية، تقع في ظنوني، في مشاهدات سابقة، أو متخيلة. لم أكن أحتاج إلى استبيان ما يقلقني أو يجعلني ناقماً، بقدر ما كان يدعوني إلى مكاشفة نفسي عمّا صارت عليه، وعما لها أن تكون عليه.

لا أخبار من دانييلا، سوى الرسالتين الصوتيتين على هاتفي الفرنسي. لا أخبار أبداً من كريستين، حتى في بريدي الإلكتروني. أما أخبار فضيلة فقد بلغتني من فيرا، إذ أعلمتني أن صاحب فندق «الأيّل» في مارلنهايم قد اتصل بها للعمل معه، وهو ما ستبدأ به في مطالع شهر يوليو القادم.

فجأة، وحدي. من دون أخبار تحركني وأتابعها. من دون نساء يحطن بي وأحيط بهن في علاقات مفتوحة وملتبسة. وحدي، من دون حكايات جديدة...

بلى، أخبرتني والدتي عن وجود راهبة «شالحة» في قرية بزيزا القريبة، فيما أفادني والدي عن إقدامها على كتابة سيرتها في كتاب: راهبة في إجازة: أأسعى إلى اللقاء بها؟ إلى استكشاف حكايتها؟ أأبحث عن دانييلا أخرى؟

فجأة بدا كل ما يحيط بي متداعياً، خاوياً، فيما لم تكن نفسي تمدني بما يجعلني أحاورها وأقيم معها فوق سرير واحد.

أبقى في القرية مثل من يتجنب المواجهة. مثل من عجز عن قبول ما يصله: من زمور السيارات وقد أصبحت أدوات تعبير في التخاطب العمومي؛ من النقاشات طالما أن الصراخات فيها تغطي، بل تسبق ما يقال فيها...

وحدي، أجلس في الظلمة. وحدي، أتمدد تحت العريشة طوال الليل، ما يربك أمي إذ تستيقظ ليلاً... قلما أتكلم. كيف تجلس وحيداً من دون عمل، من دون كلام؟ هذا ما استرعى اهتمام والدي ووالدتي معاً هذه المرة. هل يعقل أن يبقى أحدهم وحده على هذه الصورة!؟

أحتاج إلى مقادير من الصمت، بعد أطنان من الكلام. أهو هدوء ما بعد عصف الحكايات؟ أحتاج إلى استرخاء، إلى غفلة حتى. أحتاج إلى أن أرى على مهل... أن أتابع النملة في سيرها البطيء والمثابر. أن أتمهل في رؤية العصفور وهو يحطّ على غصن شجرة الخوخ، من دون أن يبالي بي.

وحدي، من دون كلام، ما جعل والدي يتكلم، يشكو. يشرح لي أنه يدخل في الربع الأخير من عمره، فيما قضى الثاني منه منخسفاً: أنزل في جسدي، أنزل من دون توقف، تباعاً، قبل أن أتوارى... تواريت منذ زمن، منذ الأيام الأولى في الحرب... بدأت منذ ذلك الوقت بالنزول في جسدي تدريجياً... شعرتُ بأنني مدعاة إلى اختزال... بات جسدي مثل هيكل لكائن يتداعى فيه، ينحل ويفقد تباعاً قواه وفعاليته.

لم يكن النزول من جديد إلى بيروت بأفضل. زاد فيها شعوري بالابتعاد، زادت تعبيرات امتعاضي. دخلت إلى الجامعة، إلى كلية الآداب، كليتي طالباً وأستاذاً، مثل المتخفي، الذي يعود مرتبكاً بعد فعلة شنيعة. وعند مرأى بعضهم في «الكافيتيريا»، أتساءل: هل يلتقي طلابي خارج الصفوف؟ هل ما تجمعه الجامعة تفرقه وتباعدُ بينه الشوارع والعائلات؟

أتيتُ من مكتب العمادة بشهادة «طبق الأصل»، كما ختموا عليها: أأنا طبق الأصل بدوري؟

لعله التعب، لعلها الحاجة إلى الاسترخاء بعد شهور من السفر، ومن العمل الذي خطفني بقدر ما أنهكني. أهي حاجة الرياضي إلى الاستلقاء، إلى إراحة العضلات المشدودة، بعد مجهوداته الفائقة؟ إذ صرت في وضع المتهالك، المقبل الدائم على النوم، وإن من دون نوم. حتى الكتب نفسها باتت تقرأني، بدل أن أقرأها: أبدأ بصفحة فإذا بالسطور تنقلني إلى جادة المشاة العريضة في فرانكفورت، أو إلى الجسر بين شقتي و«ساحة بروغلي»... وما بدا عليَّ من نشاط في أيامي الأولى موصول بستراسبور، بما كان قد انعقد فيها من مسارات لحكايات وشخوص. موصول باندفاعة تجد حوافزها في مكان آخر... وهي الاندفاعة التي تنتهي إلى تباطؤ بمجرد بلوغ شريط السباق، إذ يتهالك العدَّاء عند أول حائط أو كرسي...

هذا ما أصابني ما أن انتهيتُ من تعقب حكاية البروفسور واليس. أيكون الحلّ في البحث عن حكاية جديدة، عن راهبة بزيزا، على سبيل المثال، التي تركت الدير بدورها؟ هذا ما انسقت إليه ذات مساء مع والدي، فيما بدا لي أنه يخبرني من مكان بعيد، حيث لا جدوى للكلام، ولا للإخبار.

هذا صعب، هذا مؤلم. ما أفتقده، ما أتعقبه ولا أجده، شاغر أساساً، مثل مقعد خشبي من دون جالسين فوق رصيف قطار. أأحتاج إلى دانييلا أخرى لكي تخرجني من رتابة ما أعيش؟ أأحتاج إلى كريستين أخرى لكي تثير أسئلتي وكوامني؟ أأحتاج إلى فيرا أخرى تكلفني بمتابعة «جريمة» والدها؟ أأحتاج إلى فضيلة لكي تعلمني بأن يديَّ مخشبتان، ناشفتان؟

كيف لوالدتي أن تنظر إليهن؟ هذا ما امتنعتُ عنه، إذ إن الحكاية السعيدة الوحيدة التي انتهت إليها شهور إقامتي تمثلت في زواج فيرا من صديقتها. هل تُسرُّها أخبار دانييلا التي تناضل من أجل حقوق الراهبات؟ هل تسعدها أخبار فضيلة وهي تعبر من تطاوين إلى مارلنهايم من دون أن يفارقها منديلها وهي في الشارع، ولا في البيت؟ أأخبرها بأنني تعلمت بعض أمور الطبخ؟ كيف تَقبل ذلك، وهي نظرت إليّ بعين الاستغراب لما أخبرتها عن التوابل؟

كيف لوالدي أن يتقبل ما عشته معهن؟ أكانت قصص فشل غرامي، كما مع بطل «التربية العاطفية»؟ أأخبرُه أنني تعثرت وارتبكت؟ أأخبره بأن كل واحدة منهن دفعتني دفعاً إلى معرفة جسدي من دون أن أعرفه بالضرورة؟ ذلك أنني كنت من يرتطمن به، من يُحدثن فيه الارتجاجات، من دون أن يقوى على استقبالهن، أو التعامل المتكافئ معهن.

ألا يكون ما أشعر به منذ أكثر من أسبوع هو افتقادي لهن، لما أحدَثنه في أيامي، في جسدي، في عالمي الداخلي؟ ألا يكون هذا العالم خالياً، شاغراً، بمجرد ابتعادي عنهن؟ أهنّ مَن جعلنني أظنّ بأنني أتدبر حياتي، وأديرها، وأتنعم بها؟ أيكون ما أفتقده لا يعدو كونه نفسي هي ذاتها؟

حتى متابعة مباريات «الموندیال» لم تُحسن إخراجي من عزلتي المتمادية. اتصالا فضيلة الاثنان المسجلان في ذاكرة هاتفي الفرنسي لم تنجحا في إخراجي من غفلتي المتمادية: كانت تريد شكري عمّا فعلتُه في حياتها، إذ بفضلي، بفضل زيارتها معي لمارلنهايم، كان لها

أن تتعرف على المطعم-الفندق، وعلى مديره، وهي تستعد لأن تعمل فيه بعد أيام قليلة... أنقذني اتصالها الثاني من استرخائي البليد، وأتى صوتها المرتعش، المبتهج بتحفُّظ، لكي يُعيد ابتسامة جافة إلى شفاهي اليابسة. كان صوتها كما لو أنه يسحب الستارة قليلاً عن نافذتي، في غرفتي، ويذكِّرني بوجود شمس منيرة، لي ولها وللحياة نفسها. كما لو أن الثلوج المتراكمة تتفجر وتفيض بمائها المختزن، الفوار... كدتُ أطلب مكالمتها، لكنني امتنعت، وجعلت الثلج الأبيض يتراكم فوقي في حر الصيف.

ذلك أنني أصبحت مثل خيط الصوف الذي كان يكر أمام ناظري، وأنا ألعب به أمام جدتي لأمي... يكرُّ من دون أن أحسن «تخليصه» بحيث تقوى على حياكة كنزتي الشتوية السنوية. كان بعضي داخلاً في بعضي، من دون أن أُحسن التقدم، أو التراجع، أو التوقف. كنت أقرب إلى متزلج من دون أدوات تزلج، فيما يتهاوى جسمه من دون أن يخلف أثراً لنزوله غير انحداره المتمادي.

الغريب هو أنني كنت أتمادى في الانحدار، بل أجد فيه رخاوة كانت تصدم والديَّ، ما كان يظهر في كلامهما القليل معي، وفي سؤالي من دون إلحاح عن حاجتي إلى طبيب. جنَّبني والدي ووالدتي، بتعاون وتنسيق مدهشَين ونادرين بينهما، الزيارات التي تتالت للاطمئنان عن عودة «الدكتور»، أي أنا. هذا ما كان يضايقني إذ إنني كنت أكيداً من أن والدي فخور برحلة ابنه الفرنسية، وبكونه محاضراً في أعرق جامعاتها... هذا ما انتبهتُ إليه من دون أن أبادر إلى أي حركة أو لياقة اجتماعية أو تصحيح في هذا الميزان الاجتماعي المختل. كنت أتمادى في النزول من دون أن أبلغ قاعاً أكيداً للتوقف فيه، من دون أن أرتكز عليه لكي أخرج من جديد من تحت الماء.

وحدها مفرقعات «المونديال» النارية، وغيرها ممّا يلحق بأعياد القديسين المتلاحقة في الصيف، كانت تخرجني من كمدي، من قعودي. كنتُ أنتقل إلى الشرفة، وأساعد والدتي في تعبئة أكياس الرمل البيضاء الصغيرة التي نشكُّ فيها الشموع المنيرة. كانت هي مثل والدي يحتاجان لي، بالمعنى الاجتماعي الأكيد: فخورَين بما انتهى إليه ولدهما الوحيد. كانا لطيفين، حريصين، ما جعلني، في ليلة عيد شفيع القرية، مار ضومط، أجلس خلفهما، وأطوّق بيدي عنقيهما، وأروح في تقبيل وجنتها ثم وجنته عدة مرات، قبل أن تكرّ دموعي ببكاء ثخين وصامت.

وحدي، وأنا على مقربة منهما. وحدي، حتى من نفسي التي أفتقدها. وحدي مثل طفل من دون والدين، مثل شاب بات يتحقق من أن زمن الطفولة مضى إلى غير رجعة: هل سيكون في مقدوري الوقوف بعد هذا القعود المديد؟ كيف لهم أن ينظروا إلى وجهي، إلى هندامي؟ ذلك أنني كنت أشعر بأن علي الخروج في هيئة جديدة، مختلفة. وما كنتُ عليه لم يعد صالحاً أبداً. باتت ملابسي قديمة، لا تصلح لخروجي. شعرت بأنني كنت أرتدي البنطلون القصير في حفل للكبار... هذا ما كان يراودني من أفكار، من وضعيات، من دون أن أُقْدِم حتى على مسايرة خالي لما طلب مني - وهو شغوف مثل والدي بالأدب العربي القديم - محادثته عن محاضراتي في **ألف ليلة وليلة**.

ما كان يؤلمني في هذا الانحدار المتتابع هو أنني كنت أظن بأن من عرفتُ في رحلتي يعرفني أكثر ممّا أعرف نفسي. حتى ما قمتُ به من أفعال هن اللواتي بادرن إليه، وتصرفت معه ليس إلا. ما آلمني في صورة أشد هو أنني كنت أقول لنفسي: حتى جسمي يعرفني أحسن مني... لكنني لا أحسن الإصغاء إليه دوماً.

أنظر إلى وجهي في الحمام نظرة الغريب، نظرة من أرخى لحيته لكي يختفي فيها.

أليس وحدها أخرجتني من قعودي. وصل إلى بيتنا، ذات صباح، أحد أقربائها، وطالبني بزيارتها. امتثلت للفور، ما بعث الدهشة في وجه أمي، من دون أن تسألني عن سبب العجلة، وسبب الزيارة.

وجدتُها جالسة على كرسيها الخشبي الواطىء. الجلسة نفسها على الشرفة، التي تتيح لنظرها النزول إلى النهر من فوق أغصانه الكثيفة. كانت متجهمة، من دون أن تتكلم. ما كانت تنظر إلى وجهي.

سألتني، بعد إعدادها القهوة، عن جدي لأمي، عن تمنعنا عن دفنه في قريتنا. أخبرتني أنها تألمت لوفاته إذ كان والدها يعتز بصداقتهما: كان جدك متعلماً أكثر من والدي... كان جدك ينزل إلى ميفوق للدراسة فيما اكتفى والدي ببعض الدروس قرب السنديانة الكبيرة جنب الدير مع أحد الرهبان...

أدخلتني أليس في متاهات قروية ما أحسنت متابعتها، ولا الاهتمام بها أساساً. كنت أنتظر شيئاً تحادثني به عن البروفسور أو عنها. إلا أنها لم تذكره بتاتاً. ولما سألتُها عنه، رجتني بعدم ذكر الموضوع بعد اليوم: كان أفضل ربما بقاء هذه الحكاية في السر... هل يكفي، بعد كل هذه السنوات، أنه كان مغرماً بي بعد سنوات وسنوات؟! ولما أعدتُ السؤال عن سبب دعوتها لي، أجابتني بعد

أن أدارت وجهها صوبي: أرجوك، لا تفهمني بشكل خاطىء...
شكراً لما فعلت.

أليس غاضبة من حزنها الذي يفيض، الذي تحملتْه لأيام وأسابيع، بعد لقائنا الأخير. ألها أن تعيش حياتها اليوم، بعد سنوات وسنوات عما انقضى؟ أكان لها أن تبقى معلقة في انتظار وصول أحدهم المفاجىء؟ في انتظار رسالة لا تصل؟ في انتظار رسالة تصل من دون أن تُحسن قراءتها؟ أيكفيها أنها صدقت نداء قلبها بأن جيلبير كان يحبها وأنه كان صادقاً؟ هذا ما لم تصدقه في البداية... كيف كان لها أن تقتنع بحب أستاذ فرنسي عابر لراعية قطيع؟!

مضى زمن بعيد لكي تعيد ترتيب حياتها من جديد. كانت حكايتها مع البروفسور عابرة، جانبية، عاشتها بالسر، فكيف لها، اليوم، أن تُخرجها، أن تقيمها مثل شاهد على صدق ما عاشته في باطنها من دون أن يشاطرها أحد به؟ أكان أحد سيصدقها لو أخبرته بحقيقة ما جرى لها؟

كانت متجهمة وصامتة. انتقلت من جديد إلى داخل بيتها، ثم عادت بأوراق جيلبير. مدتها صوبي وهي تقول: لا أحتاج إليها... حفظتها غيباً... أتمتمها أحياناً، في فراشي، بدل الصلاة. بفضلها تعلمت القراءة، وإن لم أستفد منها كثيراً. غيرَ حياتي، بعضها على الأقل... هذه الأوراق قد تفيدك أنت... أنت من يستحقها، وقد تعبت في جمعها.

عند عتبة الباب الخارجي، أمسكتني بيدي، واستأذنتني بتقبيلي على خدي: كانت تصل قبلتُها سنوات بسنوات، «مثل لقاء أرض بسماء»، وفق جملة البروفسور. ثم سألتني:

- أستعود إلى ستراسبور؟

- لماذا؟
- خذ هذه الشجرة الصغيرة معك لابنة جيلبير. . . إنها شجرة صنوبر.
خرجت من بيت أليس كما لو أنني ابنها الذي لم يكن ابنها. . . ابنها من البروفسور، على أنه هو الذي جمع عائلته بعد سنوات، ولكن من دون رب العائلة.

لم أحب أحداً منهن. كان لكل واحدة سياقها، مذاقها، لكنني لا أفتقدهن حقاً، لا ليلاً ولا نهاراً. تباعدت صورهن عني. أكان في إمكاني الظهور معهن من دون طاقية الإخفاء، أو من دون أن أدلف إلى خيمة في سرير؟ وحدها كريستين خرجتُ معها إلى مكان عمومي. وخرجت مع فضيلة إلى سوق خضار، بينما كشفت عن صلتي بها مع مثلية جنسية وخارج ستراسبور نفسها. أهذا يكفي لكي أقول بأنها علاقات عابرة؟ ألا تكون مفيدة مثل علاقات جانبية؟

لي مشاعر أهل الفقيد بعد فقدان قريبهم، في الساعات والأيام التي تلي غيابه: لا يكفيهم أن يتذكروه، أن يقولوا إن غيابه لا يعوض. . . لا يصدقون أنه قد غاب، وأنهم سيعيشون من دونه. لا يكفيهم أن يتذكروا ما كان له أن يفعله في هذ الوضع أو ذاك. . .

يبقون ساهمين، صامتين، لهم عيون من زجاج، ولسانهم مسحوب من حناجرهم، من أعماقهم. مع فارق بسيط، هو أنني في بعضي كنت الفقيد نفسه. من غاب مني؟ من أفتقده ولا أحن إليه؟

من خسرتُ؟ ألي أن أفتقد الغائب أم أن أتنفس الصعداء لتخلُّصي منه؟ أفي الأمر مدعاة لخلاص أم لفقدان؟ أحتاج إلى وقت

من دون شك لكي أتبين فعلاً وجه الفقيد. بعضي يفارقني، بل فارقني منذ وقت، من دون أن يُخطرني بذلك. لعله خاطبني بإشارات سريعة، مقتضبة، من دون أن أبالي بها. ألي أن أقتل أبي؟ أأنا قتلتُه منذ وقت؟ أأنا حلمه وخشيته في آن؟ أما أمي، فلا تزال تشعر بأنني فتاها الذي خرج من دونها إلى الحوش المدرسي للتو. أهي ساذجة إلى هذا الحدّ أم أنها تتابع دور الأم الذي قيل لها إنه دورها أبداً؟

أعاشت أمي حياة مزدوجة مثل أليس؟ أعاش أبي حياة مزدوجة مثل جيلبير؟ أكانت له عشيقات، أو حياة غرامية سرية؟ هل سيخبر أمي - لو كانت له هذه الحياة - مثلما فعلَ قبل زواجهما، حين كاشف كلٌّ واحد منهما الآخر بسابقات حياته الغرامية، فلا يتعرضان لأي مفاجأة، لأي صدمة لاحقة؟ هو أكثر من عقد بينهما، فهل التزما به، وقد تحققتُ في أكثر من مرة من تباعد بينهما، بل من منافسة حولي، إذ يشدانني كلٌّ إلى جهته؟

تنبهتُ إلى أنني أتساءل إذ أكتب، أثير أسئلة أكثر ممّا أجيب. انقطعتْ أو تبلبلتْ علاقاتي بكل شيء، فيما بقيتُ «مخلصاً» - كما أحب أن أقول - للكتابة. الترجمان مشكوك في أمره دوماً، دائماً تحت المراقبة. يحتاج إلى إثبات أمانته، جدارته، في كل لفظ، وبين لفظ وآخر... وحده، تحت دائرة التشكيك أو العجز. أأكتشف عبر الترجمة ميلي إلى الكتابة؟ أهذا ما فعلتُه معهن تباعاً؟ أكتب الكلام، وأستعيده عن ألسنة كثيرين. هذا ما كتبتُه عنهن، وما أكتبه عن لساني. إنه كلامي وإن بألسنتهن أحياناً.

شهرزاد رتيبة أكثر من الحكواتي نفسه. تستعيد وتيرة كلامها

نفسه أياً كان عليه السرد، حزيناً، فرحاً، أو غاضباً. بينما الحكواتي في أمسيات رمضان، على ما أخبرني نبيل، زميل الدراسة قبل سنوات، يعلو بصوته، ينفخ وجنتيه غضباً، أو يعلو بقامته واقفاً عند التحام الفرسان.

أمكنني القول، هذا الصباح، إنني خرجت من الترجمة إلى الكتابة، بدليل أنني أعدت كتابة ما سمعت، وما كتبه غيري... وجدتني أسبح في ماء اللغة، اللغة ذاتها، التي كنت أشرب منها، وأغتسل فيها، وأنزل فيها صعوداً أو هبوطاً، وفي الاتجاهين معاً... إنه ماء ولادتي الجديدة، من دون شك.

لعله ماء ولادتي الغامضة، على ما حفظتُ من قراءة مارسيل بروست إذ كتب: «إنّ عمقَ عمل (أدبي) كهذا، هو مثل عمق الحياة نفسها، الذي هو صورتُها، يبقى غامضاً بلا ريب حتى لمن يعمل على كشف هذه الحياة أكثر فأكثر».

هذا الغموض قد يكون فيه خلاصي... قد يكون عنواناً لقيامي من قعدتي المديدة. فقد راحت تتبدد من رأسي خيالات أو أوهام قدرتي على إعادة تركيب نفسي، مثلما كنت أفعل طفلاً، إذ تقوم والدتي ببعثرة المواد البلاستيكية المختلفة أمام ناظري، وتدعوني لتأليفها من جديد. فانصرافي إلى استعادة المشاهد السريعة، المتوترة، الصادمة، مشهداً مشهداً، لقطةً لقطة، أو مثل الصور المتباطئة عن قصد في الفيلم السينمائي، لا يتيح لي تفكيكها، أو تجزئتها مثل ذرات من حياة. فأنا ما كنت أستعرضها، وأقدم على تفريعها أو تقطيعها، بقدر ما كنتُ أتمدد فيها، أو أتيه، أو أحنق، أو أندم. لم أكن متضايقاً مما عشت، ولا خانقاً على أيامي، وإنما انفتحت أمامي مهاوٍ عميقة وسحيقة في نفسي بمجرد أن خرجت من ستراسبور.

ما عشتُه مع دانييلا وفيرا وكريستين وفضيلة، ومع زملاء وطلبة وغيرهم، كان يتقدمني، يسبقني، يدفعني فوق دروب جديدة. كان يعرضني لهواء، بل لرياح، على أن اندفاعة خطواتي ما كانت تتيح لي التنبه إلى حقيقة الدروب التي كنت أسلكها. هن خصوصاً من دفعنني إلى الولادة من جديد، على أنني خرجت إلى النور هنا، بعد مخاض أليم.

ما عشتُ، منذ وصولي، من «أخبار» هنا وهناك، من الانتخابات الرئاسية المعطلة مثل غيرها في حياة البلد، حتى أحوال سوريا الدامية، أو ابتهاج المصريين بعودة «الأب» بلباس عسكري إلى قيادة البلد، أبقاني في زاويتي الكريهة. وما عشتُه من وقائع في البيت، بين القرية والمدينة، لم يُحدث فيَّ تموجات أو اندفاعات، مثل التي كانت تُقلق لياليَّ أو تُنشطها أو تُطلقها في ستراسبور.

وحدي، وحياتي خاوية.

وحدي، وحياتي محسوبة الخطى من دون مفاجآت.

وحدي، وقد عدتُ إلى ما بتُّ أسميه بـ«الأمن العاطفي»... هذا الأمن الذي يمنع عني سلفاً حدوث أي عاصفة، أو حكاية صادمة. يمنع عني دخولي في علاقات غامضة، وملتبسة، تعرِّض سوابقي إلى الاهتزاز، إلى المراجعة.

كريستين تتباهى بكونها تبحث عن «جنسها»، تبحث عن «هويتها»، فيما أعلنت فيرا جهاراً كونها «مختلفة» عن غيرها، من دون أن أعرف ما إذا كانت رجلاً أم امرأة مع زوجها أو زوجتها، أو أنها كانت الاثنين معاً، وبالتناوب معاً. بينما أسمع، بمجرد انصرافي إلى نشرات الأخبار المسائية، خطابات وتأكيدات عن

«الهوية»، وإعلانات عنها، لا تستقيم من دون حد السيف، من دون سرعة القذيفة.

هذا «الأمن العاطفي» ما كان له أن يسمح بما جرى لي؛ كان سيلتقطه فوراً، قبل الوصول إلى الحدود، ويبعده، أو يحوله عن مجراه. هناك أطر تستقبل، وتصرف ما له أن يحدث قبل أن يحدث. كان لهذا «الأمن العاطفي» أن يحيق بي سلفاً، أن يدعوني إلى التكيف، إلى الرضوخ واقعاً بصيغ ملطفة أو فجة... لو عشتُ هنا ما عشتُ هناك لكان «الأمن العاطفي» تَقبَّلَه، وحوَّلَه في مجرى الأيام البليد. لكان أسقطه تماماً، مع مرارة في الحلق ليس إلا... لكنتُ سكتُّ، لكنتُ ما انتبهتُ أساساً إلى ما كان معروضاً أمامي واختفى... لكنتُ ربما تذمرتُ، أو شكوتُ، مثلما أتحقق من ذلك حين أستمع إلى المشادات أينما كان، بين السائق وزبونه، بين الزوج وزوجته، بين الأخ وأخيه، بين السياسي والسياسي... عن بعد في الغالب.

وحدي، وقد شعرت بتساقط أحجار هذا «الأمن العاطفي» حول جسدي.

كنتُ مثل الحية التي تقشر جلدها، من دون أن تفقد رغبتها في السريان، في التقدم الملتوي... هذا ما أستعيده هذا الصباح من حديث قديم لجدي، بعد أن تنبهت لأحد الحيوانات الصغيرة، التي تنمو قرب ينابيع الماء، إذ تطل برأسها حذرة من بين الأحجار في حائط يعلو جانباً من عريشة العنب: تعلو برأسها، وتديره على عنقها

ماسحة فسحة كبيرة مما يقع عليه نظرها، فوق ما يمكن أن يكون عليه تقدمُها، سعيُها وراء قوتها اليومي.

عدتُ أكثر قرباً من والديَّ، من زوارنا، في المساء خصوصاً، كما لو أنني أخشى الظهور نهاراً، طالما أنه سيفضح تغيُّر ملامحي. لكنني كنت معهم أشبه بمراقب لهم، فلا أشارك كثيراً في أحاديثهم. كنت أقيم خلف لوح من زجاج يفصل ويجمع بيني وبينهم. أراهم ويرونني، من دون أن نتبادل أكثر من تعبيرات العيون وإشارات اليدين.

استعدتُ عادات التمشي عند الغروب، في جهة علوية من القرية، حيث تقع منبسطات وطرق زراعية بين جنائن التفاح. قلما ألتقي بالمزارعين فيها، أو بالعمال السوريين أو المصريين العاملين معهم، في رعايتها وسقايتها، بلوغاً إلى قطافها في نهايات شهر سبتمبر البعيدة. ففي مثل هذه الساعة تكون أعمالهم الزراعية قد توقفت، بعد أن يكون نهارهم قد ابتدأ في السادسة صباحاً في أبعد تقدير. أكون في هذه الساعة أقرب من طبيعة الأرض نفسها، من تاريخها، أكثر التصاقاً بما كانت عليه عندما تدبر أجدادٌ فسحات ممكنة للزرع بين شقوق الصخر. أشعرني أحياناً مثل كائنها البعيد، مع علمي بأنني لا أقوى على تقليب الأرض فيها، فكيف على تسويتها، على زراعتها، على سقايتها... كائنٌ تمكنَ من المشي منذ زمن بعيد، من تجنب الحفر والسقطات، إذ باتت لساقَيه خبرة، ذاكرة متقادمة، أشبه بمدرسة على أطراف أصابعه - أصابع قدميه طبعاً.

القلة القليلة التي يصدف أن ألتقيها في الأرض الزراعية تعرفني، وتبادرني بالتحية مسبوقة بلقبي الجامعي. هذا يجعلني أنسى متعة

التجول في شوارع ستراسبور وأزقتها الضيقة، ولا سيما ممرّ بنيامين الذي أشتاق إليه، وإلى أشجاره الثلاث.

أستعيد شيئاً من خفتي في المشي، بعد أن شعرتُ في خروجي الأول بأن جسدي منهك، لا يقوى على نقل الخطى. وأقوى منذ يوم أمس على سلوك الطريق الترابية التي كان البروفسور ينتهجها صعوداً أو نزولاً بين الدير وخيمته قرب غابة الأرز. ما يزيد على الساعة بقليل، وسط الصخور وأشجار الأرز، فيما تنبعث مني خيالات عديدة تجمع البروفسور نفسه بأليس، بكريستين، بدانييلا، بفضيلة، بوالديَّ، وبفيرا خصوصاً. خيالات مَن يجتمعون، من يسعون في ما أكتبُ، في ما أستجمعُ خيوطه المتباعدة.

كان البروفسور أصغر مني بعدة سنوات لما أتى وبحث ووصل إلى هذه الوديان والمرتفعات، لما أمضى ساعات وساعات منقباً، وفاحصاً في عدد من الحروف، من دون أن ينتهي دائماً إلى تركيبها في ألفاظ أو جمل. كان أقوى من أن يتوقف أمام أي مشكلة، على الرغم من رقته الرومنسية البادية. وصل بنفسه بين روما وستراسبور ومارلنهايم والوطا، بين أدريان وأليس، بين «الطفار» وأرنست رينان، بين الرهبان والمزارعين وجنود الإمبراطورية الرومانية، بين الحجر والخشب، بين سماء مترامية ومشعة بالنجوم وبين أرض تضيق بأهلها على اتساعها، من دون أن تكون له لغة كافية أحياناً. أهذا ما قصده البروفسور حين تحدث عن «لقاء أرض بسماء»، أي لقاء الضيق بالشاسع؟

هذا اللقاء يتعين في قبلة، في ابتسامة مثل التي وقعتُ عليها لما التقيتُ بأليس في قداس يوم الأحد، قبل أيام. كانت تنتظرني في باحة الكنيسة الخارجية بابتسامتها، التي خطفت أنظار البروفسور

الجدّي والرصين من دون شك. لما وصلتُ إليها، نقلتْ عصاها الخشبية من يدها اليمنى إلى يدها اليسرى، ووضعت ذراعها فوق ذراعي من دون أن تبالي بنظرات مَن كانوا يبادلونها التحية. إذ كنت حذراً في تقدمي معها، ومتابعاً لما يمكن أن يصدر عن العابرين من تعابير أو كلمات.

كانت أليس أكيدة في مشيها، في نقل خطواتها، ما جعلني أقول إنها لا تحتاجني في التمشي، في التقدم، ولا سيما بعد أن انتهجنا طريقاً صاعدة في اتجاه بيتها، لكنها تريد أن تقترب مني أكثر. راحت تحدثني متنقلة من حديث إلى آخر، من دون أن أقوى على متابعتها دائماً. كان في ودها أن تتكلم، أن تبلغني أشياء تستحسنها أو تحبها، أو تريد أن تشاركني بها. كان في ودها أن تنتقل معي إلى الطريق التي كانت تستقلها مع جيلبير، إلى طريق «المحبسة»، لكن أقدامها ستخذلها من دون شك.

عند الوصول إلى بيتها، صعدت أليس إلى العتبة بعد المصطبة، وجعلتني أمامها فيما تتدفق من وجهها أنوار مدهشة قلَّما لمحتها في أي شخص قبلها: انسَ ما قلتُه لك في المرة السابقة... لا تنقطع عن زيارتي... يا ليتني أقوى على زيارة أهلك وأتعرف عليهم... بلى، أنا سعيدة ممّا عملتَ، مما جمعتَ... حياتي لم تذهب سدى... حياتي الأخرى، مع جيلبير، استمرت هي بدورها، وهي موصولة اليوم معك، ومع ابنته. هذا يسعدني في أيامي الأخيرة، في وحشتي... ما كنتُ أتألم منه بعد سنوات وسنوات على افتراقنا بات اليوم جالباً لسعادتي، وإن كانت سعادة متأخرة... ستضحك من دون شك مما سأقوله لكَ: أتعرف أنني، وحدي، أتساءل ما إذا كنتَ ابني أم أنك والدي واقعاً...

ما لم أقله لأليس يومها، هو ما قرأتُه بعد أيام، في مكتبة الجامعة، عند أرنست رينان، إذ تحدث عن «الحقائق»، من نوع الحقائق التي فحصها ودرسها في غابة الأرز ونقوشها، ناظراً إليها على أنها «الحقائق التي تغلب الموت، وتمنعنا من أن نخشاه، وتكاد أن تجعلنا نحبه». ما لم أقله لها - وهي لا تحتاجه من دون شك - هو ما أكتبه اليوم في الكافيتيريا: لعل ما انتقش بين جيلبير وأليس أقوى من النقش، أقوى من الصخر نفسه، مما يغلب الموت ويبقى بعده، إذ يلتقي جيلبير اليوم من جديد، في غيابه، مع أليس التي تُتمتم اسمه مثل نشيد أوبرالي، وألتقي بهما بدوري مثل أبوين سعيدين بابنهما.

هكذا تستعيد الكتابة ما كان قد ضاع، ما قد تبدَّد، بل تجعلها تحب حتى الموت نفسه، إذ يتيح لها أن تجمع ما لم تقوَ الأيام على جمعه.

بلى، الكتابة هي التي جعلت من تمتمات أليس التي من دون كلام، ومن كلمات جيلبير التي لم تبلغ أفهام أليس دوماً، لغةً متتابعة، حكايةً متصلة، إن لم يكن لهما، فلغيرهما، ممّن تأكدوا من أن غبار الأيام أحكمَ قبلة بين أرض وسماء، فيما كان لها أن تتطاير من دون أن يبالي بها أحد، أو أن ينتبه إليها.

أصابت الدهشة والدتي لما علمتْ ببقائي في سن الفيل يومين إضافيين، خاصة وأن الرطوبة عالية في هذه الأيام، وأنا لا أتحملها عادة، مفضلاً عليها جفاف الجو الصخري في قريتنا. ما عشته بعد الخروج من كافيتيريا الجامعة هو ما أربكني، إذ تركتُ سيارتي مركونة في الموقف العمومي، ورحت أتقدم في «طريق الشام» نزولاً

صوب «ساحة الشهداء»، «ساحة الحرية»، كما كان عصام ورفاقنا في الجامعة يسمونها لما خيموا فيها انتصاراً لـ«ثورة الأرز»، أي التمرين الأول لما سيسمى بعد وقت بـ«الربيع العربي». شعارات وصور لا تزال تُذكِّر باليوم المشهود... قام تمثال لسمير قصير، أستاذنا، على مقربة من شجرة ومن ماء يتدفق في بركة هندسية، لكن الألوان باخت، وعادت الساحة ممراً للعابرين في سياراتهم، فيما يتوقف أناس أحياناً ويدلفون إلى الضريح للصلاة.

عصام، في سهرة هايدلبرغ، لم يسألني عن الشهداء، ولا عن «المحكمة الدولية» التي باشرت جلساتها قبل شهور قليلة، إذ طوى أعلام خيمته في حقيبة الهجرة الدائمة منذ سنوات. أما والدي فقد أبقى في البيت بعض الملصقات عن تظاهرة 14 آذار التي شاركنا فيها سوياً، مع أمي وعدد من جيراننا: كان يومها فرحاً إذ التقى ببعض رفاقه القدامى، ومن طوائف مختلفة، ممن فرّقتهم الأيام: كان لتلك التظاهرة أن تُسقط أكبر نظام، لا في بلدنا المنقسم... تصورْ، يتلاعبون بالدستور نفسه... باتت له سحَّابة مثل بنطلون الجينز... يتلاعبون بها صعوداً ونزولاً...

مع ذلك تطير وتحط حمامات على درجات مجلس النواب المقفل، بين أقدام الساعين والساعيات في «ساحة النجمة»، فوق عربة الفتاة الصغيرة التي تجر فيها ابنتها «باربي»، فوق اللهو والخفة والابتسامات والبناطيل القصيرة والنظارات الشمسية والأجساد المتكاسلة في سيرها، أو في جلوسها على مقاعد المقاهي...

لا أرى بحر بيروت، حيث جلستُ، لكنني أحدس بوجوده، في المشي، في الجلوس، في اللبس، في ارتخاء التعابير، في ليونة الأيدي، في اللياقة التي تبدو في تصرف هذا وذاك... البحر

يحملهم من دون سفن، يترك الهواء يداعب أشرعة قمصانهم وفساتينهم، فيتهادون كما لو أنهم يرقصون، ويتجاورون من دون صدام، على أنّ الأفق يجمعهم في أحلامهم، ويفرقهم أيضاً.

أنقل خطواتي ونظراتي معهم وبينهم مثل العديد من اللبنانيين ممّن حلوا لأسبوع، أو لثلاثة شهور مثلي، قبل عودتهم من جديد إلى مغترباتهم. مشاعر عابرة، خفيفة، لا تشبه ما أصابني فور وصولي إلى مطار بيروت، وخروجي منه. يومها، في السيارة التي كانت تقلني مع أبي، شعرت بأن الصور والملصقات وما يقع خلفها كانت تحط تباعاً فوق صدري، ترزح عليه مثل شاهدة قبر مبكرة. لم أفصح لأبي عن مشاعري، إذ كانت تصدمني، تباغتني، طالما أن شيئاً لم يتغير في طرق مرور السيارات إلا بعض الحواجز العسكرية الإضافية. شعرت بأن عليّ قبول كل واحد منهم، كل شهيد، كل زعيق زمور سيارة، كل الشعارات المكتوبة على خلفية السيارات والشاحنات... بأن عليَّ تقبيل كل من يقع نظري عليه، بالاعتذار له عمّا حصل لي مع دانييلا أو كريستين... بأن عليّ الاعتذار عمّا جعل فضيلة تنزع منديلها عن رأسها ما أن تزورني... بأن عليَّ الجلوس معهم على الكنبة عينها لما أبلغ بيت أهلي... بأن عليهم أن يدققوا في ما كتبتُ في حاسوبي، في دفاتري الصغيرة التي لا تفارقني... بأن عليهم أن يربتوا على كتفي إن استحسنوا ما أقول، وأن يهزوا برؤوسهم أسفاً على ما أقول في جهالتي وضلالتي... بأن عليَّ قبولهم في نومي وحاضري وكتابتي من دون أن تفيدني علومي وخبراتي في الترجمة، التي لا تحسن الانتقال ولا التواصل ضمن اللغة الواحدة...

أصحيح أن أحد الفرنسيين يحب أليس؟... أصحيح أنك تعرفه؟... أصحيح أنك جلبتَ منه رسائل إليها؟... من أين تعرفها، وهي لا تسكن قريتنا؟

كانت أسئلة أمي كثيرة، متتابعة، ما جعلني أنظر إليها نظرة استغراب، قبل أن أوقفها: من أين أتيتِ بهذا كله؟ ما كنتُ أعرف من أين انبثق هذا السر حتى بلغ أمي. ما كنت أعرف كيف أجيبها: هل أنكر؟ ماذا أنكر؟ ما يعنيني هو أنني لا أريد أذية أليس أبداً، وهو ما جعلني أنقاد إلى نكران كل ما سألته أمي. لم تقبل بما قلت، وراحت تستفيض في شرح أحوال أليس كما بلغتها من جارتنا أنطوانيت، التي تقيم أختها على مقربة من بيت أليس، بل يرتبط زوجها بصلة قرابة بزوج أليس الراحل. لم تكن تملك والدتي قصة متتابعة عن أليس وجيلبير، بل نتفاً متقطعة، ما جعلني أظن بأن أحداً آخر غير أليس هو الذي أشاع الخبر من جديد. فلو أخبرتهم أليس بما عاشت في سرها وبعض أيامها لكانوا سخروا منها، أو جعلوها مومساً سرية...

وجدتني، في سري وعلني، أدافع عن أليس. ألا يكون هو الشعور نفسه الذي تملكني عند خروجي من المطار، ولقائي الأول بالشعارات والصور والهيئات وغيرها؟ لماذا وجدتني أُنكرهم أو أباعدهم عن وجهي؟ أما كنتُ خجولاً أو مستاء من حالهم، مثل مَن لا يتعرَّف على أخت وجدها في وضع مشين؟ لماذا وجدتني أمرُّ بجانبهم مشمئزاً، مثل من يشتمُّ رائحة كريهة؟ لماذا هذا الشعور الشديد بالانتماء وإن يظهر في تجليات سيئة؟ إذ كان في مقدوري الهزء بمنظر بدل أن يغضبني، أو عدم الالتفات أساساً، أو المرور بجانبه وحسب بوصفي غير معني به. ألا أكون مثل أمي إذ تعتني

بأخبار أليس؟ لماذا وجدتْ في قصة غرامها بالفرنسي ما يشغلها، ما يعنيها؟

أفاضت في الكلام عن أليس، من دون أن يشاركها والدي فيه، فيما لم تناقشني، لا هي ولا والدي، في تجديد عقدي مع جامعة ستراسبور. لم يستفسرا عن سبب عودتي إليها من جديد. وإذا كانت والدتي ناقشتني في شيء متصل بها، فقد كان يدور حول زواجي، حول تأخري في الإقدام عليه، خاصة وأنها تأكدت من عدم وجود خطيبة لي في المدينة الفرنسية. أتعنيني إلى هذا الحدّ بأليس ولا تبالي بمصيري؟ لعلها وجدت نفسها قابلة لأن تؤدي دوراً في القصة التي شغلت بعض نساء القريتين المتجاورتين، إذ إن ابنها موصول بهذه الحكاية، ما يجعلها مصدر إخبار واهتمام. أما عن عودتي الأكيدة إلى فرنسا، فهي كانت، مثلما كان والدي على الأرجح، يعتذران سلفاً عمّا في إمكانهما القول لي: أيدعوانني إلى المجيء إلى بلد باتا غير فخورين به، ولا يشبه الوطن الذي عرفاه وحلما به!؟

كان صمتهما عن عودتي أشبه بإعلان خسارة قديم، ومتجدد. ولا يكفي قول أبي لي: اخترْ ما تشاء... إنها حياتك، وأنتَ أجدر مني بمعرفة الصالح والمناسب لكَ. خاصة بعد أن وضع رأسه بين يديه ناظراً إلى أسفل، وهو يقول لي: لعلي ربيتكَ لكي تكون صالحاً في بلد آخر غير هذا... لعلي جعلتُك تكره البلد من حيث لا أدري... لعلي رسمتُ لك وطناً لم تجده منذ أن اتصلتَ به راشداً... الأخلاق هذه جعلتْك صالحاً، لكنها في الوقت نفسه، جعلتْك غريباً... كان عليَّ ربما أن أعلمك التجارة وفنونها، أينما كان حتى في المعرفة والجامعة... أنا أعتذر عن كل هذا.

كان يحادثني مثل صديق لصديقه، وهو ما كنت أفتقده في حياتي، حتى مع معارفي.

كنتُ طليقاً في تلك الليلة، وحنوناً.

كان في إمكاني السكوت أو الكلام، البقاء أو المغادرة. إلا أنني كنت أدرك، في جميع الأحوال، بأن آلامي لا تساوي شيئاً من آلامه الكتومة، الجريحة التي تنزّ في مدى أيامه.

فتحت من جديد خطي الفرنسي من دون أن أجيب على مكالماته في حال حصولها. لا أخبار من كريستين... أما دانييلا فقد أعلمتني في آخر تسجيل صوتي لها أنها تتقدم في كتابة سيرتها مع مترجمها الفرنسي... وفضيلة وقّعت عقد عمل مع المطعم-الفندق بعد انقضاء فترة الاختبار، وأنها كلفت محامياً، بتدبير من فيرا نفسها، لإنهاء معاملات طلاقها مع زوجها...

لم يكن أحد منهم يعلم بقرار عودتي إلى ستراسبور من جديد، الذي ازددتُ اقتناعاً به، على الرغم من إقدامي على توقيع عقدي قبل أكثر من شهر على مغادرتي المدينة. حتى فيرا ما كانت تعلم بعودتي، إذ سألتني ما إذا كان في مقدورها المجيء ذات يوم لمعرفة المنطقة التي أغرم بها والدها. وهي لا تعلم بطبيعة الحال أنني سأجلب لها، إلى حديقة بيتها في مارلنهايم، شجرة صنوبر من أليس.

سأعود إلى ستراسبور من جديد، من دون حبيبة، من دون صديق. لن يتضايقوا من وجودي بينهم من جديد، على ما أظن.

سأعود إلى طلابي، مع موضوع جديد لمحاضراتي، عن ابن المقفع

وترجمته لـ «كليلة ودمنة»، وهو ما شرعتُ في إعداد مواده منذ أكثر من شهر.

أليس كانت تتهيأ بدورها لما بعد غيابي، إذ سألتني عن إمكان زيارتها لبيت أهلي. هذا ما اقترحتُه على والدتي، التي بادرت بنفسها إلى زيارتها ودعوتها للغداء معنا في عيد السيدة العذراء. بعد الغداء، ما كنت أخشاه حصل، وهو أن أمي بادرت أليس من دون مقدمات إلى سؤالها عن حقيقة غرامها بالفرنسي. ما كنت لا أتوقعه حصل، إذ لم تُنكر أليس قصة غرامها، بل راحت تُمعن في شرحها وعرضها بتتابع أدهشَ والدي نفسه. على ما يبدو، لم تكن أليس خجولة بما حصل لها، بل كانت ربما تعوض عمّا لحق بها من أقاويل وإشاعات... كانت أليس على كرسيها هادئة، أكيدة، ممّا تُقدم على قوله. راعية القطيع كانت أبلغ من محامي، ومن جيلبير نفسه على الأرجح. كانت تعيده، من حيث تدري أو لا تدري، إلى القرية. وما زاد من دهشتي أنا بدوري هو أنها اتجهت صوب والدي بالقول: أصحيح أن رئيس لجنة «محمية الأرز» صديق لك، مثلما قيل لي؟ ولما أجابها والدي بالإيجاب، بادرتْه: ألا يستحق جيلبير اعترافاً من أهل قرانا المجتمعة بعمله، بعلمه، إذ كشف عن شيء من تاريخنا القديم؟

بلى، يستحق البروفسور عودة آمنة، كريمة، إلى القرى التي هرب منها مثل قاتل رخيص تحت جنح الظلام. يستحق أن يكون لكلماته، لأفعاله، ذكرٌ، ونقشٌ، فوق إحدى أشجار الأرز... ألا يكون ما كشف عنه، وقد حفظ الغابة من التلف، ومكَّنَ أهلها من تنمية قراهم، أشد نفعاً عليها وعليهم ممّا لو جرى الكشف عن كنوز مطمورة تحت الأرض، أو قرب صخورها؟

دخل البروفسور والتحقَ بنا تحت العريشة، عند تناول القهوة.

ولما وعد والدي أليس بالعمل على ذلك، نظرتْ إليّ مبتسمة، مرددة: كوزومبري... كوزومبري...

هو يعود، وأنا أرحل.

شربل داغر

شهوة الترجمان

«جلستُ إلى مكتبي، انتزعت ورقة من طابعة الحاسوب، وكتبت أسماء: دانييلا، فضيلة، فيرا، كريستين وشهرزاد الإلكترونية. ورحت أكتب إلى جانب كلّ اسم ما تكون عليه علاقتي معه. مزّقت الورقة، واستعدت أخرى، قبل أن أمزقها من جديد، متنبهاً إلى فساد هذه الطريقة. كيف لي أن أكتب عنها، وأنا لا أتبين حقيقة مشاعري من كلّ واحدة منهن؟! مع ذلك وضعت اسمَي: فضيلة وفيرا على جنب، إذ كانت تميل علاقتي بهما إلى الوضوح، وإلى نوع من المودة التي تجمعني بفيرا، وإلى نوع من الشفقة ربما بفضيلة.

خرجتُ من مكتبي ممسوساً، غافلاً أو غير مدرك مَن أكون: من أحب؟ هل أحب؟

لكنها كانت أسئلة صالحة لمراهق يتعثر في خطواته الأولى، لمّا ابتسمتْ له أول صبية من على شرفة بيتها، وهو يعلو بنظره إليها من رصيف الشارع الواقع تحت بيتهم. لكنها ليست صالحة لمن هو في عمري، ولمن له علاقات حميمية... إلا أن فيها ما يربكه فلا يحسن قراراً.

أمِن الضروري أن أتخذ قراراً؟ أأنا أستعدّ لقرار زواج لكي أجدني ملزماً بتصفية لعلاقاتي، لمشاعري؟ وما الضير من بقائها كلها؟».

لوحة الغلاف للفنان سيرجيوس بوزر


ISBN 978-9953-68-782-7


المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com